هزائم منتصرة
وانتصارات مهزومة

قراءة في الثورة والثورة المضادة

عادل سماره

2019

عادل سماره
2019

هزائم منتصرة
وانتصارات مهزومة

قراءة في الثورة والثورة المضادة

عادل سماره

2019

VICTORIOUS TRIUMPHANT DEFEATS AND DEFEATED VICTORIES

شكروتقدير

لا يقتصر إنجاز عمل فكري أو أي عمل إنساني آخر على جهد أي امرئٍ وحسب، فتراكم وتواصل المعرفة البشرية تدمج العمل الحي/ الجاري بالعمل الميِّت/ مجازاً بالطبع، الذي أنجزه البعض قبلهُ ممن ناقش أو نقد أو نقض أطروحاتهم فهم حضور في العمل وإن كان الكاتب لا يعرفهم ولم يعاصرهم، لذا لهم شكر الذكرى.

الشكر للرفيق د. عصام السعدي في الأردن الذي ساهم برأيه وإمكاناته في طباعة هذا العمل رغم جائحة كورونا التي مكَّنت رأس المال من اعتقال معظم البشرية في منازلها وأكواخها. والشكر موصول للرفيق د. مسعد عربيد في كاليفورنيا لمتابعته بناء هذا الكتاب بالنقد والإضافة.

ومن قبيل المصادفة الجميلة أن أعثر بعد إنجاز هذا العمل ووضع عنوانه على مقطع كتبته المفكرة والمناضلة الشيوعية/ الشهيدة روزا لكسمبورغ على فقرة تتطابق مع عنوان كتابي هذا، فقد كتبت هي: "... لقد جعلوا من هذه الهزيمة حلقة في سلسلة من الهزائم التاريخية والتي تشكل الكبرياء والقوة للأممية الاشتراكية. وهذا السبب في أن من هذه "الهزيمة" سيولد نصرا... إن الثورة سوف تصعد مرة أخرى بوهج درعها وسوف ترعبك بصرختها: أنا كنت، أنا هنا، وأنا سأكون".

وذلك في كتاب:

- **The Accumulation of Capital – An Anti-Critique by Roas Luxemburg.**
- **Imperialism and the Accumulation of Capital by Nikolai Bukharin. Monthly Review Press , 1972, p. 6.**

ويكون الشكر لروزا التى قتلتها الرأسمالية بوحشية معنىً اليوم حيث تقوم الرأسمالية الإمبريالية الألمانية اليوم بتكرار قتل روزا لكسمبورغ عبر دورها، دور ألمانيا هذه، في تدمير سوريا متحالفة مع كيانات النفط العربية، الإمارات وقطر مثلاً، التى تقدم ظاهرة عجيبة للجيوبوليتيك التي تغزو أقطاراً عربية لا تلاصقها جغرافيا كما أنها تفتقر

إلى القدرة الإنتاجية والعسكرية وحتى الكم الديمغرافي والبنية الثقافية والحضارية لتلعب هذا الدور إذ لا يتوفر منه لها سوى السيولة المالية المتأتية من الريْع معتمدة بل مقودة بتقسيم العمل الرأسمالى الإمبريالى. أذكر هذا لأن الرأسمالية الألمانية قد زجت بإسم روزا لكسمبورغ في منظمة أنجزة تقوم بدور إمبريالى وصهيونى وخاصة في الوطن العربى فلسطيننا. فأي تشويه لهذه المناضلة!

ويبقى بالضرورة الشكر والعرفان لعناية الشريكة الدائمة في كل ما أنتجت.

تمهيد

ليس عنوان هذا الكتاب بغرض جدل المفردات كما قد يتخيَّل البعض، بل بغرض التأكيد التاريخي، تأكيد شروط التاريخ. فليست الهزيمة في مرحلة ما وظرف ما معزولة عن السياق التاريخي الطويل، لأن هزيمة ما في موقع ما هي تأسيس لانتصار مُقبل. كما أن انتصاراً ما، وتحديداً للثورة المضادة هو مؤقت بالمعنى التاريخي وهو مقدمة لهزيمةٍ لا مندوحة عنها تاريخياً. وتحديداً، فإن سياق التاريخ الكلي العالمي والجزئي هنا وهناك هو في التطور النهائي إلى الأمام حيث يكنس "انتصارات" الثورة المضادة لأنها لا تاريخية. هذا هو المفهوم الديالكتيكي للتاريخ بما هو من صنع البشر، من صنع الإنسانية ولأجلها.

يميل البعض للاعتقاد بأن الديالكتيك هو تحديداً مكون من القضية وعكسها وطباقها.

التفسير الحقيقي للتاريخ قائم على الحدث متولد من الحدث، والحدث هو وعاء التناقض، وعاء يحتوي التناقض الدائم، متنقل من مستوى إلى آخر أشد وأعلى، ومن هنا يرى ماركس أنه ليس صحيحاً فهم الديالكتيك على أنه ثلاثي، أي القضية ونقيضها والطباق، فلا وجود للطباق، ولكن ما يقوله ماركس في هذا الصدد بأن لا وجود للطباق. فما يوجد هو فقط استدخال وإحتواء للتناقض. فالتناقضات لم تُحل أبداً ولا تُحل أبداً، بل يمكن فقط أن تتكرر ضمن نظام حركات أبدية، على شكل أقل بيضاوي/ إهليجي أو على نطاق أعظم[1].

لذا، لم يتوقف هذا الكتاب المتواضع عند هزيمة كميونة باريس معزولة عن ما بعدها، كما لم يتوقف عند انتفاضة ٨٧ في فلسطين، ولم يقدم التاريخ طباقاً لهذه أو تلك، بل بقي كل شيء مفتوحاً على مداه لأن التناقض لا ينتهي بل يرتقي. من هنا أُجيز هذا العنوان.

---

(1) Lefebvre, The Explosion (New York, 1969), p. 62.

يجوز لنا القول أن هذه الفترة، أقصد منذ تسعينات القرن العشرين، من التناقض/ الصراع الرئيسي في الكوكب، هي فترة انتقالية أعقبت تحقيق رأس المال انتصارات واسعة ضد العمل حفزت فوكوياما للزعم بأن التاريخ قد انتهى عند الرأسمالية وأرعبت الكثير من الشيوعيين فأقسموا غلاظ أيمان الردة، وتسابقوا على المساجد والكنائس والندم والتنصُّل. لكن ذلك لم يشهد استسلام العمل أي قوى الثورة، على تنوعها ومستوياتها، وإن كان يشهد أيضاً تماسكاً/ تعاضداً أشد بين قوى الثورة المضادة وانكشاف ما لم يكن منها في العلن وبطريقة فجَّةٍ تشير إلى أن معسكر الثورة في العديد من بقاع العالم لم يعد يُخيف قوى الإرهاب والتبعية والفساد والقمع والجريمة وتجميع هذا كله في هدف رأس المال أي الربح اللامحدود بآليات التبادل اللامتكافئ والاستغلال والنهب اللامحدودين.

هي فترة انتقالية تلت تفكك أنظمة الاشتراكية المحققة وبروز الأنظمة التقدمية في أمريكا الجنوبية، ثم الانقضاض على معظمها من الثورة المضادة، واستعادة روسيا قوتها وظهور البريكس ثم تراجعه بفقدان البرازيل واختلال الوضع بالفساد في جنوب إفريقيا، وصعود الصين كقطب دولي وتنامي دور إيران كقوة إقليمية...الخ. أما في الوطن العربي فوصول الانحطاط إلى ربيع الثورة المضادة، ربيع السبع العجاف حتى الآن.

هذا إلى جانب الأزمة المالية الاقتصادية في المركز الإمبريالي وانعاكاساتها على المحيط على شكل أزمة تحظر على المحيط تبني سياسة حمائية لدرء مخاطرها وهو المنع الذي جوهره أو قانون حركته تحالف:

- رأسماليات المركز مع
- كمبرادور المحيط.

مما جعل أو حوَّل العالم إلى قطاع عام رأسمالي معولم لصالح برجوزايات المركز مع فتات لتوابعها من برجوازيات المحيط[1].

هذا الوضع بين الشد والشد المضاد ممكنة قراءته على أرضية صراع معولم لا يخرج عن نطاق مقاومة العمل ضد رأس المال حتى وإن اتخذ هنا وهناك شكلاً دولانياً لا طبقياً مباشراً.

في هذه الفترة ظهرت التنظيرات اليائسة بل الميالة للاستسلام لجبروت رأس المال بتقولات بأن العالم تم احتوائه تحت جناح "الإمبراطورية" الأمريكية، وبأن سيادات الدول قد ديست وانتهت ومثال على هذا "الماركسية الثقافية" **Cultural Marxism** والتي بدأت من الإدارة الأمريكية وخاصة فترة أوباما وروّج لها المضارب المعولم جورج شورس. بل وصل البعض إلى الاقتراب من القول بأن الإمبراطورية الأمريكية ستكون الناقلة المعولمة إلى الشيوعية وهذا ما دفع قيادات من الحركة التروتسكية إلى الانخراط في تيار الدين السياسي الرأسمالي أي المحافظين الجدد في الولايات المتحدة كي يصل هؤلاء "الشيوعية عبر إمبراطورية الرأسمالية الاحتكارية والأممية عبر العولمة الرأسمالية!" وكانت ثمرة جرائمه احتلال العراق وتدميره. ولا تبتعد عن هذا من حيث الترويج أو التبشير بهيمنة الإمبراطورية وضياع السيادات القومية، في جانب اليسار تنظيرات هاردت ونيجري في إيطاليا.

لكن هذه الفترة المضطربة والمختضَّة بشَّرت بما هو شديد الأهمية وهو تهالك هذه الحقبة أي حقبة العولمة بمضمونها النيو- ليبرالي أو على الأقل قصر عمرها مقارنة

(١) في أعقاب تفكك كتلة عدم الانحياز وبقاء هيكلها بلا مضمون، دخلت معظم هذه البلدان كمحيط مؤدب تحت إبط المركز الرأسمالي العالمي وتجلى ذلك في تدفق المزيد من ثرواته إلى المركز، وتلا ذلك تحول الولايات المتحدة وبريطانيا خاصة إلى الليبرالية الجديدة حيث تغول رأس المال على حصة العمل من الدخل القومي في المركز. ومع نهاية تسعينات القرن العشرين تفككت كتلة الاشتراكية المحققة وتم انتصار رأس المال على العمل، وتمظهرت كل هذه التطورات في تحالف تقوده رأسمالية المركز الثلاثية الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان وتتبعه معظم بلدان المحيط مما حول الاقتصاد العالمي إلى قطاع عام رأسمالي معولم لرأس المال المركزي.

بحقب رأس المال الطويلة نسبياً السابقة عليها بالطبع. فلم يكن أحدنا ليجرؤ على التكهن بتهافت سريع للعولمة، بل كان هناك، كما أشرنا، تعجُّلاً في الاستسلام لها.

لكن العامل الأكثر تأكيداً على ضبابية هذه المرحلة الانتقالية هو عدم حراك الطبقات الشعبية في الشارع العالمي رغم توفر مناخات تدعو للحراك أي أن النجاح البرجوازي في تحييد الشارع أمر مذهل. وهذا يفتح على أسئلة عديدة، هل العامل الذاتي من الضعف إلى هذا الحد، وهل هو ضعيف على مستوى معولم، وهل الحراك الذي حصل ضد الحرب قبيل وخلال العدوان المعولم ضد العراق وأفغانستان كان حراكاً ملغَّماً بالأنجزة بقيادة المضارب شورش وأمثاله مما حصره في نطاق مخملي واحتجاجات مدفوعة الثمن بتذاكر طائرات وفنادق هنا وهناك مما أدى إلى إجهاضه؟ وهل كان هذا الحراك بلا حزب/ أحزاب ثورية تطرد تيار الأنجزة أو تطوعه لثوريتها؟

هذه وغيرها أسئلة طبيعية وفي الجوهر، ولا أقرب عليها من الإجابة ذاتها بأن حركة الثورة كانت أضعف من حمل المهمة. وهذا الغياب أو الوهن يذكرنا بالمآلات التي انتهت إليها كميونة باريس والثورة الثقافية في الصين والثورة الطلابية أيار ٦٨ التي هي الموضوعة الأولى لهذا الكتاب، وذلك على العكس من فرص الثورة المضادة حيث كان العامل الذاتي لتلكم الثورات جاهزاً وقوياً سواء في سقوط أوروبا الشرقية أو "الربيع العربي" أو حتى تراجع الثورة في أمريكا الجنوبية. بمعنى أن الثورة المضادة موجودة ومتجذرة، موجودة قبيل الثورة مما أعطاها القدرة على التقاط اللحظة والاغتيال وتحقيق انتصارات سواء في سقوط الكتلة الشرقية أو تفجير الوطن العربي أو تصنيع رأس المال لموجة القومية الثالثة التي هي ضمن الفكرة الثانية لهذا الكتاب نفسه.

كل هذا يستدعي السؤال الحي تاريخياً الذي طرحه لينين: ما العمل؟

ليست هذه المحاولة بصدد تحديد طريق ما للعمل، وإنما إعطاء إضاءات مقارنة من خلال المعالجات التي سوف تتناولها وهو ما يمكن أن يشير إلى طريق ما.

قد يصح البدء بالشغل الفكري الثقافي ضد جملة أمور شكَّلت رافعة لصالح معسكر العدو:

- كشف ونقد وتفنيد توثيقاً وتحليلاً لأيديولوجيا قوى الدين السياسي التي خلقتها، و/ أو تحالفت بوضاعة مع الإمبريالية والصهيونية وأنظمة الدين السياسي فكان وليدهما الأكثر وحشية هي القاعدة وداعش وتمفصلاتهما.
- استعادة/ استرداد الشارع من قوى الدين السياسي وخاصة بعد انكشافه، أي أن لا نكتفي بتحليل الظاهرة بل بالهجوم التنظيمي الممنهج لنفيها. أو لنقل تجاوز تحييد ومن ثم حيادية الشارع وتحديداً الطبقات الشعبية.
- أيديولوجيا استدخال الهزيمة الآتية من أطراف الثورة المضادة بل وحتى من "حلفاء" في الإقليم التي تروِّج لأكذوبة أن العرب لا يقاوموا ولا يحاربوا[1] ولا ينتصروا ولا ينهضوا وبأن أقصر طريق للحياة هي النذالة وليس التصدي بشرف.

(١) في كتابه ***الانفجار، قصة حرب يونيو ١٩٦٧*** ، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠، ص٨٠٣، يقول هيكل بأن وظيفة الحرب الفعلية لم تكن ضمن الوظائف التي كانت ملقاة على عاتق الدولة والشعب المصري، معظم فترات التاريخ، حيث اضطلع بها في القديم الجند المملوكي والتركي المستجلب، واحتكرتها في العصر الحديث الدولة الاستعمارية الحامية، ولم يشترك أبناء المصريين الحقيقيين في المؤسسة العسكرية للدولة المصرية إلا في وقت متأخر هكذا، لم يتح لمصر أن يتمرس جيشها على أساليب القتال ويتمكن شعبها من استيعاب فكرة الحرب... والمحصلة، أنه حتى منتصف القرن العشرين لم يكن العرب ومن بينهم مصر قد تعرفوا على فكرة الحرب وعلى دورها في صهر وصب وصياغة معادن الأمم". لست أدري إن كان هذا رأي هيكل أم هو مستوحى من نظرة خارجية استعمارية مغزاها الحرب النفسية وتقطيع التاريخ. فمصر الفرعونية كانت مقاتلة وحربية وكان الأمويون، إن لم نقل العباسيين قد أقاموا إمبراطورية ناهيك عن الدولة الفاطمية في مصر نفسها. لذا، ليس دقيقاً أن يبدأ هيكل من فترة انحطاط الوضع العربي مملوكياً ومن ثم استعمارياً عثمانياً وغربياً وفك ذلك عن المراحل السابقة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هيكل لم ينتبه لهزيمة فرنسا ميدانياً على يد الجزائر وبريطانيا على يد جنوب اليمن حيث كان لمصر الدور العظيم في ذلك. ولعل الأهم من كل هذا، أن الحرب ليست عادة وتعويداً أو وظيفة وإنما مواجهة تحدي بالمقاومة، وهو أمر ينطبق على مختلف الأمم. أما الحرب كوظيفة فذلك دور العدوان الخارجي وشكله الحديث الاستعمار. وقد يكون من قبيل الاستزادة، أن العرب في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين قد تورطوا في شكل فظيع من الاحتراب الوحشي على يد قوى الدين السياسي.

مقتطف في: عادل سمارة دفاعاً عن دولة الوحدة: إفلاس الدولة القطرية. رد على محمد جابر الانصاري. **منشورات دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٣**. ومركز المشرق/ العامل، ٢٠٠٤، ص ص١٦٢-٦٣.

- تعميق الطلاق الضروري بين الشعبي والرسمي في الوطن العربي أي بين البرجوازية التابعة المحيطية والكمبرادورية والطفيلية وبين الطبقات الشعبية.
- حسم الموقف من التطبيع ليصبح جزءاً من الحياة اليومية للناس لاسيما وأن مناهضة التطبيع ومقاطعة منتجات الأعداء هو أفضل تشغيل ممكن للجماهير بين حرب وحرب. ونقصد هنا بالتطبيع مع ثلاثي الثورة المضادة.
- تفكيك مفاصل سلطة الدولة القطرية وذلك بالشغل اليومي على تقويض "مصداقية" السلطة القطرية سواء بالتثقيف أو العناد أو إرهاق أجهزتها وخاصة عبر مهاجمة مواقع الأنظمة العدوة وصولاً إلى أجهزة هذه الدولة التابعة والعدوة للشعب، وهذا يشترط تشكيل اللجان الشعبية الميدانية في الأحياء كي تلعب دوراً توعوياً تحشيدياً تعاونياً كفاحياً... الخ.

ولكن، كيف يمكن تحقيق هذه المهام ومثيلاتها كمقدمات لثورات جذرية تطيح بما هو قائم وتبني عالماً جديداً؟

هل يعني هذا الانتقال إلى الانفجار الثوري المباشر؟

في حال تدفقت الجماهير إلى الشارع، فهذا حدث. والحدث لا يستشيرنا، بل يفرض نفسه. وفي هذه الحالة يكون السؤال المحرج: هل جرت ولادة الحزب الثوري الطليعي ليقود الجماهير أم لا؟

إن كان قد تبلور، فذلك تطابق الموضوعي والذاتي، وإن لم يكن، فذلك يعني محاولة الانخراط في الميدان وإثبات الذات وقيادة الحراك نحو العنف الثوري بلا مواربة.

أما إن لم يحدث الفيضان الجماهيري إلى الشوارع، يكون السؤال:

- هل تقوم المفارز المسلحة بالاشتباك مع السلطة كمهماز للتحريك الجماهيري؟ هذا على اعتبار أن تفكيك مفاصل السلطة القطرية هو عمل

دائم لا موسمي كمقدمات للصراع العنفي مع النظام العميل والتابع والبرجوازي، تماماً كما هو الموقف المقاتل ضد التطبيع.

وهذا أمر يشترط حسابات دقيقة، بمعنى حدود القوة وحدود الاحتضان الشعبي الجماهيري للمنتفضين المسلحين سواء في غوار الريف أو غوار المدن السري طبعاً. هل هناك إلى جانب الزمر المسلحة وحدات شعبية تقاتل وراء المتاريس؟ هل لدينا التأثير على الجماهير لتقيم متاريساً شعبية بمعنى العصيان المدني وزمر تفكيك مفاصل سلطة الدولة القطرية.

يحضرني هنا مشهد المتاريس المعممة في المناطق المحتلة ١٩٦٧ حيث أقيمت متاريس الحجارة وقطع الخردوات والإطارات في مداخل وداخل كل قرية ومخيم ومدينة. ولم تتم مشاغلة جيش العدو في أية لحظة أكثر من مشاغلته في هذه الانتفاضة ٨٧. وهي مشاغلة جماهيرية شاملة رجالاً ونساءً وصبيةً.

ما أقصده هو جاهزية أداة الثورة قبل المباشَرة بها، إلا إذا بدأت كحدث، وحينما تبدأ كحدث يكون السؤال كما أشرنا أعلاه:

- هل الأداة جاهزة
- أو هل يمكن ولادتها مع الحدث
- كيف يمكن جعل الأمرين ممكنين معاً؟

ليس صحيحاً أن معارك المتاريس قد انتهى زمانها. فقد تعلمنا من الانتفاضة الفلسطينية ٨٧ أن إغلاق الشوارع وقذف العدو بالحجارة وحرق العجلات في كافة القرى والمدن كان يُشاغل جيش العدو.

كما ليس صحيحاً القول بأن بندقية حرب الغوار لم تعد ذات فاعلية بعد الهليوكبتر. فقد نجح حزب الله في الجمع بين البندقية وتكتيك الغوار من خبرات فيتنام

وكوريا الديمقراطية[1] واستخدام الكورنيت في شل دبابات الكيان الصهيوني، وفي منعه من التقدم من الريف إلى المدن.

بقول آخر، فإن حرب الشعب لا تفقد دورها ولا قدرتها على الانتصار. قد تتآكل تكتيكات وتحل محلها أخريات يتم ابتكارها، لكن استراتيجية حرب الشعب طويلة الأمد لا تتداعى ولا تتغير. وليس علينا سوى توسيع مضمونها الماوي. فإذا كان المفهوم الماوي قد ركز على الشعب في احتضان الغواريين، فإن حرب الشعب اليوم تتضمن ذلك وتتضمن حرب المدن وتتضمن مقاطعة منتجات الأعداء وتتضمن رفض التطبيع وتتضمن التنمية بالحماية الشعبية وتتضمن صد ونقد وتعرية أيديولوجيا السوق واستدخال الهزيمة. إن فضاءات المقاومة عديدة ومتسعة وتتسع دائماً.

الشعب مخزون هائل للكنوز. الشعب كالتاريخ يقدم لنا مفاتيحاً ومغاليقاً والعبرة في توفر من يمكنه التقاط المفاتيح والعبور إلى الكنوز وتفعيلها وتثميرها من جهة وما طبيعة مشروعه من جهة ثانية، بمعنى لأية طبقة مما يعني أن تاريخية المشروع هي في حدود أو مشروطة بأن تكون أداة المشروع توليداً شعبياً من الأكثرية الشعبية وتعمل لمصالح هذه الأكثرية وتحت عينها ومراقبتها ومتابعتها. هذا معنى التقاط مفاتيح التاريخ، وإلا كيف تُبدع الشعوب آليات مقاومة جديدة؟

يقودنا هذا إلى الوجع الحقيقي وهو غياب أو تغييب الحزب الثوري الذي يلتقط كل هذا ويطوره ويقاتل معه وبه أي ينقل الصراع من مستوى الغضب والنقد إلى الاحتجاج وتفكيك مفاصل السلطة وصولاً إلى العصيان المدني والكفاح المسلح أي

---

(١) **أنظر، عادل سمارة، حزب الله: تفوق القائد والمقاتل والكيان: ارتباك الإثنين قراءة في كتاب: حرب ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل، تأليف مان. م. ماثيو. ورقة صادرة عن مركز الأسلحة المشتركة للجيش الأمريكي. ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨ في كنعان النشرة الإلكترونية Kana'an The e-Bulletin –، السنة السابعة عشر، العدد ٤٥٥٨، ٣ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٧.**

https://kanaanonline.org/ar/2017/09/03/%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%a1%d8%a9-%d9%81%d9%8a-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%ad%d8%b1%d8%a8-2006-%d8%a8%d9%8a%d9%86-%d8%ad%d8%b2%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d9%84%d9%87-%d9%88%d8%a5%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6/

الحرب الشعبية ضد الطبقة الحاكمة المالكة والتابعة معاً. وهو الحزب الذي تفرزه وتراقبه وتحاسبه الطبقات الشعبية التي تشكل برلمانها الخاص مُلهم وواضع استراتيجيتها وتكتيكها الذي على الحزب تبنيه.

هي حرب أهلية حقاً، الفقراء ضد اللصوص الأغنياء، المقموعون ضد الجلاوزة، حيث يقوم الأب كشرطي بقمع ابنه في الشارع إطاعة لأوامر السلطة، أليست هي حرب أهلية حقيقية؟

في قراءة شروط الثورة، لا بد من أخذ النظام العالمي كإطار قراءة وتحليل وصولاً إلى الحالات العينية المحددة في البلد أو الدولة القومية. في هذا السياق كانت قراءة كميونة باريس والثورة الثقافية، والانتفاضة الفلسطينية ٨٧ والثورة الطلابية هي صلب هذا العمل.

كما تفيد إشارات عن الاقتصاد السياسي المعولم لعالم اليوم لتوفير إضاءة فرؤية تساعد على قراءة وضع البلد المعني من حركة ثورية معينة شريطة الاطلاع المعمق للحالة العينية وتحليل ظروفها ومبناها.

لا شك أن هذا العالم منقسم بالعموم إلى مركز ومحيط وربما صحيح القول بأن المحيط درجات والمركز درجات أيضاً. كما أن كل مركز مقرون به محيطاً، وفي كل بلد محيطي مركز ومحيط أيضاً؟ لا بل إن من زُخرف القول بأن العالم قرية واحدة، قول مبتذل لا معنى له سوى الكذب والتعمية، فبإمعان النظر نجد أن هذه القرية مكونة دائماً من **Downtown and Chanty Town**.

لا يقتصر التقاط خطر الرأسمالية وخطورة استمرارها على الثوريين النقديين الماركسيين، فبعض الليبراليين يُقرُّون بذلك الخطر كما كتب ديفيد كورتن:

"... في الحقيقة فإن أساطير الدعاية الهادفة لتبرير انتشار الجشع والتغطية على الانحراف المعولم للمؤسسات الإنسانية هو نتيجة التدخلات الممولة جداً والنتائج المعقدة

لما قامت به نخبة صغيرة التي مكنتها أموالها من العيش في عالم من الوهم بعيداً عن بقية الإنسانية[1].

"... إن الفجوة التي تفصل أغنياء العالم عن فقرائه داخل البلد الواحد وما بين البلدان، هي هائلة وتتسع. ففي عام ١٩٩٢ بيَّن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عدم المساواة بشكل درامي حيث عرض التوزيع العالمي للدخل برسم بياني على شكل زجاجة شمبانيا تُظهر أن ٢٠ بالمئة من سكان العالم الذين يعيشون في البلدان الأكثر ثراء يحصلون على ٨٢.٧ من الدخل العالمي، وبأن ١.٤ بالمئة من دخل العالم يذهب إلى الـ٢٠ بالمئة الذين يعيشون في البلدان الأفقر في العالم. أما في عام ١٩٥٠ أي في الوقت الذي حصل فيه الالتزام العالمي بتقدم التنمية – بلغ متوسط الدخل لـ الـ٢٠ بالمئة من سكان البلدان الأكثر ثراء ثلاثين ضعف دخل الـ٢٠ بالمئة من سكان البلدان الأشد فقراً. وبحلول عام ١٩٨٩ تضاعف الفارق بـ ستين مرة[2]".

"... تصف شركة نايك الأمريكية الضخمة للملابس نفسها على أنها "شركة/ منظومة" فهي تشغل ٨٠٠٠ شخص في الإدارة، والتصميم والبيع، والتحفيز، بينما يقوم بالإنتاج ٧٥ ألف عامل مستأجرين على أيدي متعاقدين مستقلين. ويتم معظم الإنتاج خارج الحدود في أندونيسيا، حيث أن زوج الأحذية والذي يباع في الولايات المتحدة من ٧٣-١٣٥ دولار لا تزيد كلفة إنتاجه عن ٥.٦٠ دولار من قبل بنات ونساء شابات يتقاضين أقل من ١٥ سنتاً للساعة. ويتم حشر العمال في بركسات للشركة، ولا توجد لهم اتحادات عمالية، ونادراً ما يتقاضون على ساعات العمل الزائدة -أوفر تايم- وإذا ما حصل إضراب فمن المحتمل أن تأتي الشرطة لكسره. إن مبلغ الـ٢٠ مليون دولار التي حصل عليها لاعب كرة السلة مايكل جوردان عام ١٩٩٢ من أجل الترويج لأحذية نايك تتجاوز كل أجور العمال الأندونيسيين الذين ينتجونها[3].

---

(1) Korten C. David, When Corporations Rule the World Copupublication of Kumarian Press, Inc, and Barrett-Koehler Publishers, Inc 1996, p.p. 106-97, p.11.

(2) Ibid.

(3) Richard J Barnet and John Cavanagh, Global Dreams: Imperial Corporations and the New World Order (New York : Simon and Schuster , 1994, pp. 325-329.

في عام ٢٠١٠، مثلاً، شكَّلت ثروة ٥٠٠ شركة في الولايات المتحدة ٧٣.٥٪ من كل الناتج الوطني الإجمالي. وتجني أكبر ٢٠٠٠ شركة في العالم إيراداتٍ بلغت ٣٢ تريليون دولار، وأرباحاً بلغت ٢.٤ تريليون دولار، كما يشير آلان وودز. كما أن إيرادات أبل وأمازون وجوجل مجتمعات عام ٢٠١٧ فاقت إيرادات دول الخليج مجتمعة.

يعيش ٧٦٪ من سكان العالم في بلدان فقيرة بينما يعيش ٨٪ في بلدان ذات مستوى وسطي، ويعيش ١٦٪ من العالم في بلدان غنية. هذا إلى جانب تبخر الطبقة الوسطى في العديد من بلدان العالم وخاصة على ضوء الآثار التي تلت أزمة عام ٢٠٠٨ المالية الاقتصادية. ومع ذلك تصرُّ دول المركز على شجب ومنع تبني أيًّاً من بلدان المحيط للحماية الاقتصادية.

يمتلك ١٪ من سكان الكرة الأرضية نصف ثروات العالم وتعادل الثروة الشخصية لأغنى ٦٢ ملياردير الثروة المجمعة لأكثر من ٣.٥ مليار من أبناء البشرية، يتسبب الجوع في وفاة أكثر من ١٨ مليون انسان في العام على مستوى العالم، بينما يموت ٣٥ ألف طفل يومياً بسبب الجوع والمرض، ويقضي خمس سكان البلدان المتخلفة اليوم وهم يتضورون جوعاً. فيما تقل المساعدات المخصصة للدول الفقيرة عن طريق منظمة الأمم المتحدة عما تنفقه تسعة من البلدان المتقدمة على طعام القطط والكلاب.

توقع ماركس كذلك تطوراً معيناً للرأسمالية يقوم على تركيز شديد لرأس المال وتراكم هائل للثروة، يصاحبه فائض إنتاج وبطالة ولا مساواة، إضافة إلى فائض بؤس للملايين من البشر. ووفقاً لتقرير صادر عن مؤسسة أوكسفام في بداية هذا العام ٢٠١٨، فإن ٨٢٪ من الثروة المتولدة في العام الماضي ذهبت إلى أغنى ١٪ من سكان العالم، في حين أن ٣.٧ مليار شخص، يشكلون نصف سكان العالم الأكثر فقراً، لم يشهدوا أي زيادة في ثرواتهم. ويحتاج المدير التنفيذي لإحدى أكبر خمس شركات أزياء عالمية لأربعة أيام فقط ليجني من المال ما تجنيه عاملة ملابس بنغلاديشية طيلة حياتها.

ويشير التقرير نفسه إلى أنه في الولايات المتحدة، يجني المدير التنفيذي فيما يفوق

اليوم الواحد بقليل ما يجنيه العامل العادي في سنة كاملة. وتبلغ تكلفة رفع أجور ٢.٥ مليون عاملة ملابس فيتنامية إلى الحد الأدنى للمعيشة ٢.٢ مليار دولار، هذا المبلغ يساوي ثلث المبلغ الذي تلقاه الشركاء في أكبر خمس شركات في قطاع الملابس عام ٢٠١٦[١].

هناك مؤشرات إحصائية جديدة في العالم للأعوام الحالية، تؤكد استمرار هذا التوجه وتفاقمه لاسيما في حقبة العولمة بمضمونها النيولبرالي مما يضع العالم في لحظة التناقض التي يصعب فهمها إن لم نقرأ العالم برؤية تاريخية. تناقض مضمونه بأن شروط الثورة تتكاثف بوضوح، بينما حدوث أو وقوع الثورة لا تبدو له ملامح ذات بال! وهنا يأتي قانون التاريخ الذي يقول بأن ما حدث في فترة ما، وما ظهر كقانون مُسلَّم به في زمن ما أو بلد ما، لم يعد قابلاً للولادة مجدداً في زمن آخر وبلد آخر وحتى البلد نفسه. صحيح أن التاريخ البشري واحد لكنه واحداً في المتعدد.

أما المفارقة، فإن أعتى دُعاة تحرير التجارة الدولية، أي الولايات المتحدة التي وُصفت بالإمبراطورية في بداية حقبة العولمة قد ارتدّت لتتبنى سياسة حمائية واسعة وعلنية وهو ما تمت ممارسته بعد عام على رئاسة دونالد ترامب حيث فرضت الولايات المتحدة رسوماً جمركية على سلع أوروبية تصل ٢٥ بالمئة ناهيك عن العقوبات الاقتصادية ضد روسيا... الخ[٢].

كيف يمكن للمرء فهم هذه المعادلة الواضحة فوق العادة بمعنى:

---

(1) www.7iber.com/politics-economics

(٢) كنعان **النشرة الإلكترونية Kana'an – The e-Bulletin السنة الثامنة عشر، العدد ٤٧٧٠، ٣٠ أيّار (مايو) ٢٠١٨، ترامب ثور يدوس أمعاء، آدم سميث هل آن أوان كسر ظلفه؟ د. عادل سمارة**

https://kanaanonline.org/2018/05/30/%d8%aa%d8%b1%d8%a7%d9%85%d8%a8-%d8%ab%d9%88%d8%b1-%d9%8a%d8%af%d9%88%d8%b3-%d8%a3%d9%85%d8%b9%d8%a7%d8%a1-%d8%a2%d8%af%d9%85-%d8%b3%d9%85%d9%8a%d8%ab-%d9%87%d9%84-%d8%a2%d9%86-%d8%a3%d9%88%d8%a7/

- تتراكم في العالم مختلف موجبات الثورة.
- بينما لا تحصل الثورة!

مليارات المفقرين، وأكثر منهم من يرزحون تحت نير الاستغلال، ذهاب رأس المال باتجاه الفاشية كما في أمريكا رأس المركز الرأسمالي، وفي العديد من مجتمعات أوروبا الغربية، وتراجع القوى التقدمية والثورية في أمريكا الجنوبية، والانخراط المستسلم لأوروبا الشرقية في التبعية، تفريخ قوى الدين السياسي في الوطن العربي بتحالفها الثلاثي: المحافظية الجديدة، اليهوسيحية، الوهابية وتمفصلاتها.

لا يصح القول أن أحد الأسباب غياب الأحزاب، لأن الأحزاب موجودة في الغالبية الساحقة من بلدان العالم. لذا، ربما يصح القول أن الإشكالية هي في تغير طبيعة الأحزاب وخاصة الأحزاب الشيوعية ولاسيما إثر تفكك الكتلة الشرقية علماً بأن تجلي الأزمة في هذه الحقبة ليس معزولاً عن "سيرورة" تراجع هذه الأحزاب والأحزاب القومية التقدمية منذ عدة عقود. وأعني أن التغير هو في مسألة الموقف من الفكر إما بتحويله إلى أيديولوجيا أو بتمييعه ليصبح مفرغاً من محركه الصدامي. إنه تدجين النظرية وتحويلها من معرفة ثورية إلى كم معلوماتي منزوع السلاح، بل للبيع والتأجير.

وإذا كانت الرأسمالية قد احتوت قيادات النقابات العمالية في فترة ما بين الحربين وفترة الازدهار بعد الحرب الثانية وحولتها إلى قيادات "ارستقراطية" فإن هزيمة الكتلة الاشتراكية وتراجع بلدان الموجة القومية الثانية، قد دجنت العديد من الأحزاب الشيوعية. أما الأحزاب في بلدان المحيط، فالعديد منها سقط إلى درك الأنجزة إثر قبول التمويل من الأنظمة الرأسمالية الغربية تحديداً وخاصة بعد أن تمكنت الإمبريالية من تحويل الكثير مما تقدمه من مال مسموم من الحكومات إلى منظمات الأنجزة في عملية اختراق للمجتمع وليس للسلطة فقط. ولا تجرؤ الحكومات على الاعتراض كونها تتلقى وحسب.

قد تكون قمة التناقض بل اللامعقول، أن تتراجع الحزبية العربية متخذة شكلاً من الأنجزة، ولتحل محلها قوى الدين السياسي التي نبتت من الحقل الاجتماعي نفسه،

في التربة نفسها، واستبدلت الشعارات التاريخية في التحرر والوحدة والتحرير والاشتراكية بشعارات دامية مسلحة حيث كل مذهب ضد الأخريات وكل طائفة ضد الأخريات، وتكفير بالسرديات الكبرى، القومية والاشتراكية، والدعوة إلى أمة الإسلام عبر ممارسة القتل والذبح ضد معظم مكونات الأمم التي تدين بالإسلام وضد القومية العربية بوضوح فاقع.

وإذا كانت الحزبية العربية القومية والشيوعية ضد الإمبريالية وإلى حد ما ضد رأس المال، فإن قوى الدين السياسي هي من خلق ورعاية المركز الإمبريالي. وعليه، إذا ما تابعنا كيفية توليدها، ومن ثم رعايتها من الإمبريالية، نلتقط المشترك في التوليد والرعاية والاستخدام مع الكيان الصهيوني.

لا غرابة أن تجنيد قوى الدين السياسي هذه أضاف للولايات المتحدة خاصة ما أسميناه جيش أوباما/ جيش أمريكا الثالث مما وفر على الجيش الأمريكي، وحتى الجيش الصهيوني/ جيش أمريكا الثاني الدخول في الحروب البرية فاسحة المجال للإمبريالية والصهيونية بالقتال من الفضاء.

في مواجهة هذا الواقع الصعب الذي لا يدع فرصة للمرونة الطبقية من جانب الطبقات الشعبية بل يدفع بالوجوب الثوري العنفي تحديداً. وهذا يطرح السؤال التحدي: هل العنف المطلوب هو بمعزل عن ميزان القوى. ولا نقصد بميزان القوى أن تصبح قوة الثوريين بمثل قوة أسلحة العدو، أم بتوفر قدرتهم على الاستمرار كي لا تكون هبَّة لمرة واحدة وللحظة وحسب.

إن تفكيك مفاصل سلطة الدولة القطرية في الوطن العربي مقدمة لفرض التراخي على أجهزة هذه الدولة سواء عبر مشاغلتهن أو عبر ارتخاء ارتباطهن بتلكم السلطات التي لم تغادر موقع التبعية والقمع والإفقار. وتفكيك المفاصل ليس عملاً سلمياً ولا سلبياً، إنه عنف ثوري طابعه سري، مجموعاته سرية محدودة العدد، مهامهه تخريب منشآت الأعداء وتشغيل قوى الأمن في حماية هذه المؤسسات، والدعوة لمناهضة التطبيع ولمقاطعة منتجات مختلف الأنظمة المعادية وصولاً إلى مهاجمة مسوقيها بعد

تحذيرهم وتحريض المجتمع ضد الاستهلاكية عموماً وضد منتجات الأعداء خاصة. إنه تدريب المجتمع على الاحتجاج، ثقافة الاحتجاج والانتقال من مستوى الوعي الثقافي إلى ممارسة التصدي بتفكيك مفاصل سلطة الدولة القطرية، في الحالة العربية مثلاً.

يترتب على هذه المقدمات الانتقال إلى العنف الثوري سواء بالإضرابات والعصيان المدني وصولاً إلى الكفاح المسلح بحرب غوار المدن خاصة متزامناً مع هذه المقدمات جميعاً.

ليس المطلوب زج الجماهير مباشرة في الكفاح المسلح لأن هذا قد يعطي السلطات الفاشية فرصة الفتك وأداً للحراك لزمن طويل قادم. بل يمكن للجماهير أن تكون حاضنة الكفاح المسلح إلى جانب نضالاتها بالعصيان المدني والمقاطعة ومناهضة التطبيع.

وحدها هذه الأشكال الابتكارية من النضال هي التي تنقل المجتمع من وضاعة الحرب الطائفية والقبلية والجهوية والمذهبية إلى الحرب الأهلية الحقيقية، النضال لتغيير كافة البنية الطبقية الحاكمة وأيديولوجيتها. وهي التي تفرز الحركة الحزبية الثورية لتخلع قوى الدين السياسي ذات الارتباط بالثورة المضادة بعدما فكَّكَت هويته القومية التحررية.

إن "السياسة العسكرية الثورية هي إعداد واستعمال لوسائل القوة العسكرية في خدمة الهدف الثوري". لاسيما وأن الشيوعية تعارض جذرياً أية دوغمائية تحاول أن تفرض والتي عبر ذلك الارتباط فتكت بالهوية القومية للطبقات الشعبية ووضعتها رهينة قطبين متحدين شكلاً ومنفصلين بالضرورة وهما:

الطائفة أو المذهب في البلد الواحد ووهم دولة الأمة الإسلامية على صعيد عدة قارات!

ما نحاجج من أجله هو: مستويان من الاستعادة، قد يكونان متزامنين أو يولّد أحدهما الآخر عبر الحدث.

- استعادة قوى الثورة شارعها المختطف أو المُحَيّد.
- واستعادة الحزب الثوري/ تكوينه في مواجهة قوى الدين السياسي.

وكلا الاستعادتين ليستا مهمة سهلة. ذلك لأن غياب الأحزاب الثورية عن ساحة النضال بدءاً من هزيمة ١٩٦٧ وصولاً إلى تفكك الكتلة الاشتراكية التي لم تتدارك خطيئة تتبيع الأحزاب الشيوعيية لمركزها مما خلق حالة من العجز عن فهم متطلبات الساحة وبالتالي العجز عن صياغة خطوط العمل النضالي المطلوب والممكن تحقيقه.

لقد سقطت أنظمة الجمهوريات العربية في مأزق صارت هزيمتها بناء عليه متوقعة. فقد اعتمدت في تثبيت النظم داخلياً على الدور الأمني، تحولها إلى دولة أمنية واعتمدت في حماية نفسها من الإمبريالية على الاتحاد السوفييتي. وما أن تفككت الكتلة الشرقية حتى أصبحت هذه الدول بلا مظلة حماية ضد العدوان الرأسمالي الغربي أي الإمبريالي وبالتالي عرضة للغزو الخارجي. ورغم ما قطعته من شوط باتجاه العلمانية والاشتراكية والتنمية والثقافة والتعليم المجاني ووضع المرأة... الخ إلا أن الثورة المضادة تمكنت من تجنيد المفقرين، والمطرودين من العمل والمأخوذين بالدين السياسي ليرفعوا السلاح ضد الدولة ويحتضنوا الغُزاة من الخارج. وهذا يؤشر على وجوب قراءة الحالة التالية:

هل التوجه الحداثي دون مضمون اشتراكي يمكنه جذب الشارع لدعم النظام؟ وهل غياب بنية أو توجه اشتراكي أي غياب حرية اقتصادية وغياب أو ضعف الحريات السياسية قادر على تجنيد الجماهير أكثر من التوجه التقدمي والقومي والعلمانية والحريات المدنية والتعليم والطب المجانيين كما كانت الحالتين العراقية والسورية؟

وكذلك، هل الخلل هذا هو الذي جعل من السهولة بمكان تفوق الثورة المضادة مجسدة في الجنون السلفي الوهابي ومجمل فكر الدين السياسي مدعوماً بفيض من التمويل الذي اتخذ، ويا للمفارقة، وضعاً شبه اشتراكي بمعنى وصوله إلى كل فرد من جنود الثورة المضادة سواء بالدفعة الأولى وراتبه الشهري والبندقية والدبابة والصاروخ

وفتاوى جهاد النكاح؟ أم أن سر قوة هذ الحالة آتية أساساً من كونها جزء من المشروع الإمبريالي الصهيوني في الوطن العربي ولم تكن أنظمة وقوى الدين السياسي سوى حاملات تطبيقه، بل كلها مجتمعة.

من جهة ثانية، ساهم انحصار نقد الكثيرين من القوى القومية والشيوعية ضد الأنظمة الجمهورية ارتكازاً على هزيمة ١٩٦٧ ولاحقاً تفكك الكتلة الشرقية في إهمال نقد وتعرية أنظمة الدين السياسي والمَلَكيات كأنظمة تابعة طوعاً وبالمطلق، وخالية من الحريات والديمقراطية والتنمية والعروبة ومعتمدة على الريع في حالة دول الفائض وعلى حقن ريعية من دول الفائض إلى دول العجز.

كان ولم يزل الدور الخياني لأنظمة الدين السياسي النفطية وإلى درجة أقل أنظمة الريع النفطي العربية عموماً، في التواطؤ مع الأنظمة ومن ثم الشركات الغربية لنهب الريع النفطي هناك عبر سياسة خطيرة مكونة من:

- التجويف، أي تجويف الوعي الشعبي سواء بالقهر القمعي أو بالتجهيل الوهابي وربط حل مآسي المستغَلِّين تأجيلاً بالسماء كي ينسوا أوجاع الأرض الناجمة عن الجوع والفقر والقمع واحتجاز كل من التنمية والحداثة.
- والتجريف، أي تهيئة الواقع ليسمح للشركات الغربية بتجريف الثروة سواء بحيازة الريع مباشرة أو عبر غمر الأسواق بكل شيء، وعقد صفقات التسلح لمقاتلة الشعب وتسليح الإرهابيين لتدمير الجمهوريات.

هذا ما لم تتنبه له القوى الثورية لكشف السياسات الخيانية لأنظمة وقوى الدين السياسي والملكيات والإمارات والمشيخات... الخ.

إن استعادة الحزبية لا تعني قطعياً العودة للأحزاب المرتبطة بالسلطات والمساوِمة لها. بل المقصود استعادة حيوية الأحزاب الثورية التي تعمل على تغيير الأنظمة وليس فقط إسقاط طرابيشها.

فأحزاب السلطة أو الأحزاب المعارضة للسلطة هي جزء من تكريس ما هو قائم من جهة، ومن جهة ثانية هي أحزاب قطرية طائفية تقف بالضرورة وإن لم يكن بالإعلان ضد السرديات الكبرى.

وهذا يفتح على مشكلة الخطاب. لا بد لقوى جديدة من خطاب مختلف، نقيض ما هو قائم، سواء في اللغة أو المعنى والمحمول. خطاب وعي نقدي وتحريض بهدف تغيير كل ما هو قائم ينيخ بكلكله على كاهل الشعب والوطن. ليس الخطاب هو الكتاب فقط، وليس الفكر النظري العميق فقط، وليس التحليل العلمي فقط، بل هو أيضاً خطاب الإعلام.

لا بد من لغة جديدة كلياً، لغة الطبقات الشعبية، لغة الثورة الاشتراكية، لغة تحرر المرأة، لغة مواجهة ثلاثية الثورة المضادة. لغة جديدة في المفردة والمصطلح، لغة تنقض هيمنة الخطاب الرأسمالي الغربي خاصة وتحديداً وتضرب مركزانيته. وفي هذا السياق يجدر التركيز ضد الإعلام الذي لم يعدُ كونه ترجمة لخطاب الغرب الرأسمالي سواء في المفردة أو المصطلح.

بعض المصطلحات والمفردات تؤدي المقصود هنا: الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بدل الوطن العربي، العالم العربي بدل الوطن العربي، الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بدل الصراع العربي الصهيوني، الغرب بدل الإمبريالية، المسلحون بدل الإرهابيين الوهابيين، الضربات الأمريكية بدل العدوان الأمريكي التحالف السعودي ضد اليمن بدل العدوان ضد اليمن، إسرائيل بدل الكيان الصهيوني، الحل العادل بدل التحرير، حل الدولتين بدل التحرير، التضامن العربي بدل الوحدة العربية... الخ.

الكلمة عادية أو مصطلحاً تحدد الموقف والاتجاه الفكري واللغة مجرد غلاف، هذا ما يمكن استنتاجه بمقارنة استعمال المفردات الرديفة. تشاهد فضائية تقول: المتمردون الكوبيون. طبعاً تترجم هذه الفضائية نصوصاً غربية رأسمالية معادية للثورة حتى وهي تكتب تأريخاً للحدث الكوبي. كلمة "متمرد" تعني أن هناك من يخرج على السلطة الحاكمة بإيحاء أنها شرعية وتمثل الشرعية! أي هو غير شرعي. بينما التجربة

الكوبية هي تجربة ثورية، أي: الثوار الكوبيون. لاحظوا حين يستمع الجيل في فترة الاهتمام بالسياسة، ما الذي يعلق في ذهنه: ما يعلق أن أية سلطة قائمة هي شرعية وبأن من يثور هو خارج على "الشرعية". هذه المفردات المزيفة هي دعوة للعالم للبشر للناس بأن يعتبروا السلطات الموجودة هي الحقيقة هي طبيعية، فـ ...لا تثوروا. وحين تستخدم فضائيات عربية هذه المفردات الخبيثة تكون الكارثة أكبر لأن كل شبر في وطننا بحاجة لثورة. يكفي أن نتذكر أن أمريكا استخدمت كلمة "فيتكونج **Vietcong** أي المخربين" ضد ثوار فيتنام وترجمها الصهاينة ضد المقاومة الفلسطينية فأسموا الفدائيين بـ المخربين.

كثيراً ما تكون الكلمة، أو تُوظَّف كـ "فيروس" استعماري. الكلمة، فالجملة فالخطاب، هي مترتبات ذهنية تعبر عن مواقف وأحداث وتهدف إرساء قناعات معينة ونسف أخريات. لذا، هي قوة هائلة سواء في الدفع والشحن الثوري، أو الإهلاك الوعيوي إلى حد الإسقاط.

ودونما إطالة: حينما تنقل وسيلة إعلام عربية خبراً مترجماً عن أصله، أي البلد العدو، دون أي تعليق، بل ربما بابتهاج، هي تدرك أو لا تدرك أنها تهتك بذلك وعي المشاهد لاسيما أنه يرى ويسمع وربما يتمتع معاً.

مثلاً: "صرح جون بولتون مبعوث الرئيس الأمريكي إلى روسيا، بأن الأسد لا يشكل خطراً استراتيجياً على المصالح الأمريكية" انتهى الخبر.

لاحظوا كمية الذل والتخريب الوعيوي في هذا النقل "غير البريء".

١. لا يقول الخبر "الرئيس الأسد" وهذا مقصود به التقليل من شأن الرئيس لضرب الثقة الشعبية به. وليس لأن الرئيس ولا حتى عجوز في حلب بانتظار احترام هذا العدو لهما.

٢. أما وأمريكا عدو، لماذا لا تقل وسيلة إعلام عربية: العدو الأمريكي؟ ألا يصفوننا بالإرهاب والتخلف... الخ.

٣. من هو الطرف الذي يشكل تهديداً سواء استراتيجياً أو آنياً ضد الآخر؟ هل هو سوريا المُعتدى عليها، أم العدو الأمريكي المعتدي؟

إن نقل الخبر هكذا هو تأييد ودعم وموافقة على الزعم الأمريكي وهذا يضع في وعي العربي بأن أمريكا لها مصالح وحقوقاً في الوطن العربي وبأن لها حق حمايتها!

٤. والخبر كما تم نقله يتماهى مع التجهيل الهائل بمصطلح "المصالح"! فأية مصالح لأمريكا في المنطقة؟ لأمريكا مستعمرات، مواقع نهب واستغلال، أي بؤر وقواعد عدوانية سواء عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية. فمن الغش أو الجهل التوقف عن مفردة "مصالح". بل يجب القول مواقع النهب والعدوان الأمريكي.

ولأن الإعلام يفيض على الحياة اليومية للناس طوال الـ٢٤ ساعة، فإن مراقبة هفواته أو خياناته أمر يجب الاستمرار به كواجب وطني.

إنها لغة بديلة عن أخرى. بديلة لهندسة الموقف الشعبي، وإعادة هندسة الموقف الشعبي من واقعه ومستقبله وحتى الاعتداء على الماضي. لا بد من مواجهة الهندسة وإعادة الهندسة الاجتماعية السياسية الوطنية اللغوية بإعادة التثقيف بالوعي النقدي.

ولا يختلف التصدي لخطاب الغرب الرأسمالي والمركزاني عن التصدي لخطاب قوى الدين السياسي الذي يتجاوز على الوطن ويستبيح الحريات، ويبرر القتل المجاني ويعتدي على التاريخ والتراث ويتحالف مع الإمبريالي والصهيوني ويحارب العلمانية فما بالك بالاشتراكية، ويُحل "الأمة" الإسلامية المفترضة محل الأمة العربية الموجودة موضوعياً أسوة بمختلف الأمم التي تدين بالإسلام... الخ.

لقد ترعرع هذا الخطاب في غفلة من التاريخ إثر هزيمة الكتلة الاشتراكية ومارس دوره ما فوق الفاشي خلال السنين السبع العجاف لما يسمى الربيع العربي، فقتل ودمر وصولاً إلى أكل الأكباد بل وكبد الوطن.

هذه التجربة المروعة على مرارتها اشتملت كذلك على قانون خلق الشيء أو

الحدث لنقيضه بمعنى أن انكشاف هذا الخطاب هيىء المناخ للإجهاز على هذا اللغو والوهم ووجوب استثمار هذا الانكشاف لمواجهة هذا الخطاب ودحضه ونفيه بكل من المنطق والشواهد.

وإذا كان الخلل البنيوي والسياساتي في اتباع الجمهوريات لسياسات الخصخصة والسوق الاجتماعي قد أدى إلى سقوط العديد من الطبقات الشعبية من سوريين وعراقيين وليبيين ويمنيين ومصريين... الخ لصالح قوى الدين السياسي دفعهم الفقر والحرمان والبطالة من جهة وتلقي المال والابتهاج بالحصول على السلاح والتدريب... الخ من جهة ثانية[1] من الكيان الصهيوني والولايات المتحدة ودول غربية وأنظمة حكم السعودية وقطر والإمارات وتركيا... الخ، فإن عمق وشدة التجربة يجب أن تدفع القوى الثورية لنضال دؤوب وثابت من أجل واقع تنموي وتعاوني كمقدمات للاشتراكية.

إن التجنيد والتحشيد والتدريب والتمويل والتسليح لمئات آلاف الإرهابيين ضد الجمهوريات العربية هو إعلان الثورة المضادة حرب الإبادة ضد الشعب العربي بلا مواربة، الأمر الذي يتطلب ويشترط نهوضاً وجبهة جذرية التوجه العروبي والعلماني والاشتراكي لمواجهة هذا العدو وصده وهزيمته.

لا بد من جعل تجربة ربيع السبع/ الثمان العجاف نقطة البدء من الوطن العربي لهزيمة الداعش الثلاثي، أسطورة الأبيض الذي تكشَّف عن وحش حقيقي، وأسطورة شعب الله المختار الذي أسس لتبرير إبادة مختلف الأجناس البشرية، وما عقيدة داعش في إبادة كل طائفة تخالفها إلا تتلمُذاً على أيديولوجيا الغوييم، وأسطورة قوى الدين السياسي في الوطن العربي التي اتخذت من إراقة الدم عقيدة وتطبيقاً لممارساتها.

لعل ثلاثي الثورة المضادة هو أوسع من طبقة الجريمة المعولمة الحاكمة كأنظمة سياسية، فهو رأس المال الشركاتي، والمثقفين العضويين لرأس المال بدءاً من الليبراليين وصولاً إلى رجال الدين السياسي وما بعد الحداثيين وحتى الطابور السادس الثقافي،

(1) https://www.facebook.com/100004579598508/videos/909784765850835

وهذا تحالف يقطع الطبقات عرْضياً بشكل موجزه استخدام البرجوازية ومثقفي الطابور السادس الثقافي بأفرعه: الليبرالي والديني للطبقات الفقيرة لأجل القتل المباح.

لقد كشف ما يسمى الربيع العربي عيوباً هائلة في ثقافة العالم في حقبة العولمة. تساقط الكثير من المزاعم الإنسانية. لعل أكثرها انكشافاً كان الزعم بوجود مجتمع مدني. وهنا نقصد التفريق بين نظرية/ ات، بل بعض تنظيرات متعلقة بالمجتمع المدني وبين مدنية المجتمعات أو حدود ومحدودية دور مؤسسات المجتمع المدني في ممارسة دور مدني لاسيما خارج حدود دولتها القومية وصولاً إلى حدود مدنية المجتمعات الغربية تحديداً في ظل هيمنة رأس المال وحلول المصالح حتى المنفعة الفردية المباشرة في خلدهم مما يدفعهم للمشاركة المتحمسة لدعم مواصلة النهب وإعادة الاستعمار أو الصمت الخبيث عن ذلك.

كيف يكون هذا المجتمع أو ذاك مدنياً بينما ينتخب ويصمت على دور دموي لسلطة بلاده في بلدان أخرى كما فعلت وتفعل الإمبريالية الأمريكية بل ومختلف الدول والدويلات الغربية ضد العراق، أفغانستان، ليبيا، سوريا اليمن وباسم الديمقراطية؟

أما الجريمة التي عرَّت مختلف خبث وأكاذيب الليبرالية الرأسمالية فكانت عبر تخليق القاعدة وداعش كقوى دين سياسي دموية من جهة، وتحالف هذه الأنظمة الغربية الرأسمالية مع أنظمة الدين السياسي النفطية لتخريب الوطن العربي ارتكازاً على القاعدة وداعش ونظيراتهما.

وتصل المأساة قمتها حينما نسمع ونقرأ لمثقفين في بلدان النفط يتحدثون عن مجتمع مدني هناك؟ لا يستقيم النظام الريعي مع مقولة فما بالك بواقع المجتمع المدني. ذلك لأن المجتمع السياسي/ السلطة تملك البشر والحجر والنفط والعقل معاً.

قد يكون ممكناً تفسير حدث الحراك الشعبي العفوي في فترة ضعف التنظيم حيث قوة المقاومة الشعبية تهب للصد ورفع الجاهزية واستعادة المبادرة كي تولد تنظيماً أقدر على ولوج وإدارة الصراع وحمل المهام، ولكن، ما يصعب تفسيره أو استثماره أو

توظيفه هو أن تحصل الأزمة وخاصة الاقتصادية في فترة التراجع الثوري ففي أزمة (١٩٢٩ كانت القوى ضعيفة، وكذلك أزمة ٢٠٠٨!!)

أما السؤال المتعلق بهذا العمل فهو: ما الحكمة في استعادة هذه الأحداث اليوم؟ هي ليست استعادة بهدف التأريخ، وحتى لو حصل فليس لمجرد التسجيل أو بغية المتعة.

يمكننا الزعم أن استعادة هذه الأحداث محفوزة بضرورة عالية الأهمية لكنها تحت ثقل الوعي المترنح والمُثقلُ تعباً وهبوطاً لكنه مقترن في التحليل الأخير بل ومشروط بقرار مواصلة المواجهة والصراع. إن مشكلة هذه الحقبة، الحقبة الجارية اليوم، من الزمن، هي الانحصار في برزخ إرهاصات الثورة لا الثورة نفسها. بل مسألة تواصل هجمة الثورة المضادة بما هي متمترسة في البنية السياسية العربية إلى حد لم يتم معه فك تبعية الشعبي بالرسمي بشقي الرسمي:

- أنظمة وقوى الدين السياسي
- وأنظمة الكمبرادور.

وكليهما عدو للأمة كأجزاء من الثورة المضادة بقيادة الثلاثي الإمبريالي ومعه الصهيونية حيث تشن حرباً أهلية على المجتمع العربي. وخطورتها في كونها أيضاً كانت شبه مرئية إلى أن فجَّرت نووي "الربيع العربي السبع العجاف وأطول". ومع ذلك، وهنا بيت القصيد وهدف هذا القول، لم يتحرك الشعب/ الشارع العربي من مواته، ولم يتم فرز القوة الثورية المنظمة التي تستعيد ذلك الشارع. وبقول آخر، لا بد من استعادة التاريخ في حالة القوى والمواقف والفكر التاريخي. وقد تكون نقطة البدء في النضال من أجل تفكيك مفاصل سلطة الدولة القُطرية العربية، مفاصلها الداخلية بكل من العنف الثوري والعنف السلبي.

ففي حين يتقدم العالم فيما يخص وفرة بضاعة السلع وبضاعة المعلومة، تقوم قيادة الثورة المضادة بهندسة وإعادة هندسة الطبقات الشعبية على صعيد عالمي كي تُنتج

هذه الطبقات باغتراب أشد وأقل تمويهاً وتتقاضى أقل تاركة مقادير أعلى وتتعاظم من القيمة الزائدة لعدد يتضائل من البشر، وتستهلك بعض ما أنتجته. وإذا ما استهلكت المعلومة، فهي لم تستهلك/ تتمثل الثقافة والوعي بل بقيت في وهم الوعي الشكلاني، مما يضع البشرية في فورة وشبق استهلاك لا في ثورة المجتمع ضد رأس المال بسيطرته المتعددة على العقل وعلى الجهد وعلى الثروة وعلى المرأة وعلى معظم الذكور أيضاً. إنه السوق، الانفتاح على السوق، انفتاح السوق وليس انفتاح العقل بالوعي ودائماً يكون انطباق هذا السيناريو الرهيب أكثر ما يكون على الوطن العربي.

في مناخ كهذا، فَقَدْنا فيه الشارع العربي، وتحديداً الطبقات الشعبية، يصبح من المحتم استعادة ثقافة الاحتجاج وثقافة المواجهة، بما فيها تفكيك مفاصل سلطة الدولة القُطْرية. فثقافة الاحتجاج درجة من الوعي تؤسس للبناء ومن ثم العمل الثوري. ثقافة الاحتجاج هي عملياً الحاضنة الأوليَّة/ الأم للعمل الثوري. وهذا يقود إلى سؤال: من الذي يحتج ويثور؟ إنها أساساً شريحة الشباب والتي كثيراً ما تلعب الرافعة للثقل الكبير وهو الطبقات الشعبية. حراك الطلاب أسرع وحراك الطبقات الشعبية أبقى وأقدر على وصول التغيير. لكن هذا يشترط على قوى الثورة في كل مكان استعادة الشارع من الثورة المضادة.

استعادة الشارع، أي الطبقات الشعبية من سيطرة وهيمنة الثورة المضادة هو الشرط الحقيقي للتغيير، للانتصار على السوق كأيديولوجيا صارت هي الفريدة في هذه المرحلة من التاريخ. استعادة الأكثرية الساحقة من تحكُّم أقلية تتضائل من جهة ويتعمق تحكمها وإيغالها من جهة ثانية. تناقض مريع، لكنه فعلي ومَرئيْ.

للثورة المضادة أدوات فعالة ومتجددة، الاستهلاكية والمال والإعلام والثقافة والجنس والسلاح كملاذ أخير. وللثورة، بل وعلى الثورة مواجهة كل هذه الأدوات/ الخليط، فالإعلام يستغرق حياة الطبقات الشعبية، يكتسح الوعي فيمحوه ويصل حتى احتلال المصطلح الثوري فيُعيد إنتاجه ضد ذاته.

ليس بخافٍ أن رأس المال يتحكم بالإعلام، فتحل الفضائية محل الحزب، ويحل

المذيع أو المحلل المأجور محل المفكر الثوري، وصاحب الفضائية محل الأمين العام، لنجد أنفسنا أمام عالم جرت إعادة هندسته ليسير في الثلم كثور معصوب العينين أو دابَّة حرث تحاصر عينيها شوَّافات فتنظر باتجاه واحد فقط. وتصل المأساة قمتها حين يُجادلك البسطاء بما يضخه فيهم الإعلام. فيصبح ستالين مثل هتلر، والشيوعية مثل الصهيونية، والعروبة مثل الفاشية، وتحرر المرأة مثل بيع الهوى، والاستقلال مثل الشوفينية، والحفاظ على الثقافة صنو العنصرية، والريع مثل الإنتاج... الخ.

إنه صراع الضد والضد، سيطرة الثورة المضادة مقابل تراجع الثورة. هكذا هي حلقات التاريخ. صحيح أن التاريخ من حيث التفصيل ليس واحداً، وصحيح أن به تقطُّعات، ولكنه، على الأقل، يتضمن أن يُضيء أمس على ما يجري اليوم واليوم على ما سيجري غداً، ومن هنا وحدة التاريخ من حيث دوره ودرسه وليس من حيث اندماج التواريخ التفصيلية للأمم في صورة واحدة. التاريخ وحدة متنوعة متعددة طبقاً لإنتاج وثقافة كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية، طبقاً لعمل البشر بالزمن في المكان أو الفضاء إن شئت.

لعل صراع الثورة والثورة المضادة وامتداد هذا على العالم، عولمته، مثابة تأكيد أن الحدث هو عالمي وبأن قراءته تختلف ومجريات تطبيقه تختلف أيضاً، وهذا طبيعي.

إن قراءة تجربة الثورة ونقدها هي بالمعكوس تحليل للهجوم المستمر من الثورة المضادة ضد البشرية. وهذه أهمية "نقد السلاح". لقد افتتحت الثورة المضادة القرن العشرين بحرب بين ضواري الإمبريالية تحت تسمية كاذبة "الحرب العالمية الأولى"، فردت عليها الثورة بالثورة البلشفية خلال تلك الحرب ليكون القرن العشرين مثابة جولات متبادلة بين المعسكرين انتهت بهزيمة العمل لصالح رأس المال في معظم بلدان العالم. وهي الهزيمة التي ربما أخطر تجلياتها في تأزُّم قوى الثورة سواء أسميناها اليسار أو الاشتراكية أو الشيوعية أو القومية في مرحلة التحرر الوطني وبناء الدولة، وتخلي كثير من الأحزاب والمثقفين والمفكرين عن فكر الثورة، وارتداد كثيرين لصالح الثورة المضادة. وهذا ما أسميته استدخال الهزيمة. لكن هذا القرن تميز عن التاريخ بأنه القرن

الأول الذي احتوى تضاد الاشتراكية والرأسمالية وهذا تأسيس خاص للمستقبل جسد تضاداً من نوع خاص، تضاد بين نقيضين، وليس تضاداً بين استغلال يتورث آخر. ولأنه تأسيس من نوع خاص جاء عنوان الكتاب على ما هو عليه.

ربما يصح الاستنتاج بأن كثيراً من أجنحة الحركة التروتسكية "الأممية الرابعة" قد تورطت باكراً في خدمة الثورة المضادة، لتكون المؤسس لهذا السقوط. (انظر كتابنا **ظلال يهو-صهيو-تروتسكية في المحافظية الجديدة**). وقد لا يكون هناك أوضح من هذا السقوط هو انحياز قيادات تروتسكية لصالح المحافظين الجدد في الولايات المتحدة حيث كانت باكورة دورهم "الأممي" تدمير العراق ١٩٩١، واحتلاله ٢٠٠٣. ومن ثم انضمام هذه الحركات لصالح الثورة المضادة التي استهدفت أفغانستان وسوريا، وليبيا واليمن وفنزويلا وأوكرانيا... الخ.

ولعلها مفارقة عجيبة بأن كثيرين من اليسار العربي الذي بدأ واستمر تابع لليسار العالمي، أيضاً تخلى عن النظرية الثورية العلمية إثر تخلي من تبعهم وقلَّدهم عنها! لعله بدأ بشراء التحليل وانتهى بشراء الهزيمة. وهذا يؤكد بأن اليسار التابع ليس يساراً بأي حال من الأحوال.

كان من تثمير استدخال الهزيمة أو الاختراق الفكري الثقافي تشكُّل الطابور السادس الثقافي على صعيد عالمي وليس فقط في جغرافيا محددة. أما في الوطن العربي فشهدنا حالة فريدة من تحالف الثورة المضادة هو تحالف أنظمة وقوى الدين السياسي (الوهابية/ التكفيرية) والإمبريالية والصهيونية ومختلف الأنظمة التابعة التي تحكمها الرأسمالية الكمبرادورية مضافة إليها الاتجاهات الليبرالية والتروتسكية ومثقفي ما بعد الحداثة.

كانت تجربة "الربيع العربي" لافتة في أكثر من مستوى وخاصة أن المذبحة التي تُدار ضد الجمهوريات العربية جيوشاً وشعباً كانت بالجيش الأمريكي الثالث/ جيش أوباما المكون فقط من عرب ومسلمين حيث لم تخسر أمريكا جندياً واحداً. لقد حرقت أنظمة الدين السياسي في هذه المحرقة أهم رصيدين لدى أية دولة تحترم شعبها وهما:

- القوى الشابة
- والثروات.

وهذا صبٌّ في صالح الإمبريالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية حيث تم تشغيل متزايد لماكينتها التسلحية. إنه مشروع ربح صافٍ وصفر خسائر للإمبريالية.

القسم الأول

هزائم منتصرة

كميونة باريس

كانت كميونة باريس أول تجربة حرب غوار المدن فجَّرتها الطبقة العاملة، وسابقة على الحروب الحديثة لغوار الريف/ الغواريون الفلاحون، في الصين وفيتنام والجزائر وكوبا. تم في الكميونة دحر قوات الحكومة من معظم عاصمة دولة كبرى في أيام قليلة وعلى يد عمال لم يكونوا جيشا مدرَّباً، وإقامة جمهورية عمالية واستمرارها سبعون يوماً[1] ومواجهة دولتين عظمتين تحكمهما برجوازيتين تجمدان حرب برجوازيتهما القومية وتتحالفان عسكرياً ضد عمال المدينة الأولى في التاريخ التي سيطر عليها العمال. لا بل تحالفت البرجوازية الأوروبية بأجمعها ضد الكميونة، كما كتب بول باران:

"... ومنذ ذلك الحين، بعد أن غرقت كومونة باريس بالدم على يد "العمل الموحد" لجميع الطبقات المالكة في أوروبا، كما عانت الحركة العمالية الداخلية من واحدة من "أكبر الانتكاسات الحزينة التي لحقت بها، خلال التقدم الاقتصادي المطرد والسريع في إطار عمل النظام الرأسمالي"[2].

إنه حدث مميز وفريد جدير بالدراسة المتواصلة من كِلْتَي الثورة والثورة المضادة.

مجرد حصول الحدث هو درس في التاريخ يؤكد أن التغيير ممكن وبأن التناقض الطبقي في عالم رأس المال لا يمكن التغاضي عنه فهو يفرض نفسه حتى لو غابت أداته. بل وأكدت التجربة أن الثورة ليس شرطاً أن يكون قد سبقها الإعداد والإمكانات، بل هي حدث يأتي دهشة، يداهمنا على حين غرَّة، مما يضعنا في حالة اختبار الوعي والقوة

(١) صمدت المقاومة الفلسطينية واللبنانية ٨٢ يوماً في بيروت أمام حصار الناتو بأجمعه مدموجاً في جيش الكيان الصهيوني، إلى أن قررت البرجوازية اللبنانية طرد المقاومة من لبنان ليس خوفاً على المدينة، بل خوفاً على أملاكها، ورفضاً للمقاومة، وهو القرار الذي قبلت به قيادة م.ت.ف كقرار انتحاري. هنا الفارق بين قيادة الكميونة وقيادة م.ت.ف.

(2) See, Paul A. Baran, The Political Economy of Growth, Monthly Review, 1957. pp. 48-49.

النفسية/ الإرادة، أي بين المجتمع الذي أخذته الدهشة أو بين الفعل الثوري الذي يجعل من الحدث والدهشة قوة تغيير.

في زمن من التاريخ، بل مجرد لحظة، كانت الكميونة فعلاً وتطبيقاً وخطاباً جديدين. ممارسة عملية فتحت مناخ التنظير لاحقاً على مصراعيه مهما اتفق الدارسون أو اختلفوا فهي تبقى لحظة مميزة في التاريخ، لن تتكرر ولكنها تخترق وعي كل حراك ثوري فتطبعه في هذا المنحى أو ذاك ذلك لأنها فعل إنساني وضرورة اكتشفت أن قيامها ضرورة.

خطاب الكميونة وخطاب البرجوازية:

ورد في أول بيان للكميونة يوم ١٩ آذار: "... لتقم باريس وكل فرنسا معاً، أن تضع أو ترسي بنشوة قواعد الجمهورية بجميع نتائجها ما يترتب عليها الحكومة الوحيدة التي سوف تغلق وإلى الأبد مرحلة الغزو والحروب الأهلية... في ثورات ١٧٩٢ و١٨٤٨ و١٨٧٠، العمال صنعوا جمهوريات للغير، اليوم لنفسهم "الحكومة الوحيدة التي سوف تغلق وإلى الأبد مرحلة الغزو والحروب الأهلية"!

يا للهول، وهل أبلغ من هذا في التاريخ قولاً وشعاراً وممارسةً! أليس مثار رُعب لا يمكن احتماله لدى البرجوازية لدى رأس المال؟ بلى، ولذا كان لا بد من تدمير الكميونة حتى لو أُقتُلعت باريس نفسها. فإغلاق باب الغزو في التاريخ يعني دخول العالم سلاماً لم يعهده، ويعني أكثر وضع نهاية لطبقة هي التي تصنع الغزو والحروب. وليس الجدير بإنهاء حروب العالم سوى الطبقة العاملة التي هي نفسها تقع تحت استغلال البرجوازية داخل وطنها ويتم تجنيدها للغزو خارج وطنها، هي التي تموت لتحيا وتُتخم البرجوازية. لكن هذا كله مرهون بشرط رئيسي واحد: الوعي السياسي الطبقي وأداة تحقيقه. وهذه هي المعضلة التي لم يحلها العالم حتى اليوم!

لهذا بالضبط، وبعد أكثر من قرن على الكميونة ألغت البرجوازية الفرنسية الكميونة من مساقات تاريخ فرنسا. ولهذا بالضبط تبقى البرجوازية برجوازية، فما

حصل بعد قرن لا يختلف، بل هو امتداد لموقف البرجوازية الفرنسية نفسها خلال الكميونة حيث كان الضباط من الجيش الفرنسي وقد هزمهم الجيش الألماني متشوقين لقتال العمال الكميونيين.

فهل هذا مؤشر على الحقيقة الطبقية لكل دولة كسلطة إلى حد شطب وتزوير التاريخ. هذا مثابة شغل أيديولوجي على تفريغ، مسح، مسبق ووقائي للفعل الثوري. ولكن، ليس على يد من أسمتهم الثورة المضادة بـ "التوتاليتاريين/ الشموليين، أو اللاديمقراطيين... الخ، بل على يد ليبرالية "عريقة"! طبعاً لا تمسح تاريخ النازية لأنها تستثمره لتغذية الشعور القومي وتلهبه كي تغزو بلداناً أخرى، فاليوم، حتى اليوم ترسل فرنسا جنوداً ضد سوريا واليمن لدعم الإرهابيين من قوى الدين السياسي ضد أنظمة جمهورية وعلمانية! لكن هذه البرجوازية ترتعب وترتعد فرائصها من التناقضات الطبقية. إنه تغول رأس المال على الطبقة العاملة. نعم كل طبقة تقرأ التاريخ أو تدونه أو تحذفه طبقاً لمصالحها الجارية والمستقبلية. وهذا يضع ما تسمى الموضوعية البرجوازية على الشاشة عارية على حقيقتها. أما بالنسبة للمثقفين العرب الذين يلهجون كل يوم شوقاً بل شبقاً للديمقراطية الليبرالية فهذا حدث يتحدث عن نفسه مؤكداً أن سلطة البرجوازية هي ديكتاتورية طبقة. دعك من الأغلفة.

في جانب تكمن روعة كميونة باريس أنها لم تبدأ بخطة أو مشروع مدروس مسبقاً، بل كانت عفو وعي الخاطر العمالي الباريسي، الوعي المادي وحتى العفوي ما قبل الاشتراكي. هكذا ننظر إليها للوهلة الأولى أي لحظة الاغتباط لأي حراك رافض للواقع ثائر عليه بروح إنسانية عفوية وبحتة، وبالطبع قبل التحليل والتشريح العلمي الطبقي الثوري للحدث، الوعي الطبقي السياسي، وذلك لأن أهمية الحدث في:

- حدوثه المستقل
- وكونه إعلان تمرد ورفض وتغيير
- ومن ثم الدهشة والأمل العفويين الذين يرافقانه.

وهذه متعة معانقة الحدث طازجاً، بخلاف برودة كتابة التاريخ.

فالكميونة نموذج هي أقرب إلى الانتفاضة الفلسطينية لعام ١٩٨٧ من حيث الانطلاقة الجماهيرية العفوية من جهة، ونظراً لأن كلتيهما حصلتا إثر، ومثابة رد أو وثبة شعبية على هزيمة وطنية قومية أمام عدو، هو في حالة فرنسا الاحتلال البروسي (الألماني) لفرنسا واستخذاء البرجوازية الفرنسية وفي الحالة الفلسطينية هي اقتلاع المقاومة الفلسطينية من لبنان ليس فقط بناء على هدف العدو من الغزو عام ١٩٨٢، بل كذلك لتماهي البرجوازية اللبنانية مع مطلب العدو وركوع قيادة م.ت.ف لذلك الضغط. أما في الكواليس فكانت وعود الإمبريالية الأمريكية لهذه القيادة بتسوية أعلى سقفها "دولة" في الضفة الغربية وقطاع غزة. فكانت الانتفاضة الأولى شعبية تماماً باستثناء شريحة ضئيلة من الكمبرادور الثلاثي.

تتفارق الحالتان في جماهيرية الانتفاضة، وعمالية الكميونة، لكن من أهم تشابهاتهما في دور المرأة الأبرز في كلتيهما.

لقد وصف صحفي بريطاني إقدام نساء باريس بما يلي:

"... تجلى هذا بكل تأكيد يوم ١٨ آذار ١٨٧١، حينما كانت النساء في الجبهة، في مقدمة الشعب العامل الباريسي يمنعن الجيش من نزع أسلحة الحرس الوطني" (ص١٦٢).

وُقِّعت في ١٠ أيار لعام ١٨٧٠ اتفاقية الصلح في فرانكفورت وفي ٢١ أيار صدقت عليها الجمعية الوطنية" وهي اتفاقية استسلام البرجوازية الفرنسية للبرجوازية الألمانية المحتلة. هذا في فرنسا

ما أشبه هذا بقرار م.ت.ف برحيل المقاومة من لبنان بعيداً عن حدود الوطن.

كان مناخ ثورة عمال باريس هو هزيمة نابليون الثالث ومن ثم شعور العمال انهم الأجدر وطنياً وقومياً، فليس أبلغ من انكشاف البرجوزاية وطنياً أمام الطبقة العاملة لأن الوطنية الحقيقية هي للطبقة العاملة.

فقد حصلت بعد أن عقدت البرجوازية صلحاً شائناً مع المحتل الألماني[1]. أما

(١) ولأن الشعر ديوان العرب، نستذكر في هذا المقام قول الشاعر مظفر النواب:

وصافح قادتنا الأعداء، ونحن نحارب ونامو في الصف الآخر، والجيش يحارب.

البارون روتشيلد فكان قد أقرض حكومة بسمارك من الذهب ما يكفي ليغزو فرنسا. وبينما كانت بروليتاريا باريس تقاوم الغزو الألماني أغارت السلطة البرجوازية على سلاح بروليتاريا باريس فردَّ العمال بإعلان الكميونة. هي إذن تطورات غير متوقعة، فكان الرد عفوياً بالطبع. ولذا تكمن أهميته في حدوث الرد أكثر مما تكمن في تقنية الرد بحيث يكون متمهلاً وضمن تخطيط وحسابات... الخ.

ولكن، والبرجوازية كانت تمارس الخيانة العلنية، فقد كان خلل الكميونة في المبالغة في المسألة القومية مما يخدم البرجوازية التي تمتطي الشعار القومي ولا سيما في فترة من مستوى الوعي يزيح أي ولاء قومي موهوم كرصيد للبرجوازية بينما كانت الحكومة البرجوازية خائنة للشعب.

وهذا يبين بأن الوعي العمالي الطبقي/السياسي لم يكن قد وصل حالة الفرز بين القومية الحاكمة والقومية الكامنة. وربما من هنا كان نقد ماركس عموماً على القومية في أوروبا تلك المرحلة حين كتب بأن "القومية سلاح بيد البرجوازية" وهي المقولة التي ذهب كثيرون من بسطاء الوعي الماركسي لتعميمها على كل الأمم ومختلف المراحل[1].

وكما استسلمت حكومة تاليران في فرنسا للمحتل الألماني، استسلمت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية للمحتل الصهيوني الذي وصل بيروت وخرجت منها إلى أبعد الأقطار العربية عن فلسطين، إلى اليمن وتونس.

لعل من اللافت، أن الفدائيين الفلسطينيين صمدوا في بيروت أمام الغزو الصهيو-أمريكي أياماً، ثمانون يوماً وأكثر، تقارب أو تزيد عن أيام صمود الكميونة واحد وسبعين يوماً.

وإذا كانت الكميونة قد اشتعلت إثر بل خلال الاحتلال الألماني لفرنسا واستخذاء البرجوازية الفرنسية أمام المحتل، فإن الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ كانت نتاج خمس سنوات من اغتراب معظم الفصائل المسلحة الفلسطينية عن موقعها الطبيعي في

(١) هذا الفهم أو التفسير المقصود به التشويه للماركسية، هو الذي ازدراه ماركس فقال: بهذا المعنى: لست ماركسياً. لطالما تم استخدام وتوظيف هذه الجملة نفسها إما بجهل أو خبث.

لبنان مما أوصل الحالة الفلسطينية إلى ما يقارب اليأس، وأوصل الكيان الصهيوني الإشكنازي إلى الاعتقاد بأن المقاومة الفلسطينية انتهت وانتهت معها القضية الفلسطينية، وهو ما دفع ميرون بنفنستي، نائب الصهيوني رئيس بلدية القدس المحتلة السابق تيدي كوليك للقول عشية الانتفاضة: "وصلنا ربع الساعة الأخير". ولكن ما لبثت أن انفجرت الانتفاضة الأولى في وعيه المخبول.

ومن جهة ثانية، بينما كانت الكميونة تجربة عفوية أولية للاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا انتهت بمذبحة برجوازية فرنسية/ ألمانية، كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى حراك شعبي عفوي جرى خصيه على يد قيادات رجعية يمينية بيروقراطية برجوازية ويسارية شكلانية انتهت بها إلى مذبحة للقضية الفلسطينية عبر التطبيع مع الكيان الصهيوني الإشكنازي وتقزيم المشروع التحريري الوطني إلى المطالبة بدولة في جزيء من الوطن، أي تقاسم الوطن مع عدو يهذي باحتلال من أرض العرب من النيل إلى الفرات! هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان يمكن للانتفاضة أن تكون فجر نهوض شعبي عربي مما دفع الثورة المضادة بما فيها البرجوازيات العربية إلى خصيها عبر:

- تمكين الكيان الصهيوني منها واعتقالها لاحقاً في مجرد مصطلح في القواميس
- إعادة الاعتبار للقيادة اليمينية لقطع الطريق على قيادة محلية ميدانية للانتفاضة بل واستيعاب هذه القيادة وتدجينها وتعليبها.
- إغراق المنظمات الشعبية القاعدية بالمال وتحويلها إلى منظمات الأنجزة.

وفي حين مارس الكميونيون تطبيقياً بداية نظام اشتراكي، فإن الانتفاضة كرَّست عفوياً الحماية الشعبية للاقتصاد والتي بلورتها أنا نفسي في موديل تنموي مقاوم "التنمية بالحماية الشعبية"[1]، لكن، هذا جرى اغتياله بالتطبيع والتمويل والتورط في اتفاقات أوسلو ومن ثم الفساد.

---

(١) أنظر، عادل سمارة وعودة شحادة، اقتصاد الضفة والقطاع من احتجاز التطور إلى الحماية الشعبية، منشورات دار الأسوار، عكا، ١٩٨٨، ودار كنعان، دمشق.

Adel Samara Beyond De-Linking: Development by Popular Protection vs Development by – State, 2005. Palestine Research and Publishing Foundation, P.O.Box 5025, Glendale, CA 91221, USA. ومركز المشرق/ العامل رام الله، ٢٠٠٥.

إذن، هي كالانتفاضة بدأت دون خطة أو قيادة حزب أو حركة سياسية منظمة، لكنها انتظمت سريعاً في معمعان النضال الذي كان قصير الزمن بالمطلق، كثيف الإنجاز بالمطلق أيضاً.

نعم لم تحصل الكميونة بقرار وتخطيط من حزب أو قيادة فردية أو منظمة عملت ببرنامج متماسك. لكن نكهتها أنها كانت عمالية، كان ثلث المنتخبين في بنيتها القيادية عمالاً يدويين أثبتوا قدرتهم على القيادة بوعي وابتكار. ويعود هذا إلى تأثير هام حيث كان معظمهم من الثلث الذي كان نشيطاً في الفرع الفرنسي من الأممية الأولى[1]. تم اختيار هؤلاء الأعضاء حكومة للكميونة من قبل الناخبين الباريسيين في انتخابات خاصة تم ترتيبها على يد اللجنة المركزية للحرس القومي الباريسي والذي وجد نفسه بعد أسبوع وبشكل غير متوقع يمسك زمام سلطة الدولة.

لقد حدث هذا حينما انسحبت الحكومة الفرنسية المؤقتة التابعة للمحتل الألماني من باريس العاصمة إلى خارج المدينة بعد أن تآخت بعض فرقها مع الكميونيين في ١٨ آذار ١٨٧١.

➢ وقائع يوميات الكميونة:

في أيار ١٨٧١ كتب مراقب برجوازي للكميونة في جريدة إنجليزية يقول: "لو لم تتألف الأمة الفرنسية إلا من النساء فأي أمة رهيبة تكون!". (لينين، حول كوميونة باريس، دار التقدم، طبعة طشقند، ١٩٧٨، ص٣١).

الكميونة هي أول محاولة تقوم بها الثورة البروليتارية لتحطيم آلة الدولة البرجوازية والشكل السياسي الذي "اكتشف أخيراً" والذي يمكن ويجب أن يستعاض به عن المحطم". ص٦٢، لينين.

قامت بعض مفارز المقاتلين صباح ١٨ آذار بأخذ مدافع الحرس الوطني. حصل إبان ذلك تحرك أحياء عمالية عفوياً من قبل شعب باريس وخاصة نساء باريس. انسحبت القوات وأخلَت الحكومة قصر فرساي.

---

(1) See A Dictionary of Marxist Thought, ed by Tom Bottomore, Blackwell Reference 1983. pp. 359-60.

ماذا يعني هذا قومياً؟

ففي حين استخذت البرجوازية وتواطئت مع الاحتلال، أي انقادت لمصالحها بدل وطنيتها وقررت التعايش مع الهزيمة حتى لو مؤقتاً كان الموقف الوطني/ القومي هو موقف الطبقة العاملة رجالاً ونساءً حيث اعتبرت أن وطنيتها هي الحقيقية وبالتالي فإن السلطة لها ومن ثم حماية الوطن مهمتها.

إذا صح هذا التوضيح أو الاستنتاج، فذلك يعني أن الفهم الشعبي العمالي للوطنية والقومية مختلف عما يدور دائماً في أذهان البعض بأن القومية هي حكر على البرجوازية. بل هي شكلانية لدى البرجوازية أصيلة لدى الطبقات الشعبية. لا بد أن نلاحظ أن وطنية البرجوازية هي المال والربح أي القشرة / الغشاء الأعلى للواقع بينما وطنية وقومية الطبقات الشعبية هي الأرض.

هذا الدرس الذي لا بد أن نقرأه عربياً وفلسطينياً بدقة. الشعوب لا تختلف عن بعضها في الأساسيات، وكذلك الطبقات. فالبرجوازية تتعامل مع الوطن كمكان مصالح وتتمسك به أكثر كلما تعمقت مصالحها حيث تراه سوقها التي تدر لها الربح اللامحدود، وفي دفاعها عن مصالحها تزعم أنه دفاع عن الوطن فتجند الطبقات الشعبية للحرب حتى خارج الوطن[1]، وتبقى هي في القيادة، وقلما يُقتل منها أحداً، بينما الطبقات الشعبية تتعامل معه كمصدر وحيد للوجود.

لذلك، ما جرى في الكميونة أن قسماً من الحرس الوطني انضم للكميونة لأنه من أبناء الطبقات الشعبية، وربما لو لم تنسحب السلطة من باريس لكان انضم لثوار

(١) أورد هنا مثالين صارحين متشابهين رغم ظاهرية اختلافهما، وهما تعبير عن تحول المستوى الطبقي عالمياً أي تبلور طبقة رأسمالية معولمة قوامها تحالف رأسمالية المركز مع كمبرادور المحيط كتابع معتبرة العالم أو متعاملة مع اقتصاد الأمم وكأنه قطاع رأسمالي عام معولم لصالحها. فالكيان الصهيوني هو موقع عدواني متقدم أقامته برجوازيات المركز الرأسمالي في مرحلة الإمبريالية لحماية مصالحها، ودوره هو تجنيد اليهود من مختلف بقاع الأرض ليستوطنوا في فلسطين فيقتُلون ويُقتلون لصالح المركز الرأسمالي الغربي بما هو متروبول (الوطن الأم) لهذه المستوطنة البيضاء، أي المركز يقاتل خارج أرضه أو وطنه. والمثال الثاني، عائلة آل سعود تجند الوهابيين والتكفيريين والإخوان للعدوان على سوريا والعراق وليبيا واليوم ضد اليمن. وكل هذا أيضاً في خدمة المركز الرأسمالي الغربي.

الكميونة عدد أكبر[1]. بكلام آخر، كان لا بد من تجهيز وتعبئة الجيش للاشتباك مع الكميونة. ففي الحرب أنت تقاتل أساساً لحماية نفسك وحتى بشراسة.

قامت الكميونة في يوم ٣ نيسان بأول غارة مسلحة لمواجهة الجيش لصد حملة قام بها الجيش الرسمي، جيش السلطة، بالتعاون مع السلطات البروسية المحتلة ضد باريس. فشلت الغارة وأُسر بعض المقاتلين، وقتل البعض ومن بينهم قادة مهمين.

هذا مؤشر على أمرين:

الأول: الروح القتالية، روح التصدي والمبادرة أو المبادئة لدى رجال ونساء الكميونة. وهذه روح لا تقوم بدون الجاهزية الطبقية للثورة حيث الصراع طبقي وقومي مركّب كما هو معسكر أعداء الكميونة طبقي وقومي أيضاً. ولعل هذا الاصطدام قد كشف عن خطورة مهمة الكميونة حيث تواجه قوات دولتين كبريين في حينه.

والثاني: خضوع السلطة البرجوازية الفرنسية للمحتل الألماني واستخذائها للعدو المحتل. وهذا يؤكد تماماً، كيف يمكن للبرجوازية أن تخون الوطن حفاظاً على السلطة التي تضمن مصالحها حيث تجعل السلطة/ الدولة ماكينة حماية وتوليد مصالح البرجوازية. وهذا ينفي عن البرجوازية زعمها في الحفاظ على السيادة القومية بمعنى أن السيادة مسألة يمكنها التنازل عنها في سبيل البقاء في السلطة كمشروع طبقي سياسي ترجمته الحقيقية ومآلاته مصلحة مادية.

في حرب المدن لا تكون هناك هزيمة تامة بين الغواريين والجيش النظامي، كما هو معتاد بين جيشين نظاميين حيث تحصل هزيمة ما إلى أن يتمكن الجيش المهزوم من ترك جيوب مقاومة خلفه تشاغل العدو مما يمنحه وقتاً معيناً لاستعادة وتجميع قوته وقواته وترتيبها والقيام بهجوم مضاد.

---

(١) في مراحل الانحطاط الوعيوي انضم قسم، وإن كان بسيطاً، من الجيش العربي السوري لجيوش الإرهابيين التي تدفقت على سوريا كما وفرت قوى الثورة المضادة في الداخل للمعتدين بيئة حاضنة ومجندين.

في حرب المدن يمكن أن يقوم الغواريون سريعاً بالرد على هزيمة كانت لصالح الجيش النظامي. هذا ما قام به المقاتل الكميوني البولندي الأصل يوم ٩ نيسان في استعادة اسنيرس. وبالطبع، فإن تعدد الأصل القومي لمقاتلي الكميونة، هو تأكيد لطابعها الأممي من جهة، وتأكيد للطابع الأممي "بالمعكوس" للعدو من جهة ثانية. نمطان من التحالف يؤكدان حقيقية التناقض الطبقي على صعيد أممي وفي فترة مبكرة من جهة، ووجود أممية البروليتاريا مقابل التحالفات البرجوازية المؤقتة بين سلطة دولة وسلطة دولة أخرى[1].

ربما كان يجب الحفاظ على هذا الأمر وتطويره لاحقاً من قوى الثورة ضد الثورة المضادة على صعيد عالمي. بل إن عدم تطويره ومفاقمته مكَّن الرأسمالية من تمويه التناقض إلى درجة أنها جرَّت لصالحها الكثير من أحزاب الأممية الثانية فانحازت في الحرب الإمبريالية الأولى لبرجوازيات بلدانها، وهذا لعب دوره الخطير في عدم امتداد الثورة البلشفية إلى أوروبا الغربية.

وهذا يفتح على الجدل الممتد حتى اليوم والذي تثرثر به قيادات كثيرة من الحركة التروتسكية بأن ستالين حصر الثورة الإشتراكية في بلد واحد هو الاتحاد السوفييتي. هذا مع أن الثورة البلشفية كانت على أحر من الجمر بانتظار الثورة في ألمانيا، أكثر بلد كان مرشحاً للثورة، وكذلك في إيطاليا وفرنسا. ولكن الثورة المضادة تمكنت من هزيمة قوى الثورة. فما الذي كان بوسع الاتحاد السوفييتي القيام به إذن؟ هل كان قادراً على تحرير أوروبا الغربية بينما كان يتعرض في فترة الشيوعية الحربية التي تلت ثورة أكتوبر لغزو إمبريالي من مليون ونصف جندي ناهيك عن الثورة المضادة داخل البلاد! وقياساً على مواقف التروتسك لاحقاً، فإن الاتحاد السوفييتي لو دخل ألمانيا لاتهمته التروتسكية كما الإمبريالية بتصدير الثورة. كيف لا؟ أليس نفس التروتسكيين هم الذين اعتبروا الاتحاد السوفييتي إمبريالية حينما ضرب الثورة المضادة في المجر ١٩٥٦

(١) كُتب في العقدين الماضيين كثيراً عن تبلور طبقة رأسمالية ((بلوتوقراط)) على صعيد عالمي، وهذا أمر قيد التفكير والقرار، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه، حتى لو حصل هذا التبلور، فهو قائم على الملكية الخاصة التي تفترض بل تشترط الصراع.

وتشيكوسلوفاكيا أو ما أُسمي إمبريالياً "ربيع براغ"[1] ووقفوا مع نقابة تضامن في بولندا التي كانت مرتبطة بالغرب وبابا الفاتيكان، وأدانوا مساعدته للحكومة الاشتراكية في أفغانستان مع أنها هي أي الحكومة طلبت المساعدة[2]!

هنا يمكننا الزعم بوجود قومية كامنة وقومية حاكمة في كل أمة. فالقومية الحاكمة هي قومية الطبقة البرجوازية التي تُخضع الوطن والأمة لمصالحها، في حين أن القومية الكامنة هي قومية الطبقات الشعبية التي تندمج مصالحها بالوطن والشعب بلا انفصام. (انظر القسم الثاني من الكتاب)

أُجريت في يوم ١٦ نيسان انتخابات ملحقة للكميونة وتمت بشكل جيد.

لعل الدرس هنا، أن قيادة وكوادر الكميونة رغم ثقل وتعدد الأعباء إلا أن الكميونة كانت تنجز أهم مقومين للثورة معاً وتزامناً وفي وقت جد مضغوط وقصير:

- القتال
- والديمقراطية الميدانية.

تجدر الإشارة إلى أن البرجوازية طالما تذرعت "بالدفاع" عن الوطن سواء في صراع الداخل أو الخارج لكي تفرض الأحكام العرفية والقمع المعمم دونما حاجة لذلك ولكن كي تتمكن من عنق المعارضة. (لا تعدم البرجوازية ابتكار أساليب لتثبيت سلطتها وإزاحة المعارضة من طريقها، فالقيادة الفلسطينية حين اندلاع الانتفاضة الأولى وتشكيل القيادة الوطنية الموحدة ومع أنها تشكلت من ممثلي الفصائل الفلسطينية، إلا أن القيادة قررت التفاوض كي لا تتطور قيادة بديلة لها في الأرض المحتلة بل قررت

(١) كان النقد في حينه بأن الاتحاد السوفييتي قمع ثورة ضد البيروقراطية والتوتاليتارية، ولكن الفترة اللاحقة أي فترة تفكك الدول الاشتراكية قد أوضحت أن الخلل مزدوج، فلا كان الاتحاد السوفييتي دولة اشتراكية بالمفهوم الحقيقي ولا كان التمرد في المجر وتشيكوسلوفاكيا بهدف تأصيل اشتراكية غير تابعة، بل توجه مرتد على الاشتراكية بمعزل عن مدى كون تلكم النظامين اشتراكيين.

(٢) أنظر، عادل سمارة، ***ظلال يهو-صهيو-تروتسكية في المحافظية الجديدة***، منشورات مركز المشرق العامل للدراسات الثقافية والتنموية، رام الله، ٢٠١٤.

المجيء إلى الأرض المحتلة ضمن تسوية لم تخلع الاحتلال ولا حتى مستوطناته! وغطت كل ذلك بزعم نقل القيادة إلى الداخل، وكأنه نقل تمَّ بالتحرير!!

وهذا يكشف بوضوح أن الديمقراطية لدى البرجوازية أداة تستخدمها حينما يكون توظيفها لخدمة مصالح البرجوازية ممكناً.

لم يكن أبداً صمود الكميونة لفترتها القصيرة أمر سهل لولا ذلك التماسك الداخلي الذي يؤكد معنى القتال حتى الاستشهاد. إنه درس الاستشهاد الجماعي وهي حالة نادرة في التاريخ مقارنة ببطولات الاستشهاد الفردي.

مثلاً، الاستشهاديون الفرادى في الحالة الفلسطينية، بعد اتضاح خواء اتفاقات أوسلو ١٩٩٣، قاموا بذلك من ضمن ما قاموا به، كمحاولات فردية لرفع سقف النضال الوطني في حالة الجزر أي لتعبئة فراغ النضال بعد التسوية. (انظر كتابنا: **المثقف المشتبك والعمليات الفردية ٢٠١٧**).

في حالة الكميونة، الأمر مختلف تماماً، حيث الاستشهاد جماعي في لحظة نهوض جماعي قاد إلى موكب استشهاد جماعي مهيب.

من نهاية آذار وحتى منتصف أيار كانت كل المعايير الاجتماعية فيما يخص العمل والتعليم والمرأة والفن تناقش وتقرر بين الكميونيين"

لعل هذا يذكرنا بمقولة ماركس "الثورات قاطرات التاريخ". إنها تكثيف السنوات في أيام، هذا ما أثبتته الكميونة في زخم نشاطها، حيث أسَّست وتمأسست في بضعة أسابيع سواء في التعليم وتحرر المرأة والفن. تأسيس حواري جماعي، حبذا لو تمت حماية النصوص والاحتفاظ بها، ولكن هيهات والبرجوازية الفرنسية حتى اليوم تسحق إرث الكميونة حيث قامت مؤخراً، كما أشرنا أعلاه، بشطبها من كتب المناهج المدرسية الفرنسية. ما أشبه اليوم بالبارحة وهذه الجغرافيا بتلك، من يمكنه أن يجد نصَّاً حقيقياً عن القرامطة في المكتبات العربية!

خلال شهر ونصف هي حالة الهندسة النسبية على جبهات حواف باريس تم إنجاز هذا كله. أليس هذا هائل بمختلف المعايير؟

كانت الحياة هادئة في باريس ولأول مرة يتم سماع رأي العمال وتبادل الآراء فيما بينهم، لا يوجد سوبر فايزر ولا عملاء بوليس تغلق الشوارع وتعيق المرور. هذا مناخ التفكير الحر والديمقراطية الثورية، بعكس حرية التفكير أي حدود الحرية التي يسمح بها الحاكم للمحكوم.

في الأيام ما بين ٩-١٤ أيار تتدهور الوضعية العسكرية للكميونة. تحشد البرجوازية الخاضعة بدعم المحتل الألماني قواها وإمكاناتها الهائلة مقارنة بباريس العمالية. كان بسمارك حاكم بروسيا ومؤسس الوحدة القومية لألمانيا أكثر شبقاً لذبح الكميونيين/ات بما هو بطل الصعود الرأسمالي الألماني. كان يعلم أن ألمانيا خارجة من فرنسا، لذا كان لابد أن يترك خلفه بالتأكيد، فرنسا غير عمالية. هل كان التدمير الأمريكي الهائل لفيتنام على نفس النهج بهدف تركها عاجزة عن إقامة نظام اشتراكي لديه ما يعتمد به على ذاته! وهل التدمير الجاري ضد سوريا من قبل ثلاثي الثورة المضادة (الثلاثي الإمبريالي، الصهيونية والكمبرادور وأنظمة وقوى الدين السياسي العربية) كي يتركوها خراباً يباباً؟

فهو لا شك تحالف رأس المال الألماني والفرنسي أو بقولة ماركس: "تآخي اللصوص" في مراحل بل ومآزق معينة..

أعلنت اللجنة المركزية للحرس الوطني يوم ١٩ أيار أول بيان سياسي بعد انتخابها كقيادة عمالية.

وهذا هو التطبيق التاريخي الأول ليس لخطاب عمالي بل لقيادة عمالية لأول حالة دولانية عمالية في التاريخ، ولا أقصد هنا حالة دولانية للفقراء حيث سبقتها ثورات للفقراء كثيرة وسبقتها ثورة ودولة القرامطة بمئات السنين، ولكن الكميونة أول دولة عمالية في عصر رأس المال، ولهذا بالطبع معنى مختلفاً.

من المناسب هنا أن نشير إلى استقطاب آخر في حالة الكميونة. فبينما كان العمال ينتخبون ممثليهم وقيادتهم العمالية كان المثقفون غير المناضلين يدعمون قصر

فرساي! وهكذا يصطف كل لصالح طبقته، يكون المثقف التقليدي البرجوازي مثقف طبقته حتى وهي تخون الوطن. لا عجب في هذا، فقد كان حتى مثقفين تقدميين في روسيا القيصرية يحتسون الفودكا في حانات موسكو ويسخرون من أبناء العمال والفلاحين والجنود المسرحين وهم يتدفقون إلى شوارع المدينة خلال أيام الثورة البلشفية ومن بين المثقفين الكاتب الكبير مكسيم غوركي. كما وقف المثقفون غير المناضلين ضد ثورة أيار ٦٨ ، ودعم ولا يزال مثقفون فلسطينيون قيادة م.ت.ف قبل وبعد اتفاق أوسلو!

وهنا يطيب لي أن أقدم للقارىء موقفاً يناسب الموقع والمقال والتحليل.

كنت قد كتبت في صفحتي على الفيس يوم ٦ أكتوبر ٢٠١٧، رسالة للأستاذ عبدالله السناوي في مصر بشأن اعتباره المفكر إدوارد سعيد ممن وقفوا ضد اتفاقات أوسلو، ولم يكن سعيداً ضد منهج أوسلو حقيقة، فهو مع الاعتراف بالكيان الصهيوني بلا مواربة. فجاء تعقيب من الرفيق يوسف أبو دية في أمريكا موضحاً ما أقصد بمثال واقعي وجدت من المناسب تثبيته في هذا النص كما هو:

Adel Samara

Yesterday at 4:28am

سؤال حامض ١١٩١:

الأستاذ عبد الله السناوي المحترم، وأنت الناصري والعروبي القومي، كتبت قبل يومين في جريدة الأخبار تستشهد بالراحل إدوارد سعيد في نقده لأوسلو! عجباً. سعيد هو أخطر من خدم أوسلو لكن بطبعة سعيدية. هو: مع الاعتراف بالكيان، وهو الذي أخذ ياسر عبد ربه إلى أمريكا ١٩٩١ فغاص الأخير في بحر التطبيع ولم يعد، وسعيد مع الحوار مع الصهاينة وهو الذي دعانا لتفكير جديد غير التحرير وهو ضد الكفاح المسلح وهو الذي زار المحتل ٤٨ للدعاية لعضوية عزمي بشارة في الكنيست، وهو الذي مدح

السعودية وهو ضد القومية العربية وهـو الليبرالـي الـذي فرضـه أبـو عمـار عضـو غـير منتخب في المجلس الوطني. هل يكفي هذا؟ انظر كتابه بالإنجليزية غزة – أريحا أولاً.

لو استشهدت به في الأدب المقارن لرفعنـا لـك القبعـات. يجـب إعطـاء النـاس حقها وأخذ حقوق الشعب منها. يبدو أنك تشجعت من تطريب جريدة الأخبار للنـاس برفعها للمطبع محمد بكري الذي لولا الخجـل لقالـت هـذا تشـي جيفـارا بكـري. إذا لم تفهمونا، ابتعدوا عنا.

Show more reactionsLike

· Reply ·

1

· 12 hrs ·

Manage

Yousef Abudayyeh

كان سعيد يأتى كل عام ولبضعة أيام ليحاضر في جامعة كاليفورنيا / سان دييغو، وكنـت دوماً أطلب منه، بصفته عضو مجلس وطنى يمثلنى (معين وغـير منتخـب)، أن يجتمـع مـع الجالية ويدافع عن مواقفه الساقطة وطنياً، وكـان يـرفض دائمـاً ويقـول أن لا دور لهـذه الجماهير. كنت أسأله كيف يمكن أن يرضـى أن يعـين ممـثلاً للجاليـة ويـرفض التواصـل معهـا. كـان عنـدما يرانـي كأنـه يـرى المـوت لإصـراري ومواجهتـه (العنيفـة في بعـض الأوقات) الدائمة على ضرورة التواصل مع من "يمثلهم".

Show more reactionsLike

· Reply · 10 hrs ·

لعل لواقعة إدوارد سعيد هذه معنى خاصاً. فهو مثال على المثقف التقليدي/ العضوي للبرجوازية. لذا وافق أن تعينه القيادة البرجوازية اليمينية (قيادة م.ت.ف) عضو في المجلس الوطني الفلسطيني أي ممثلاً للشعب والذي أكثريته هي الطبقات الشعبية التي لا ينتمي إليها ولا يرغب أن يأخذ رأيها بالاعتبار!. مفارقة هائلة. لعل موقف سعيد من الجماهير هو النقيض المطلق لموقف ماو تسي تونغ بأن الشعب هو المعلِّم.

واللافت في الأمر تطابق حالتي الكميونة والانتفاضة كحدث، واختلافهما كسيرورة بمعنى أن الكميونة بتحررها ودمقرطتها الشعبية أفرزت خلال زخمها ممثليها العضويين، أما الانتفاضة فقد تمكنت قيادة م.ت.ف أن تفرز/ تفرض على الانتفاضة ممثلين لا يمثلونها. وإذا كانت الكميونة قد انتهت ذبيحة بالمعنى الدموي، فإن الانتفاضة قد انتهت ذبيحة بمعنى الغدر بها باتفاقات أوسلو.

أعلنت سلطات باريس الجديدة يوم ٢٦ أيار تنظيم انتخابات للكميونة من ٩٠ شخصاً.

ورغم الهجمات التي شنها جيش البرجوازية ضد الكميونة، إلا أن سير الأمور كما خُطط لها كان لا بد منه حيث أُجريت انتخابات لسلطات باريس لمجلس من ٩٠ شخصاً، وكانت العبرة في عدم تغيير البرنامج رغم اشتداد العدوان.

بين ٢١-٢٨ أيار، الجيش يخترق متراساً إثر آخر. والمذابح تترى وقد قُتل ٢٠ ألفاً بالرصاص وجرى اعتقال خمسين ألفاً.

إنجازات وإخفاقات الكميونة:

من إيجابيات الكميونة أنها في ٢ نيسان ١٨٧١ اتخذت إجراء الإصلاحات السياسية، ومنها فصل الكنيسة عن الدولة ونزع ملكية الكنيسة وإلغاء كل مدفوعات الدولة للكنيسة. ربما لا شيء من هذا حصل في الوطن العربي حتى الآن، بل نواجه ظاهرة أنظمة وقوى الدين السياسي الدموية علانية. واعتمدت التعليم الشعبي المجاني،

وإلغاء الجيش الدائم. وفي ٣٠ آذار قامت بالقضاء على البيروقراطية بحيث يكون جميع الموظفين بالانتخاب ويتم تبديلهم. وفي ١ نيسان أُقر راتب غير عالٍ لا يتعدى ٦٠٠٠ فرنكاً. وتم الاكتفاء بربع عدد الموظفين السابقين.

وفي ٣٠ آذار كذلك تم منح حقوقاً كاملة للأجانب، وتم تعيين ألماني وزيراً في الكميونة وأصبحت راية الكميونة هي الراية العالمية. وتم إقرار الإدارة الذاتية للمشاعيات ومن الإصلاحات الاقتصادية: منع العمل الليلي للخبازين في ٢٠ نيسان ومنع الغرامات.

وبهذه الإصلاحات جذبت الكميونة كثيراً من البرجوازية الصغيرة الذين أفلسهم نابليون الثالث وألقى عبء نفقات الحرب على الفقراء، كما قامت بتأجيل الديون، وحاولت التوجه للفلاحين وتحويل باريس الطفيليين والمنغمسين في الملذات إلى باريس العمالية. وقامت بإحصاء المصانع وتسليم المصانع المتروكة للجمعيات العمالية.

إخفاقات الكميونة:

بما هي عفوية وبلا تخطيط حزبي مسبق، فقد عانت الكميونة من سلبيات معينة، لعبت دوراً في تمكين البرجوازية من إحراز النصر عليها.

يرى ماركس أن أحد السلبيات هو عدم الوعي لأمور وإجراءات هامة كان لا بد من الإحاطة بها وإنجازها.

كان للبرودونيين والبلانكيين دور في السلبيات وخاصة عدم التنظيم. كما أن عدم الوعي السياسي الطبقي أدى بالكميونة إلى عدم الاستيلاء على المصرف المركزي وعدم الزحف إلى قصر فرساي/ القصر الرئاسي رمز السلطة البرجوازية كما أشار ماركس وكذلك لينين. هذا إلى جانب عامل هام آخر هو الولع بالعبارة القومية الذي بالطبع خدم القومية الحاكمة!

جولة الصراع الأخيرة:

رغم بطولة المدافعين عن الكميونة، إلا أن البطولة لا تكفي ضمن ميزان قوى راجح لصالح الثورة المضادة بلا منازع، ناهيك عن عدم تهيؤ المرحلة والبنية وهنا تكون البطولة ليس في الانتصار بالمعنى المألوف، بل إنها انتصار كدرس للتاريخ، كما أن عدم الانتصار لا يعني رفض حدوث الكميونة، فالحدث يفرض نفسه ويكون الفعل الثوري الواعي في التفاعل مع الحدث. لا يختلف الأمر في الكميونة عن انتفاضة ٨٧ التي أيضاً تم إجهاضها، لكن حصولها أصبح درساً تاريخياً من جهة، ومن جهة ثانية بما هي شعبية، فلم يكن بوسع قيادة م.ت.ف أن تحول دون تفجرها وبالطبع لم يكن بوسع العدو منعها، ولكن حصل اغتيالها. لذا، كان أسبوع الدم في الكميونة ٢١-٢٨ أيار، نعم لأن البندقية لا تكفي لمواجهة المترليوز، كما أن الأعداد متفاوتة أيضاً علاوة على الموقع بمعنى أن القتال العلني في المدينة لا يعتمد على البطولة دون توازي الإمكانيات وإنما على السلاح أيضاً. وهنا يتشابه الموقف مع مجزرة أيلول في عمان ١٩٧٠ بين المقاومة وجيش النظام الأردني. ومن هنا ميزة حرب الغوار في الأرياف حيث "فرص الانسحاب وأضرب وأهرب" مما يعني خسارة اشتباك أو حتى معركة ولكن ليس خسارة الحرب. وقد تكون تجربة حزب الله في لبنان ٢٠٠٦ حالة جديدة في نوعية الصراع بمعنى توفر ميزات للغواريين تجمع بين الجيش النظامي، والتمترس في الموقع ولكن بوجود تقنيات وتسليح يشل وحشية سلاح الأعداء[١].

---

(١) أنظر، عادل سمارة، حزب الله: تفوق القائد والمقاتل والكيان: ارتباك الإثنين قراءة في كتاب: حرب ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل، تأليف مان. م. ماثيو. ورقة صادرة عن مركز الأسلحة المشتركة للجيش الأمريكي، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨.

في كنعان النشرة الإلكترونية Kana'an – The e-Bulletin السنة السابعة عشر، العدد ٤٥٥٨، ٣ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٧.

https://kanaanonline.org/ar/2017/09/03/%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%a1%d8%a9-%d9%81%d9%8a-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%ad%d8%b1%d8%a8-2006-%d8%a8%d9%8a%d9%86-%d8%ad%d8%b2%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d9%84%d9%87-%d9%88%d8%a5%d8%b3%d8%b1%d8%a7%d8%a6/

وهكذا، كانت الضحايا في قمع الكميونة: ٢٠-٣٥ ألف قتيل و١٥ ألفاً من منفيين. كما استمرت المحاكم لعدة سنوات[١].

من ثوار أمميين إلى مستوطنين عُتاة:

قد لا ينتهي الجدل حول طبيعة التجمعات الاستيطانية ومآلاتها، بل تحديداً عدم تجاوز لاإنسانيتها، أي وحشيتها وخاصة عجزها عن توليد تيارات ثورية واشتراكية فعلية رغم تطابق تطورها الصناعي مع أطروحة ماركس بشأن حصول الثورة الاشتراكية في البلدان المتقدمة صناعياً خاصة على يد البروليتاريا. وبالطبع، ليس هنا مجال التفصيل فيما يخص التطورات بل التغيرات التي حصلت على بنية بروليتاريا المركز عامة والمستوطنات البيضاء خاصة فيما يخص تراجع دور وعدد البروليتاريا الصناعية التقليدية ومن ثم تبلور أكثر من طبقة/ شريحة عاملة في هذا البلد أو ذاك: عمال الخدمات، عمال الصناعة التقليدية وعمال الاقتصاد الجديد، وما هي آليات تجميعهم وتضامنهم لدخول مشروع ثوري.

يشرح جيفري بايرن في كتابه عن الجزائر[٢] كيف لعب الكميونيون المنفيين إلى الجزائر دوراً وحشياً ورجعياً ضد أهل البلاد وتحولوا إلى أدوات في خدمة الدولة البرجوازية التي هزمتهم ونفتهم!

"... بأن مدينة قسنطينة بقيت منيعة على الفرنسيين لما يقارب العشرة أعوام بعد هزيمة ثورة الأمير عبد القادر، وشنّ البربر في إقليم القبائل ثورةً ضخمةً بعد ذلك بسنوات، ولم تخرج الجزائر من تصنيفها كـ «منطقة عسكرية» حتى سنة ١٨٧٠، أي بعد أربعين عاماً على الغزو، وبدء توافد المستوطنين الأوروبيين بأعدادٍ كبيرة، ما سمح بإتمام «التشكيل الاستعماري» للبلد عبر مجتمع المستوطنين والإدارة المدنية، بدلاً من الجيش والقوة العسكرية[٣].

---

(١) **حول كميونة باريس**، لينين، دار التقدم، ١٩٧٨، ص ص٣-٩.

(٢) **قِبلة الثورة: الجزائر، نزع الاستعمار، ومنظومة العالم الثالث**، منشورات أوكسفورد، ٢٠١٦.

(٣) من مفارقات التاريخ، أن هؤلاء الثوريين المنفيين وخاصة إلى الجزائر، أصبحوا لاحقاً من عُتاة المستوطنين هناك والأشد عنصرية ضد الشعب العربي الجزائري.

أي تحـول الكميونيـون إلى رأس حربـة لتجمـع اسـتعماري يتشـكل علـى شكل "دولة مستوطنين" عُتاة! هل كان السبب دفاعاً عـن البقـاء حيـث ووجهـوا بمقاومـة الشعب الأصلاني وبما هم منفيين فـلا فرصـة للعـودة إلى فرنسـا؟. هـل فقـدوا وعـيهم الأممي والاشتراكي، هذا إن كان أصـيلاً علـى مـا يبـدو؟ هـل قـام مـوقفهم هـذا علـى عنصرية بيضاء من المستوطِن المستعمِر ضد شعب فقـير لم يـدخل المرحلـة الصـناعية؟ أم أن ضرورة الحفاظ على البقاء هي السبب في دورهم الإجرامي؟ هـذا سـؤال مفتـوح. لا شك أن إجابته ترتبط بالجغرافيا بمعنى أن لا فرصـة للحيـاة سـوى بالصـراع الـدموي في هذه الحالة، وترتبط بـالفكر والاسـتراتيجية الاسـتعمارية الـذي كـان يعـرف أن هـؤلاء الكميونيين سوف يتحولون إلى أداة في خدمته حيث لا فرصة أخـرى أمـامهم في المرحلـة الأولى على الأقل. ولا يدري المرء هل كان هؤلاء البرجوازيين الاستعماريين يعرفـون أو يتنبؤون بأن هؤلاء الكميونيين/ المستوطنين سوف يولّدون مستوطنين على شـاكلتهم وإلى الأبد! وبأن الحـل في هـزيمتهم وتجريـدهم ممـا نهبـوا علـى أن يكـون هـذا مقدمـة يجـب حصولها قبل منحهم نعمة الاشتراكية.

من جهة أخرى، فإن مجرد حصول الهجرة بهدف الاستيطان تكشف عـن مسـألة جوهرية بأن التجمع الاستيطاني عاجز عن توليد قوة اجتماعية ثورية اشـتراكية تتصـالح مع أهل البلد الأصلانيين. وهذا ما نراه حتى اليـوم في المسـتوطنات البيضـاء، الولايـات المتحدة، كندا، استراليا، نيوزيلندا والكيان الصهيوني خاصة. وحتى جنوب إفريقيـا الـتي عرض السود تصالحاً تاريخيـاً مـع البـيض، لكـن هـؤلاء، رغـم اضـطرارهم لمـا يسـمى المصالحة لم يتخلوا عن ثقافـة العنصـرية والأهـم بقـاء الاقتصـاد بأيـديهم حتـى الأرض المغتصـبة. وهـذا بـالطبع راجـع أساسـاً إلى تشـكُّل رأسماليـة سـوداء عميلة/ حليفـة للرأسمالية البيضاء وللإمبريالية. (مانديلا، زوما... وبيجن).

وإذا كانت تجربة جنوب إفريقيا قـد وصـلت حـد حلـول الفسـاد الأسـود محـل التمييز العنصري الأبيض، فإن تجربة الجزائر مُعيبة أكثر حيث تحـول البلـد مـن مشـروع توجه اشتراكي إلى حالة من الفساد والفقر ممـا أنعـش قـوى الـدين السياسـي ليصـبح في

أوساط شعب الثورة التي هزمت الإمبريالية قوى تقودها أيديولوجيا الدين السياسي مرجعيتها الإخوان المسلمين والوهابية النفطية من جهة، ولينفتح السلطان السياسي على الغرب في مشروع من التبعية سواء للفرنسي أو الأمريكي. وهنا تحضر المقارنة بين الحزب الشيوعي الكوبي على قلة الإمكانات الكوبية وبين جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي تجلس على أرض ثرية ونفطية!

وإذا كان الكوميونيون قد نُفوا إلى الجزائر، فإن "شيوعيين" صهاينة قد تطوعوا وتجندوا وجندوا مستوطنين يهوداً إلى فلسطين وهذا ما يجعل فهمنا لطغيان العنصرية والدين السياسي والـ"تفوقية" البيضاء والجاهزية لخدمة الإمبريالية لدى هؤلاء أمر مفهوم لدينا، وتحديداً أن الأمر المفهوم أكثر هو دورهم في خصي ظهور تيار ثوري حقيقي في المستوطنة الرأسمالية البيضاء في فلسطين[1].

ومن باب الافتراض، ألم يكن بوسع الكميونيين أن يؤسسوا لحزب غير شوفيني، غير اسعماري، ولا نقول يساري يقف على الأقل على الحياد تأسيساً لعلاقات إنسانية لاحقاً؟ هل جرت محاولات كهذه، لا ندري، فمعرفة ذلك مهمة. ذلك لأن ما هو معروف هو انخراط الكميونيين في خدمة الاستعمار الأم، وهذا نفسه فيما يخص ما يسمى اليسار الصهيوني في فلسطين.

لست أدري إن كانت هناك علاقة بين ما كتبه ماركس وإنجلز عن الجزائر وبين الدور العدائي للكميونيين كمستعمِرين في الجزائر. هل انطبع ماركس بموقفهم؟

ولكن ماركس نفسه كان يدرك أن معظم الكميونيين ليسوا اشتراكيين وهذا لا شك لعب دوراً في تحولهم من ثوريين بالمعنى الفضفاض الذي وضعهم فجأة في مواجهة السلطة البرجوازية المهزومة والخائنة في فرنسا إلى مستعمرين عُتاة في الجزائر. ولا يغيب عنا طبعاً أنه حتى فلاسفة يساريين وشيوعيين من الأصل الفرنسي الاستيطاني في الجزائر قد وقفوا ضد تحرير الجزائر! هل كان يعرف هؤلاء أن الثورة الجزائرية سوف

(1) See, Adel Samara, Terrorist Orientalism in a State Form Using Marxism, Christianity and Islam to Dismantle Arab Homeland Adel Samara Kana'an – The e-Bulletin, Volume XV – Issues 3781-3782 24, March 2015.

تفقد زخمها وتُحول البلد إلى شبه مستعمرة؟ ولكن حتى لـو حصـل هـذا، فهـو لا يـبرر التذيُّل للاستعمار لأن الموقف التاريخي هـو النضـال ضـد رأس المـال في المركـز والمحـيط وصولاً إلى الاشتراكية.

تقييم الكميونة:

ماركس:

في تقييمه الأولي للكميونة، شعر ماركس بأن المعايير الكميونية يمكن أن تـأخذ هذا الشكل فقط المتلائم مع دولة في مدينة محاصـرة. وطبقـاً لتكوينهـا والتحـديات الـتي واجهتها، لم يكن لها أن تتخذ سوى طريـق حكومـة الشـعب علـى يـد الشـعب. (انظـر لاحقاً الانتفاضة وموديل الحماية الشعبية).

وكمـا كـرر مـاركس في رسـالة إلى دومـيلا نيوينهـويس (**Domela Nieuwenhuis**) (٢٢ شباط ١٨٨١) تقييمه وتوقعاته بأن الكميونة هي مجرد "انتفاضـة مدينـة في ظـروف اسـتثنائية وحيـث معظـم أهلـها ليسـوا في وارد الإشـتراكية وقـد لا يصبحون، إلا أنه أيَّدها بوضوح بما هي مبادرة شعبية عمالية عفوية وإن كانـت محصـورة محاصرة في مدينة.

وحتى لـو لم تكـن الكميونـة ثـورة اشـتراكية، فقـد أكَّـد مـاركس بـأن طابعهـا الاجتماعي العظيم كامن في مجرد حصولها ووجودها. لم ينظر لهـا مـاركس أو لم يعتبرهـا ولم يطالب بأن تعتبر موديل دغمـائي أو أسـاس يؤسـس لحكومـات ثوريـة، للمسـتقبل، فالكميونة بنظر ماركس، كانت مثابة تجربة شعبية مفتوحة سياسياً باتساع بينما كانت كـل الأشكال الحكومية السابقة قمعية.

لكن ماركس امتدح إلغائها للدولة وتحديداً الدولة القومية. ومدح إلغـاء الجـيش لصالح التجنيد المباشر للشعب وكان ذلك طبيعياً على الأقل لسببين:

- الأول: أن الكميونة نفسها كانت ذات تركيب أممي سواء لوجـود أكثـر مـن

ثلث أعضائها من منتسبي الأممية الأولى مع تعدد أصولهم أو جنسياتهم القومية. كانت أممية بالمعنى الموضوعي المادي الميداني وليس بالمعنى السياسي الواعي طبقياً، أي اشتراكياً، ولكن هذا لا يستثني وجود تيار اشتراكي فيها. ومع ذلك فإن ممارستها وتجربتها فتحت آفاقاً وابتكارات ثورية اشتراكية.

- والثاني: لأن الدولة القومية الأوروبية تحديداً، كانت بقيادة برجوازيات ذات دور استعماري. وهي القومية التي تحدث وكتب ضدها ماركس بوضوح.

لكنه كما أشرنا نقد تقصيراتها في المسالة القومية أي توهمها بوطنية البرجوازية.

كما نقد ماركس ضعف مركزيتها العسكرية. وأعتقد أنه ضعف مبرر. فقد كانت مكونة من مجموعات ثورية غير مؤهلة عسكرياً بالمعنى النظامي في مواجهة جيشين قويين. كما أن كونها قاتلت في حرب مدن وشوارع وليس في حرب غوارية، فإنها افتقرت إلى المدى الزمني الذي يسمح لها بالمناورة واعتماد تكتيك غواريو الميدان "اضرب واهرب" إلى الأدغال كي تتمرس في القتال. فالمدينة منطقة محددة ومحاصرة تماماً.

كما لم يوفر ماركس نقده للكميونة مشيراً إلى عجزها الدولاني. ويبدو أنه لم يأخذ بالاعتبار عاملين ربما كانا وراء ذلك العجز مما جعل نقد ماركس متشدداً وهما:

- أن حصول الكميونة كان عفوياً حيث لم يكن بناء على خطة عمل حزبية منظمة. هذا مع أنها أرست أسس لا تتفق مع الحزبية اللينينية كما كتب آلان باديو (أنظر لاحقاً ثورة أيار ٦٨).
- هذا إضافة إلى عمرها القصير الذي لم يسمح لها بتدارك إغلاق هذه الفجوة وبالتالي ترتيب دولانيتها.

كما نقد ماركس عجزها عن تحديد الأولويات المالية. وربما هنا كان تقصيرها حيث لم تستولي على المصرف المركزي. ومعروف أن الطغمة المصرفية قد لعبت دوراً في دفع السلطة البرجوازية للإسراع في الإجهاز على الكميونة؟

لعل أشد نقد من ماركس ومن ثم لينين، على الكميونة أنها لم تتمتع بأخذ القرار بكفاءة وخاصة، كما ورد آنفاً، أنها لم تحتل فرساي ولم تسيطر على البنك المركزي ولم تضع يدها على الذهب.

وهذا ربما كان السبب في استطاعة البرجوازية استعادة المبادرة. فسقوط فرساي كان أمر أساسي في إحباط البرجوازية معنوياً وقومياً، والاستيلاء على المصرف المركزي وأخذ الذهب كان سيُبقي البرجوازية، الدولة مكشوفة مالياً ويجعل الفرنك بلا قيمة في نظر المواطنين والدول الأخرى. لعل هذه أهمية موقعي السلطة والمال.

لينين:

ارتكازاً على هذا وصف لينين الكميونة بـ ديكتاتورية البروليتاريا، إذ تمنح الدولة قيادة للمؤسسات بما فيها القمعية منها بشكل لم يسبق له مثيلاً، حيث قامت الكميونة أو حسب ما قدمت للعمال دولة هي الأنسب لتحرر العمال من العمل عبر إنشاء أو إقامة مجتمع اشتراكي. نلاحظ هنا أن لينين كان أقرب من ماركس باتجاه قراءة الطابع الطبقي وكون الانتفاضة نواة أولية عفوية لدولة العمال بل وحتى الاشتراكية. وربما يعود هذا إلى خبرة لينين في مسألة الوصول إلى السلطة بينما تتركز خبرة ماركس في التعميق النظري.

ويرى لينين، كما ماركس، أن تقصير الكميونة في كونها توقفت في منتصف الطريق أي لم تكمل لتحرير قصر الرئاسة فرساي من أيدي البرجوازية، ولم تصادر أملاك مغتصبي الملكية ولم تضع يدها على البنك المركزي بما فيه من ذهب – لينين. وهذا صحيح لأن هذه القرارات لو حصلت لكسرت ظهر السلطة وربما تكون قد غيرت مجرى الصراع.

كما يضيف لينين "... بأن الكميونة، لم تحاول إبادة أعدائها بل حاولت التأثير عليهم معنوياً. واستخفت بالعمليات الحربية هذا أعطى حكومة فرساي فرصة تجميع صفوفها".

لعل محاولة التأثير معنوياً هي تعبير عن رفض الثوريين دفع الصراع إلى المستوى الدموي، وهو لا شك ناجم عن عدم فهم حقيقي لدموية البرجوازية التي دائماً تبدأ القتل ولا تقابل السلم بالسلم ولا ترخي من بين فكيها ما سلخته من جهد الطبقة العاملة، أي أن ما أخذته بالاستغلال و"السلم" المخادع، أي الاغتراب العمالي، لا تتركه بلا عنف أي حتى وهي مضطرة ومهزومة. أما الاستخفاف بالعمليات الحربية فقد يعود إلى عدم توفر خبرة في الحرب أساساً سواء حرب المدن أو مقاتلة الجيش النظامي.

بالمقابل، فإن البرجوازية الصغيرة كانت أكثر وعياً طبقياً، ولذا، دعمت الكميونة في البداية ثم تخلت عنها خوفاً من الاشتراكية كما رأى لينين، ولكن ربما توصلت بحساباتها بأن الأفق مسدود أمام الكميونة، فذهبت باتجاه مصالحها أين أفضل.

وقد يؤكد ما نراه، حصول التحالف بين برجوازيتي فرنسا وألمانيا حيث حاصر بسمارك نصف باريس وأطلق سراح ١٠٠ ألف أسير من جيش السلطة[١] من أجل قهر باريس الثائرة، وبالطبع حاصرت الحكومة الفرنسية النصف الآخر[٢]".

كما تمكنت البرجوازية: "من استعداء الفلاحين الجهلاء... ورغم حصول محاولات انتفاضية في ليون ومرسيليا وسانت إيتيان وديجون وغيرها لكن سرعان ما ضُربت". وهكذا يكون الطوق الطبقي المتحالف قد التف حول عنق الكميونة. (أنظر لاحقاً امتداد التظاهرات العمالية في فرنسا من باريس إلى مدن أخرى).

لقد كان القتال دامياً بحق، ففي ٧٠ يوماً فقدت باريس ١٠٠ ألف من أبنائها.

---

(١) في الحرب التي قامت بها الثورة المضادة ضد سوريا منذ آذار ٢٠١١، قامت التوابع العربية وخاصة الخليجية بالإفراج عن اللصوص والقتلة والمجرمين وأرسلتهم للقتال ضد الشعب والجيش العربي في سوريا!.

(٢) لينين/ حول كوميونة باريس، دار التقدم، فرع طشقند، ١٩٧٨، ص٢٦.

ورغم القمع أجبر الحزب العمالي الجديد الطبقات السائدة على إخلاء سبيل الكميونيين الذين كانوا لا يزالون في يد الحكومة بعد سحق الكميونة، وتم إبعاد آخرين إلى الخارج، ومنهم إلى الجزائر المستعمرة الفرنسية آنذاك.

إلى جانب نقده لعدم الهجوم على فرساي والمصرف المركزي يضيف لينين نقداً لغياب برنامج واضح يجيز لممثلي البروليتاريا الاشتراكية الاشتراك مع البرجوازية الصغيرة في الحكومة الثورية بل هو ضروري في بعض الظروف حيث تبين وثيقة الكميونة أن المهمة الحقيقية التي كان على الكميونة أن تنجزها هي أولاً تحقيق الديكتاتورية الديمقراطية لا الاشتراكية. أي الديكتاتورية الديمقراطية الثورية للبروليتاريا والفلاحين.

في نقده لـ بليخانوف يقول لينين:

"في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٠٥ قبل شهر من بلوغ الموجة الثورية الروسية الأولى ذروتها، لم يحذر بليخانوف البروليتاريا بحزم، بل أنه، بالعكس، حدثها بوضوح عن ضرورة تعلم استخدام السلاح والتسلح. ولكن بعد شهر واحد، حين بدأت المعركة، لم يحاول بليخانوف قط تحليل أهميتها ودورها في مجرى الأحداث العام، وصلتها بأشكال النضال التي سبقتها، إنما سارع ليظهر نفسه بمظهر المثقف النادم قائلاً: "ما كان ينبغي حمل السلاح[1]"

كما أن ماركس كان قبل الانتفاضة بستة أشهر قد حذر متوقعاً وقائلاً "أن الانتفاضة ستكون ضرباً من الجنون"

لكن في ١٢ نيسان ١٨٧١ كتب ماركس إلى كوغلمان رسالة زاخرة بالحماسة،

(١) ما أشبه تجارب الشعوب، فالفلسطينيون والعرب من أهل التطبيع والتفريط أنظمة وتنظيمات ومثقفين/ ات هم أيضاً يدينون مقاتلة العدو الصهيوني بالسلاح، ويسعون إلى سلام مع كتلة استيطانية حربية عدوانية اجتماعياً وعسكرياً! وللمقارنة، كانت انتفاضة ١٩٨٧ سلمية شعبية واسعة رد عليها العدو بالنار. وحينما حاول الفلسطينيون استخدام السلاح في انتفاضة ٢٠٠٠ أدانها الليبراليون جميعاً ودُعاة "المقاومة" السلمية! وواصل هؤلاء طريقهم إلى أن وصلوا إدانة حمل السلاح والاكتفاء بالبكاء على أبواب الأمم المتحدة التي في داخلها ثمَّة بغاء سياسي.

أن هذه المحاولة تهدف إلى تحطيم الآلة البيروقراطية والعسكرية، لا إلى الاكتفاء بنقل هذه الآلة من يد إلى يد أخرى.

"... أية مرونة – أية مبادرة تاريخية، أية مقدرة على التضحية عند هؤلاء الباريسيين ص٨٨، "أن التاريخ لم يعرف حتى الآن مثالاً على بطولة كهذه". هذا موقفه رغم أنه قبل ٦ أشهر تنبأ بالفشل.

كان ماركس من منفاه في لندن ينتقد الخطوط المباشرة التي يقوم بها الباريسيون الجريئون حتى الجنون "المستعدون لاقتحام السماء"

"... الهجوم، ينبغي الهجوم إطلاقاً! "كان ينبغي الزحف فوراً على فرساي..."

"مهما كان من أمر، فإن الانتفاضة الباريسية، حتى ولو قضى عليها ذئاب المجتمع القديم وخنازيره وكلابه السافلة، هي أمجد مأثرة قام بها حزبنا منذ انتفاضة حزيران (يونيو). ص١٧

"إن الأوباش البرجوازيين الفرساليين وضعوا أمام الباريسيين أمرين لا ثالث لهما: إما قبول التحدي للمعركة، وإما الاستسلام دون معركة، ولو تمت الأخيرة، لكان تفسُّخ معنويات الطبقة العاملة كارثة أعظم بكثير من خسارة أي عدد من الزعماء". راجع ماركس انجلز الرسائل المختارة، ١٩٥٣، ص٢٦١، الطبعة الروسية، ص١٨.

لا يحتاج العمال الدولة سوى بشكل مؤقت[1]. لذا لا بد من استخدام مؤقت لأدوات ووسائل وأساليب سلطة الدولة ضد المستثمرين كما أن إلغاء الطبقات يستلزم، كأمر مؤقت، ديكتاتورية الطبقة المظلومة.

---

(١) الدولة لدى ماركس: هي هيئة تنفيذية لرأس المال. فهي كما يقول باديو تحاول بأية كلفة أن تجعل المواطن العادي مقتنعاً بأن من المحال تغطية عجز الضمان الاجتماعي، بل أن علينا تغطية عجز البنوك بغض النظر عن كم بليون هي تكلفتها. وحيث كرس أعماله لأجل الشيوعية، فهي بالنسبة له: الشيوعية... أنها تتضمن أكثر قطع جذري مع المؤسسات التقليدية، وتعطي فرصة لبروز مؤسسة التي فيها التطور الحر لكل واحد هو شرط التطور الحر للجميع. طبقاً لقول باديو، من سمات أزمة الرأسمالية الاحتكارية منذ ٢٠٠٧-٢٠٠٨ كان قرار الأنظمة الحاكمة في الغرب وخاصة الولايات المتحدة تغطية عجز المصارف الكبرى تحت حجة "هذه ممنوع إفلاسها"!.

"انجلز: ولكن خصوم السلطة يطلبون إلغاء الدولة السياسية دفعة واحدة، قبل أن تلغى العلاقات الاجتماعية التي نشأت عنها الدولة. إنهم يطلبون أن يكون إلغاء السلطان أول عمل تقوم به الثورة الاجتماعية" (ص٦٨ من لينين الكميونة)

لعل باديو كان على حق في قوله بأن الكميونة لم تكن مهيأة لذلك كما أشرنا أعلاه. ولو تهيأت سياسياً، فلم تكن لديها الوسائل للقيام بذلك.

واللافت، أن رأس المال كان يعي أهمية دوره، لذا فإن سوق الأسهم قال للحكومة بل هددها بأنها لن تأخذ أية عمليات مالية ما لم تتخلص من هؤلاء "الأوباش".

اشتغل ألان باديو على مقارنة الثورة الثقافية والكميونة فجادل بأن ماو قد اعتمد على القوى الموجودة (الشباب المتعلم) (الذي تحرك على صعيد العالم في الستينات) الأكثر شبابية وتعليماً من العمال وبعض فرق الجيش الأحمر هذه أغرقت الصين في فوضى لعشر سنوات ولكنها نشرت أفكاراً وشعارات وأشكالاً تنظيمية ومناهج تنظيرية لم تستنفذ قوتها حتى اليوم. (أنظر الثورة الثقافية)، وهذا يؤكد أروحتنا بأن هناك هزائم منتصرة بالمعنى التاريخي.

ويضيف باديو، لا يزال مدهشاً ومحيراً فشل هذه الانتفاضة التي تجلَّت في مئات المنظمات الجديدة وآلاف الصحف ذات البوسترات العملاقة، والاجتماعات المتواصلة والاشتباكات التي لا تحصى. لا يكمن السبب في الهدف الذي حاولته، المشكلة التي حاولت حلها بقدر ما هو في فشل كميونة باريس حيث ثار العمال، الأمر الذي هو طبيعي وضروري في ظروف أرغمتهم على ذلك. أنه يرتد إلى حقيقة أن الحركة لم تتمكن جدلياً من التفاعل على المستوى القومي مع أشكال تنظيم التي كان يمكن أن تعدل مخطط حزب – دولة.

في حالة كميونة باريس، إن غياب قيادة مركزية (حزب حقيقي) قاد إلى انقسامات فوضوية وإعاقة. لكن باديو في كثير من كتاباته لم يتوقف عند الحزب بمقدار ما توقف عند الثورة المتواصلة، مما دفعه لتقليل دور الحزب ربما هروباً من النقد بأنه مالىء البيروقراطية!

ويقول، وفي الصين فإن عشرات آلاف المجموعات قوضت إمكانية فعل شامل جماعي. كانت كميونة شنغهاي نموذجاً ممتازاً في بداية ١٩٦٧ لكنها فشلت في التحول إلى نموذج على صعيد قومي فانهارت في النهاية/ تاركة المجال مفتوحاً لانتقام الحزب. ص٢٠٨. وقد يمكننا القول بأن عدم توسع كميونة شنغهاي إلى بقية أرجاء الصين شبيه بفشل كميونة باريس في التوسع في بقية فرنسا وبالتالي ساهم عدم القدرة على التوسع في هزيمة التجربتين.

نحن هنا، أمام إشكالية طرحها باديو ولم يحلها وهي إيجاد صيغة بين الحزب المسيطر والذي تحول إلى حزب/ دولة يقود ويعمل نيابة عن الجماهير وبين قيادة ميدانية للجماهير بنفسها أي سياسة بلا أحزاب.

النقاش هو في صلب العلاقة بين الحدث والدولة. في كتابه الدولة والثورة اقتفى لينين أثر ماركس. وكان محوره الحدث والدولة. كان حذراً في أن يقول أو من أن يقول بأن الدولة قيد الوضع أو القضية أو النقاش بعد الثورة يجب أن تكون مؤسسة ذبول الدولة بما أن الدولة هي منظم الانتقال إلى اللا-دولة[1].

لذا دعنا نقول أن فكرة الشيوعية يمكن أن ترسي السياسة الحقيقية، منزوعة تماماً من سلطة قوة الدولة إلى شكل "دولة أخرى" توفر إمكانية أن الانتزاع يكمن في عملية ذاتوية، بمعنى أن "الدولة الأخرى" منتزعة من سلطة الدولة، لسبب، ومن هنا من قوتها سلطتها هي، طالما أنها دولة فإن جوهرها سوف يذبل.

الثورة الثقافية:

ربما مظلومية الثورة الثقافية مقارنة مع كميونة باريس والثورة الطلابية ١٩٦٨ والانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ أنها وحدها التي لم يتوقف الخلاف حولها حيث الانقسام تجاهها شديد الحِدَّة فريق ضدها بالمطلق وفريقٌ مخلصٌ لها بينما الأحداث الثلاثة الأخرى كان الجدل تجاهها أقل بين من هو معها ومن هو ضدها.

---

(1) The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015, p. 186.

يقول باديو في كتابه "الفرضية الشيوعية" كان امتداد الثورة الثقافية ١٩٦٥-١٩٧٦ ...أما زمنها الحقيقي فهو من نوفمبر ١٩٦٥ – تموز ١٩٦٨ ومن سماتها ومعالمها الرئيسة: كثير من الطلبة صاروا عمالاً أو ذهبوا للعمل في الريف. ومن مسبباتها أنه لم يعد ممكناً تطوير أي إبداع سياسي في حالة حزب – دولة.

واختلاف المواقف لا يحل بالعنف ولا بالشكلية الرسمية البيروقراطية، بل بالتحرك السياسي الجماعي الشعبي. وبأن الانتخاب الحر الشعبي بعد نقاش وبعده يذهب المفوضون إلى المؤتمر الثوري الثقافي. وبأن قلعتها الأولى كانت كميونة شنغهاي.

عملياً تم احتلال المصانع وتشكيل لجان المصانع ووسائل الاتصال وحل لجان الأحزاب حيث شكل الثوار لجان المصانع واحتلوا المكاتب الإدارية في شنغهاي.

لعل الإشارة الهامة التي كتبها باديو "نعلم اليوم أن جميع السياسات التحررية يجب أن تضع حداً أو نهاية لموديل الحزب أو عدة أحزاب، وذلك بهدف تأكيد سياسة "بدون حزب" وحتى في الوقت نفسه بدون السقوط في حالة الفوضوية" هي نفسها المعضلة التي لم يحلها وهذا ما سنناقشه أكثر.

دوافع الثورة الثقافية:

تخندق وصراع القوة:

أحببت ماو تسي تونغ أم كرهته، وقفت مع تياره أم ضده، كل هذا لا خلاف عليه وفيه، إنما الأهم هو: هل كان بوسعك التقاط نظرته الثاقبة التي تسبق زمانها؟ ومن ثم تفهُّم أهمية هذه النظرة رغم مظلوميتها. التقاط الآتي يعني أن هناك أُناساً، هم نُدرة طبعاً، هم جزء من التاريخ والحاضر والمستقبل معاً.

في الفترة التي تلت التحرير مباشرة كان لديك ليو شاوكي، الذي حاجج بضرورة اعتماد آليات السوق في الأرياف، وأن إنشاء اشتراكية في مجتمع ريفي متخلّف هو حلمٌ طوباوي (في المستقبل، يمكننا ببساطة أن نصادر هذه الأملاك)، كان شاوكي يضيف، بحسب تشو، فيما كان مسؤول القطاع الزراعي في الحزب الشيوعي ينظّر

للطريق الشعبوي والملكية العائلية، بينما كان ماو الشخصية الأساسية التي أصرّت على الاشتراكية والتجميع، وفرضت رأيها ضدّ التيّارين المخالفين في نقاشاتٍ شهيرة. على الدوام وحتّى بداية الألفية، كان الشعبويون والرأسماليون يقفون في حلفٍ واحدٍ ضدّ الخيار الاشتراكي، وهم قد سارعوا إلى الانقلاب على النموذج الماوي بمجرّد غيابه عن السّاحة.

كانت ثورة ماو الثقافية مفروضة عليه حيث لم يعد هناك خياراً بعد أن فشلت مختلف الجهود الأخرى.

كان من الواقعي بل والضروري بمكان أن يلتقط ماو بنفسه حقيقة أنه بعد الانتصار بأن الوطن/ المجتمع لم يتخلص من الثورة المضادة لمجرد أو بمجرد تحقيق النصر. ورغم أهمية عبارته **"تجرّأ على النصر"** فإنها لم تحرفه أبداً إلى الغرور بالنصر ومن ثم الاستنامة على فراش من الياسمين.

وقد يكون مدهشاً للبعض أن الحزب الشيوعي الذي انتصر هو الذي توفرت في ثناياه فراغات عششت فيها الثورة المضادة التي أسماها ماو **"طرائقيوا رأس المال" Capitalist Roaders** بل إن هؤلاء كانوا في قمة السلطة التي كما شرح وليام هنتون: "... تطور نظام الحزب بقيادة ماو إلى قيادة بروليتارية بينما أصبح التيار الذي قاده ليو تشاو تشي هو مركز القيادة البرجوازية تحت مظلة الحزب نفسه. لا يعني هذا بأن كل من هو في هذا التيار أو ذاك إما بروليتاري أو برجوازي. فهناك الكثير من درجات المزج وإعادة المزج[1].

... لتقييم خطر هذا الاتجاه – طرائقيوا رأس المال – هو فيما قامت به حكومة دينج هيساو بينج حينما وصل السلطة لاحقاً، حيث منح سندات بقيمة ملايين الدولارات تم توقيعها لصالح مستحدثين صينيين مستقلين تعويضاً لهم عما صادرته الحكومة، وهي سندات كانت قد دُفعت فوائدها منذ عشرة سنين قبيل إلغائها[2].

---

(1) Monthlyreview.org/2004/09/01/on-the-role-of-mao-zedong, By William Hinton September 1, 2004, On the Role of Mao Zedong.
(2) Ibid.

كانت لـ ماو اليد العليا سياسياً. كان بوسعه الحديث مباشرة إلى وتحريك مئات الملايين من الفلاحين والعمال. ولكن كان لِـ ليو تشاو تشي اليد العليا تنظيمياً[1].

فعلى سبيل المثال، قام تيار ليو بحل ٣٠,٠٠٠ قرية تعاونية زراعية بضربة واحدة. ولكن حينما كانت تحدث أية حركة وتصل إلى درجة عالية ولا يمكن وقفها عن طريق عرقلة أقدامها، فإنهم يقفزون داخلها، نشطاء بكل طاقتهم، ويدفعون الأمور إلى أقصاها مما يجعلها مساوية إن لم تكن أكثر فوضوية من التخريب"[2].

يقول وليام هنتون: "... وسواء كان ذلك بوعي أم لا فقد كان هذا هو التوجه/ النموذج. حيث ظهر/ نهض خلال إصلاح الأرض – الإصلاح الزراعي – ع.س – كما شرحت في كتابي (**Fanshen, University of California Press, 1997**) هذا التيار بشكل ثأريّ خلال الحركة المضادة للتيار الأكثر يمينية عام ١٩٥٨. وبعد الأحداث الصادمة في هنغاريا/ المجر في أواخر الخمسينات، افترض/ قدَّر ماو أن هناك ٤,٠٠٠ يمينيين رجعيين بين المثقفين والأكاديميين في الصين. إن دينج هيساو بينج الذي أصبح لاحقاً الشخصية الأساسية في الصين، أخذ على عاتقه الإمساك بمشكلة اليمينيين وقام بتخريب هائل باستهداف ٥٠٠,٠٠٠! وبعد أن دعى ماو للإمساك بالسلطة من تحت، فإن كل شخص، وخاصة طرائقيوا رأس المال، شكَّلوا مجموعات دعم مضادة لدعوة ماو الإمساك بالسلطة من أسفل. وهو ما نتج عنه، عمل بلا مبدأ وغالباً عنف منفلت – لـ– الجميع، لم يعد بوسع أحد السيطرة عليه/ لجمه لا ماو ولا ليو تشاو تشي"[3].

تفتح الوقائع أعلاه على سؤال نثيره للعبرة وليس للتأكَّد: هل تأخر ماو في التقاط وجود وخطورة التيار اليميني في الحزب والدولة معتمداً على النضال الأسطوري للحزب بمعنى أن نضال الحزب هذا يحول دون اختراقه هكذا؟ أم هل استخف ماو بهذا

(1) Monthlyreview.org/2004/09/01/on-the-role-of-mao-zedong, By William Hinton September 1, 2004, On the Role of Mao Zedong.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

التيار، أم أن هذا التيار وجد حتى في الحزب العظيم تربة خصبة لرسملة الصين بعد ثورة الفلاحين والعمال؟

وبغض النظر عن الإجابة الأدق، فإن ماو كما يبدو وصل هذه القناعة متأخراً، ففي المؤتمر التاسع للحزب نيسان ١٩٦٩ كانت قد تمت عودة السلطوية للحكم وكانت مدعومة إلى حد كبير من الجيش (٤٥ بالمئة من اللجنة المركزية كانت بيد لين بياو).

كانت فترة الطريق العسكري قمعية بشكل كبير إذ قادت لعنف داخل الحزب وقد تم عزل لين بياو وربما اغتيل. وحتى رحيل ماو سادت فترة طويلة معقدة اتصفت بصراع مديد بين دينغ ومعه كثير من القيادات القديمة التي عادت للعمل تحت حماية شو ان لاي، مقابلهم مؤيدو ماو الذين أُطلقت عليهم تسمية "عصابة الأربعة" (ياو وينيوان) الممثلة للثورة الثقافية (ياو وين وان، تشانغ تشون تشياو، جيانج كينج – زوجة ماو – ووانغ هونغ ون).

وبعد وفاة ماو ١٩٧٦ اعتقل الأربعة وجاء بينغ الذي أسس للطريق الرأسمالي عبر حزب – دولة.

يرُدَّنا التفكير في الثورة الثقافية في الصين ١٩٦٥، وهي ثورة شبابية بالطبع إلى علاقة هامة لهذا الحدث الثوري المغبون بما هو المحفز لثورة الطلاب/ الشباب في أوروبا، ١٩٦٨.

قد يكون المعلم الأبرز في هذه الثورة أنها قِيْدت من رجل كان في قمة السلطة مدركاً بأن طرائقي الرأسمالية **Capitalist Roaders** لم ينتهوا في الصين وبأن الردة ممكنة وهذا الإدراك أمر مفصلي قلما يلاحظه ذي سلطان أي وهو في السلطة لا سيما وأنها فترة سادت حينها في معظم الحركة الشيوعية رطانة لغوية شعاراتية بأن الاشتراكية ترث الرأسمالية وبأن الاتحاد السوفييتي على طريق التحول للشيوعية ناهيك عن التنظير لطريق التطور اللارأسمالي وانتهاء الطبقية في الاتحاد السوفييتي... الخ. وهي الطروحات التي لم تتجاوز كونها مواقف إيمانية لم يلبث بريقها أن غاص في سقوط هائل بعد بضع سنوات[1].

(١) أنظر مراجعة عادل سمارة لكتاب خيانة الاشتراكية في القسم الثاني: انتصارات مهزومة، أوروبا الشرقية نصف ثورة نصف مضادة.

انطلقت الثورة الثقافية من داخل بنية الثورة والدولة الصينية في مواجهة بيروقراطية الدولة والحزب معاً. وإذا كان ماركس قد توقع فشل كميونة باريس نظراً لغياب الحد الأدنى من توازن القوى إضافة إلى ضبابية الوعي الطبقي السياسي العمالي لكوادر الكميونة، فإن توقعات فشل الثورة الثقافية في الصين كانت أقل بناء على الوعي الأعمق للقيادة من جهة وإدراك القيادة هذه أن العدو الطبقي مكشوف وواضح. ولكن يبدو بأن تقدير القوة لم يكن دقيقاً لدى ماو، أو أن قرار تحركه جاء متأخراً، ناهيك عن أن للجيش دور حاسم في قمع الثورة حيث كان تحت قيادة يمينية، وهو ما حصل. ربما كان تحرك ماو رغم مجافاة الظرف هو تحرك الواجب لتسجيل درس للتاريخ.

كان رأي ليو تشاو تشي أن المشكلة تنظيمية حيث أن القاعدة الشعبية (**Grass Roots**) للحزب الشيوعي الصيني فسدت وقد أصيبت بعناصر من خارجها... وأن كوادر الحزب في ريف الصين إما تمت رشوتها من ملاك الأرض السابقين أو فسدت بالأفكار الرأسمالية من حيث الراحة والمتعة والجشع. وعليه لا بد من اتخاذ خطى أو قرارات لكشف سوء الاستخدام. وأن هذه الإجراءات يجب أن يتم فرضها من القمة إلى القاع من قوى خارجية تنظيمياً لمسح كل عوامل الفساد.

بالمقابل، ورغم أهمية هذه التقديرات، كان لخط ماو تحليل آخر رأى أن المشكلة أيديولوجية داخل الحزب نفسه. أي بأن بنية الحزب هي السبب الرئيس من جهة، وبأن العوامل الخارجية ما كان لها أن تؤثر لو كانت البنية الحزبية معافاة ومتماسكة.

رأى ماو بأن أكثر كوادر المنظمات القاعدية إما بريئين أو يتبعون سياسات تأتيهم من الأعلى. وعليه، فإن الفساد وسوء الاستعمال هي مجرد أعراض لمشاكل أعمق في الأيديولوجيا، أيديولوجيا القيم والمعتقدات الرأسمالية. ولكي يتم تغيير الأيديولوجيا بشكل أساسي، لا بد من اتخاذ معايير لتصحيح تلك المشاكل في أوساط الحزب التي صنعت هذه السياسات.

بالنسبة لماو، فإن الإجراء التنظيمي العزل أو العقاب لهذا الكادر أو ذاك في المنظمات القاعدية لن يحل جذور المشكلة، وبأن الحل الأساسي يجب أن يأتي من تغيير المعتقدات والقيم وهذا يتطلب ثورة ثقافية. من هنا بدأت تتطور الثورة الثقافية.

إن ما ذكر أعلاه هو صورة أو إجمال لـ صراع خطين: خطان كلما نوقشت المشكلة تراهما يتباعدان أكثر، وبالتالي، وجد ماو أيضاً بأن عدم التعاطي مع المشكلة سيكون أخطر.

فقد جادل ماو بأن أكثرية الكوادر يجب أن لا تكون هدف الصراع، وأن إنزالاً بالبراشوت على كثير من الناس من الخارج كي تقود الصراع هو خطأ سياسي ومستحيل تقنياً: إنه خطأ سياسي لأنه يقوم على الاعتقاد بأن الناس المحليين لا يمكن الثقة بهم. وهو مستحيل فنياً، لأنه ما من سبيل أو طريقة يمكن بها إيجاد موارد يمكن تحريكها لحل هذا المشروع الواجب على مجموع البلاد.

تجدر الإشارة إلى أنه حينما حمل سكرتير ماو هاتين النقطتين إلى ليو، فإن ليو تشاو تشي عبس وصمت. فهو لم يكن متمسكاً جداً بتجربة تاو بوان، التي وافق عليها ماو مبدئياً لجعل تقرير وانغ جوانجميي وثيقة للتوزيع في الحزب الشيوعي الصيني كما كان ليو قد أوصى. وهكذا، فإنه كان قد غير رأيه وأمر بسحب التقرير. وحسب ما كتبه وانغ لي[1] كان ذلك لأن جيانغ كزنج كان قد قدم تقريراً عن حديث ليو في جولة العمل إلى ماو بقوله:

"إن ليو ينقدك وأنت لا تزال حياً، بينما قام خروتشوف بكتابة تقرير سري يشهر بستالين فقط بعد موته".

وعلى أية حال فإن وانغ لي قد اعترف بأنه قد فسر تغيير رأي ماو فقط بعد أن أخبره جيانغ كوينغ. واعترف كذلك بأن ماو غير رأيه بعد أن استشار قادة مقاطعات مثل كويفنج، وولانفو وايو زيهاو...

في سياق الصراع ضد الكوادر القاعدية قام ليو بإرسال ١٥,٠٠٠ شخص من

---

(1) Wang Li (2001), *Wang Li fansi lu, xia* (Reflections by Wang Li), Vol. 2, Hong Kong: Xianggang beixing chubanshe.
— (2006), 'Wang Li fansi lu' (Wang Li Reflections), extracts circulated on *Shijie Zhongguo*, http://www.coforum.org.cn/viewthread.php?itd=4912 Yang Shangkun (2001), *Yang Shangkun riji, xia* (Yang Shangkun diaries, Vol. 2, Beijing: zhongyang wenxian chubanshe. 3&extra=page%3D1, accessed on 19 June 2006.

خارج مقاطعة (كاونتي) كسنجهنج، التي سكانها الـ ٣٠٠,٠٠٠. فسأل ماو ليو: كيف يمكن إدارة المعركة ضد ماضي الصين؟[١]

حيث يتم تحريك موارد بشرية لتقوم بتثقيف اشتراكي في طول وعرض البلاد إذا كان هذا العديد من الناس لـ كاونتي واحدة؟. وعلى أي حال لم يكن الخلاف الرئيسي على كيفية تنفيذ التثقيف الإشتراكي كما قال يانغ شانجكون، في مذكراته[٢]. فالمشكلة الأساسية هي أن كل من ماو وليو له موقف مختلف تجاه ما يسمى الجماهير.

كانت وجهة نظر ماو بأن تثقيف الجماهير يجب أن لا يأتي من الخارج. يجب أن يتم على يد الجماهير نفسها محلياً وأن على الحزب أن يعتمد على الجماهير نفسها. إن الذين لطشوا بضعة مئات من الدولارات الصينية (بناء على إحصاءات في تقرير وانج جوانجميي، فإن معظم الكوادر المتهمة متهمين بسوء استعمال هذا المبلغ التافه من الفلوس)، لا يجب أن يُعتبروا أعداء طبقيين. طالما اعترفوا بأخطائهم وأعادوا الفلوس ويجب أن يسمح لهم بالعمل مجدداً. كانت فكرة ماو هي أن ذلك العدد الضئيل من القيادات العليا في أية منظمة يجب أن يكون الهدف للتثقيف الاشتراكي ويجب أن يتم التثقيف من قبل أعضاء تلك المنظمة[٣] هؤلاء طبقة جديدة وضعت الثورة في عين الخطر.

بنى ماو تفكيره على وجود خطر إعادة الصين إلى دولة رأسمالية لا يكمن في الجماهير العريضة في المنظمات القاعدية بل في قادة في الحزب الذين بوسعهم أخذ الصين إلى الطريق الرأسمالي، ومن هنا كان مصطلح "طرائقيوا الراسمالية" قد استخدم في الثورة الثقافية. ذلك لأن القيادات هي التي بيدها صلاحية اتخاذ القرار والتأثير على القواعد، وهذا ما حصل فعلاً حينما تمكن فريق دينغ من الإمساك بالسلطة.

---

(1) The Battle for China's Past Mao and the Cultural Revolution Mobo Gao Pluto Press 2008 London.

Yang Shangkun (2001), *Yang Shangkun riji, xia* (Yang Shangkun diaries, Vol.In Gao 2008, p.p.130-131, Beijing: zhongyang wenxian chubanshe.

(2) Yang Shangkun (2001), Yang Shangkun riji, xia (Yang Shangkun diaries, Vol. 2, in Gao 2008, p.p.130-13, Beijing: zhongyang wenxian chubanshe.

(3) Gao 2008, p.p. 130-131.

لعل الدرس المستفاد من التجربة الصينية هو من شقين يؤكدان صوابية رؤية ماو:

- إن ممارسة وانتصار الثورة الصينية كان بالقوة الشعبية أي من الأسفل.
- وبأن الانحراف بالبلد والثورة أتى سلطوياً وبيروقراطياً من الأعلى. وربما ينطبق هذا على الكثير من حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار وما آلت إليه من التقاط قيادات في الأعلى لمفاصل السلطة والعودة إلى استدعاء الاستعمار بطرق وأشكال شتى أخطرها التبلور في رأسمالية بيروقراطية وكمبرادورية وطفيلية.

في الصراع إبان الثورة الثقافية لا بد من التفريق بين الثوار وبين الحرس الأحمر، فالثوار مدعومون من ماو بهدف محدد هو استهداف "طرائقيوا الراسمالية **Capitalist Roaders**"، بينما الفريق الثاني يتبع عملياً أيديولوجيي الخط السياسي لـ البيروقراط[1].

اختلاف الآراء في الثورة الثقافية

كما أشرنا أعلاه، فإنه بقدر وجود توافق عالٍ في تقييم الكميونة، ظل التفارق شديداً تجاه الثورة الثقافية، يتراوح بين اعتبارها حالةً ثورية مميزة وبين وصفها بحالة إرهابية. وبغض النظر عن تشابه وتقاطع تناقض الحالات التالية، فإنها تشترك مع الثورة الثقافية في الاختلاف عليها، وهي ستالين، ماو، ناصر، صدام، بشار، القذافي، حسن نصر الله... الخ.

لكن هذا يفتح على مسألة هامة أخرى، وهي أن الخطاب الغربي الرأسمالي والإعلام كذلك ضالعين في شيطنة الثورات والشخصيات الثورية والوطنية بل أي شخصية أو نظام يرفض أن يكون عميلاً لها بينما تغطي على عملائها بعبارة حليف[2].

---

(1) Gao 2008, p.132.

(٢) كان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الأول (من نوعه) الذي رفع الغطاء الشكلي عن الأنظمة العميلة بقوله عن أنظمة الخليج العربي بأن هذه الأنظمة لا تعيش أسبوعاً دون حمايتنا.

وبالمقابل، قلما نجد نقداً جذرياً، ولا حتى سطحياً لقيادات الثورة المضادة الغربية وهم مجرمون قتلوا عشرات بل مئات الملايين، مثلاً، أيزنهاور، وديغول، وتشرشل، وبوش الأب والإبن، وبلير، وأوباما، وتاتشر، وترامب، وكيسنجر، وبيجن، ورابين، ونتنياهو ومعظم الحكام العرب وخاصة بن سلمان ولي العهد السعودي واليوم ترامب/ و... الخ. وهذا يعود إلى ضعف ودونية في خطاب القوى الثورية التي لم ترتفع بعد لصياغة مواقف نقدية حقيقية من عدوها والقيام بالتثقيف المتواصل ضد الثورة المضادة.

في مسألة الثورة الثقافية، كان هناك تقارب في وجهات النظر حول وجود خلل ما في الحزب، ولكن كانت المعالجة مختلفة:

كانت رؤية ماو:

"... رغم أن العمال والمثقفين الشباب ثاروا ضد الحزب، فقد فشلت ثورتهم في تغيير الحزب نفسه، وحتى حين سُئلوا أين، في أي موقع كانت البرجوازية موجودة في بلد اشتراكي، أجاب ماو: نعم صحيح هي موجودة في الحزب الشيوعي نفسه حيث وجدت مكاناً مريحاً للاختباء داخل الحزب والوسائل المناسبة لتغطية سلطتها الجديدة".

لا شك أن هذا الوضوح كان تحدياً شديداً لطرائقيي الرأسمالية. ويبدو أنهم عملوا كثيراً على تقوية مواقعهم كي ينقضّوا على الثورة والبلد، وهذا ما حصل. وتلك حقيقة نراها اليوم في الصين، فالبرجوازية "اليسارية" تمعن باتجاه التراكم الأولي لرأس المال كما بدأت أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر ومع ذلك تزيد بالتوازي مع التوجه الرأسمالي رفع عقيرتها بالحديث عن الشيوعية.

فيما استخلصه ماو قوله: "أن الشعب، والشعب وحده، هو القوة الفاعلة في صياغة تاريخ العالم، بينما كنا نحن أنفسنا غالباً صبية أو جهلة"[1]. ولذا كانت مقولته الشهيرة: "أثبتت الحرب الفيتنامية مع أو ضد الإمبريالية حتى وهي تملك السلاح النووي بأنها نمر من ورق".

(1) Gao, 2008, p. 54.

إثـر فشـل القفـزة الكـبرى للأمـام، أصـبح مـاو في الأقليـة في الحـزب أمـام البراجماتيين حيث أصبح ليو تشاو شي رئيساً، ودينـغ أمـين عـام الحـزب، وبينـج زهـين رئيس بلدية بكين. حاول ماو عام ١٩٦٣ قيادة هجوم مضاد لكنـه فشـل أمـام سـلطات الحزب النظامية. حينها حاول تحريك قوى غريبة عـن الحـزب سـواء خارجيـة (طـلاب الحرس الأحمر) أو خارجية داخلية وخاصة الجيش الذي اسـتعاد قيادتـه بعـد عـزل بمـغ دهواي واستبداله بـ لين بياو. ولكـن القـوى الإصـلاحية كانـت قـد تجـذّرت في مواقـع السلطة الرئيسية. ومما أفقد ماو السيطرة هي محـاولات الطـرف الآخـر وضـع الـبلاد في حالة من الفوضى لإعاقة تموضع ماو وذلك على النحو التالي:

١. لا استقرار، فلم يعد ممكنـا في ظـل حـزب – دولـة تطبيـق الأفكـار الحـرة الخلاقـة للطلبـة والجمـاهير العاملـة بـين ١٩٦٦-١٩٦٨. ولا السـيطرة الأيديولوجية مقابل تحكم الجيش بالسلطة بين ١٩٦٨-١٩٧١. ولا الحلول بالمواجهـة بـين الاتجاهـات المتناقضـة ١٩٧٢-١٩٧٦. لم تسـمح هـذه التطورات للأفكار الثورية أن تغرس جـذورها. وعليـه فـإن حالـة سياسـية جديدة منفصلة تماماً عن الموديـل السـوفييتي لا يمكـن أن تـرى النـور علـى صعيد المجتمع ككل.

٢. فيما يخص قوى خارج الحزب كان لا بد من تحطيم الشكلانية البيروقراطيـة على الأقل لاستمرار الحراك الشعبي.

٣. الصراع على السلطة: إنه من المقرف رفض الصراع علـى السـلطة والثـورة طالما بالثورة فقط يمكننا فهم التمفصل بين القوى السياسية المتناقضـة علـى مسألة السلطة.

٤. القفزة الكبرى للأمـام: كانـت فشـلاً مـراً. لكنهـا كانـت امتحانـاً للعقيـدة الاقتصادية لستالين، لمفهوم ستالين للتجميع وإهمال للفلاحين. ولكن هـذا قابـلٌ للنقـاش بمعنـى أن الحالـة السـوفييتية ربمـا كانـت تقتضـي التجميـع القسري لأن البلد كانت أمام تحديات الوجود.

كان موقف ماو لا للتجميع بالقوة والعنف من أجل تراكم بأية كلفة في المدن. بل تصنيع الريف محلياً لإعطائه استقلالاً اقتصادياً ذاتياً لتلافي البرتلة المتوحشة وتلافي تجربة السوفييت للتركيز على المدينة التي اتخذت شكلاً كارثياً في الاتحاد السوفييتي. اتخذ ماو الحل الفعّال في العلاقة بين الريف والمدينة وليس التدمير العنيف للريف لصالح المدينة.

أدنى وأخبث مستوى

سيجد القارىء في التالي مفاجأة تبين إلى أي حد من الكذب واستهبال القراء يصل الإعلام والأكاديميا الغربية الرأسمالية في عدائها وحقدها على الفكر والنضال الشيوعيين، وخاصة في حالة الصين الشعبية في فترة ماو.

في برنامج قصير بمناسبة مئوية ماوتسي تونغ، بثت قناة بي.بي.سي البريطانية، صاحبة السمعة المهولة، برنامجاً وضيعاً صورت ماو على أنه وحش رهيب، وليس فقط؛ بل وحش عربيد يمارس العربدة الجنسية مع فتيات صغيرات. إلى هذا المستوى من الحقد والكراهية هبطت هذه القناة[1].

يقول كاتب آخر ضد الصين:

"... أرسى اليابانيون في عدوانهم على الصين الإرهاب والحرب ضد الفلاحين خاصة واستمر التأثير حتى منتصف السبعينات... لدى كثير من الصينيين فإن الحرب والماوية كانتا مثابة عاصفة تامة... لقد مات أكثر من اثنين وعشرين مليوناً وهناك عدد لا يحصى ممن دمرت حياتهم"[2].

لك أن تلاحظ الخبث الهائل في هذه الفقرة التي تساوي بين الماوية التي هزمت الاحتلال الياباني وأقامت أضخم دولة اشتراكية، وبين العدو الياباني الاستعماري،

(1) By William Hinton September 1, 2004, On the Role of Mao Zedong monthlyreview.org/2004/09/01/on-the-role-of-mao-zedong.
(2) Westad Odd, Restless Empire China and the World Since 1750, the Bodley Head London, 2012, p.15.

وهذا هبوط أخلاقي رهيب يضع به الكاتب نفسه في موضع رجل المخابرات وليس الأكاديمي!

طبعاً يتسابق الليبراليون الغربيون وغير الغربيين على المبالغة في عدد ضحايا الصراع الطبقي[١] في الصين وذلك بنَسْب سقوط الضحايا إلى معسكر الثورة، أنظر تقديرات عدد الضحايا المبالغ بها لاحقاً.

ويتبين من المقتطف التالي مدى المبالغة التي تستخف بعقول البشر:

"... مثلاً عام ١٩٥٨ أُرسلت فتاة ابنة سبع عشرة عاماً إلى مخيمات العمل لأنها قالت لصديق بأن "دهان الأحذية الأمريكي جيد فعلاً". وكانت التهمة ضدها أنها مبهورة ولديها إيمان أعمى في أشياء الإمبريالية"[٢].

وبالمناسبة، هذا منقول عن أطروحة دكتوراة لطالب صيني في جامعة كولومبيا البريطانية!!![٣]

يستدعي هذا أطروحة طالب بريطاني أيضاً الذي زعم أن لدى العراق في عهد صدام حسين سلاح نووي وتم اعتماد تلك الأطروحة لغزو العراق وتدميره! ليتضح أن ذلك كان كذباً. أو ما لفَّقه سفير الكويت في الأمم المتحدة بأن الجنود العراقيين حينما حرروا الكويت كانوا ينزعون أنابيب الأكسجين عن الأطفال الخُدَّج في الحاضنات. أما العبرة فهي أنه حتى الأكاديميا الغربية موظفة لصالح رأس المال والشركات وأجهزة المخابرات. فمتى يتعظ مروجو "ديمقراطية" الجنة الغربية وخاصة ما تسمى "الموضوعية"؟

يضيف الكاتب إياه: "... بعض المستشارين السوفييت لاحظوا أنها مخيفة "أي الثورة الثقافية – ع.س" فحينما كانت موسكو تغادر نمط الإرهاب الستاليني كانت تبدو الصين متجهة إليه" ص٣٢٣ ... ظهرت أكوامٌ من الجثث، بنفس الطريقة التي قام بها ستالين وهتلر في الماضي وما سيقوم به بول بوت في المستقبل"[٤].

---

(1) Westad Odd, Restless Empire China and the World Since 1750, the Bodley Head London, 2012, p.15.
(2) Ibid, p.15.
(3) Ibid, p.15.
(4) Ibid, p.334.

لا يسعك سوى الاستنتاج بـأن هـذا الكاتـب يشـتغل بشـكل منهجـي لتشـويه الشيوعية، حيث يمتـدح التحريـف الـذي بـدأه خروتشـوف نحـو ردة يمينيـة ويتـورط في الهجمة الغربية الرأسمالية ضد ستالين ويوازيه بـ هتلر:

وفي شبق للكاتب ضـد فـك الارتبـاط بالنظـام الرأسمـالي اللصوصـي العـالمي كتب:

"... في آب ١٩٦٣ وقعت الصين اتفاقيـة عـدم إجـراء تجـارب نوويـة في خطـوة لتخفيف حرارة الحرب الباردة. لكن ماو لم يفعل. بل في أكتوبر ١٩٦٤ أخذ بـلاده بعيـداً عن التفاعل مع معظم العالم مع إنجازها صناعة قنبلة نووية. وحيث صارت لديها حيـازة النووي إلى جانب الأمن كما يعتقد ماو، بدأ ماو يتحدث في نهاية العام بشكل مبهم عـن أعداء الثورة "طرائقيوا رأس المال" داخل الحزب الشيوعي الصيني[١].

بعد أن يزعم الكاتب أن الثورة الثقافية قتلت أقـل مـن الوثبـة الكـبرى للأمـام وأثّرت على الاقتصاد أقل، ولكن فيمـا يخـص حيـاة النـاس اليوميـة "فيـزعم الكاتـب – ع.س" أن الثورة الثقافية حوّلت حياتهم إلى دمار وبلا معنى فقد كانت أسـوأ... إنهـا، أي الثورة الثقافية، هي المحاولة الأخيرة من ماو كي يعزل الصين ويؤبِّد ثورته"[٢].

لا غرابة في تركيز الكاتب هجوماً مطلقاً ضد الثورة الثقافيـة، ولا غرابـة أنـه لا يعتبر مئات ملايين الضحايا نتيجة حروب الاسـتعمار الرأسمـالي الأوروبـي والحـروب البينية بين الأوروبيين وخاصة الغربيين، بل هو كغيره ربما يعتبر تلـك الحـروب رافعـات لتطوير الشعوب "الهمجية". أما قوله بأن ماو عزل الصين، فذلك استخفاف منه آخر بعقـل القراء. فالكاتب يُغفل الإستراتيجية التنموية الضرورية والناجعة لبلدان المحيط وهي فـك الارتباط **De-linking** عن السوق العالمية كي لا يستمر نزيف الفـائض للخـارج فتعجـز التنمية الذاتية. هذا الموقف من الكاتب، إمـا نـاجم عـن جهـل منـه بهـذه الإسـتراتيجية الثورية، أو أن موقفه هو نفس موقف أيديولوجيي السوق الحرة وتحرير التجـارة الدوليـة لهتك أية حماية من بلد لاقتصاده، وهذا موقف أكثر رداءة وتوحشاً.

---

(1) Westad Odd, Restless Empire China and the World Since 1750, the Bodley Head London, 2012, p.345.
(2) Ibid, p.245.

ولكي يكتمل الخبث، لا بد للكاتب من "دحش" اليهود في الصورة في تقديم لفريضة الولاء للصهيونية:

"... يُذكر عن شخص يهودي بولندي اسمه اسرائيل ايبستين ورئيسه سيدني ريتنبرغ أنهما أسَّسا فرقة حرس أحمر ومع ذلك تم تخفيض وضعهما ولاحقاً حوكم ايبستين بالسجن خمس سنوات وريتنبرغ عشر سنوات. ثم يقول الكاتب: "لقد أظهر روتنبرغ مختلف الكفاءات التي تعودنا عليها في يهودي"[1].

في هذا المقتطف، يدهشك أن أي كاتب ملتزم بأيديولوجيا الليبرالية والليبرالية الجديدة وإعلام رأس المال يجب أن يُبرز يهوداً بشكل مقصود وبطريقة تعسفية أي بـ "الدحش". فلا بد أن يبين أن اليهودي أفضل ثوري وأكثر من يتم ظلمه. لا يسعك هنا أن لا تتوقع علاقة ما، رشوة ما، للكاتب من الصهيونية، فأموالها هائلة.

هذا إلى أن يُطال ماوتسي تونغ التشويه على حساب زوجته: "... قوضت الصين العلاقة بموسكو لأسباب وطنية فقط وكانت الثورة الثقافية نتيجة لسوء فهم إلى جانب الطموح الأرعن لإمرأة، زوجة ماو جيانغ كينج"[2].

وقاحة مضحكة!. فالخلاف الصيني السوفييتي هو مسألة فكرية نظرية نضالية بين الاتجاهين الصيني والسوفييتي بغض النظر عن أيهما الأدق والأصح. لكن الكاتب يحاول غمط الخلاف النظري بتمويهه على أنه مسألة قومية.

والمفارقة في اصطفاف اليسار إلى جانب الرأسمالية في تشويه الثورة الثقافية وتصنيفها كخطر وخلل تورط فيها ماو تسي تونغ:

"... تمت مختلف حركات التصحيح أحياناً بشكل شامل وأحياناً أخرى بشكل جزئي كما هو حال الثورة الثقافية التي حصلت كنمط سلطوي وذلك بإشراك أو عدم

---

(١) ص ص٣٥٥-٣٥٦ من الكتاب، نقلاً عن:

Anne-Mariie Brady, "Red and Expert : China's 'Foreign Friends' in the Great Proletarian Cultural Revolution, 1966-1969, " in China's Great Proletarian Cultural Revolution : Master Narratives and Post-Mao Counternarratives, ed. Woei Lien Chong (Lanham.MD: Rowman & Littlefield, 2002),p. 121.

(2) Westad Odd, Restless Empire China and the World Since 1750, p.416.

إشراك جماهيري. إن كل حملة تصحيح هي مثابة تطهير كلي وحملة تعليم إجبارية. وفي الحقيقة تبدو الثورة الثقافية من زاوية واحدة كأمر مزعج مثير وكحركة تنوع جماهيري، ولكن من؟ إن لم يكن الرئيس قد تبنّى خدمة هذه الجماهير، وهو الذي أرسلهم إلى بيوتهم"[1].

عمر أقصر مما نُسب لها:

يرى جاو: "... أن الثورة الثقافية الحقيقية هي فقط في الفترة ما بين ١٩٦٥-١٩٦٨. بل حتى من أيار ١٩٦٧ إلى أيلول ١٩٦٧ حيث النشاط السياسي للجماهير، شعاراتها، منظماتها الجديدة، ومواقعها. كانت هناك ثورة حيث كان هناك حرس أحمر، الثوار، العمال الثوريون، منظمات متعددة، قيادة عامة، ظروف غير متوقعة، تصريحات سياسية جديدة، نصوص لا سابق لها"[2].

هذه النشاطات الميدانية تشبه بعد مئة عام النشاط العفوي البرِّي للكميونة حيث النشاط الحر الذي يؤسس للديمقراطية الشعبية الحقة.

من هنا، كان توجه ماو بأن: "اختلاف المواقف لا يحل بالعنف ولا بالشكلانية الرسمية البيروقراطية، ولكن بالحراك السياسي الشعبي الجماعي. وأنه لحل الخلاف ولضبط سيطرة المراتب العليا في الدولة والحزب، لا بد من تحرك غير مقود/ مُقيَّد من الثورة والتنظيم".

وبعد تردد طويل هو ومن معه قرروا ممارسة ذلك بدءاً بالطلبة الجامعيين والعمال.

ولكن في خطوة مناقضة حاولوا أن يجمعوا معاً مختلف الإبداعات التنظيمية للثورة في فضاء عام للحزب – الدولة إلى أن توصل هو ومؤيدوه إلى أن البرجوازية أعادت تشكيل نفسها وتنظَّمت داخل الحزب الشيوعي نفسه، وهو ما أفقد ماو

(1) Gilbert Pauol, China 1974 Problems and Models, New Left review, no. 89 January-February 1975, p.80.
(2) Gao 2008, p. 85.

القدرة على تحريك الحزب. وربما كان هذا ما أوصل آلان باديو إلى قناعة تجاوز الحزب ولكن دون أن يقدم رؤية عملية تتجاوز الحزب نحو الثورة المتواصلة التي لم يحدد أداتها بل أدائها في التحول المتواصل. وكما يبدو رأى أنها إن هدأت... ماتت!

تدرُّج الانخراط والتصعيد في الثورة:

ارتكازاً على التحول الشعبي السلمي، كان هدف ماو في البدء الاكتفاء بطلبة الجامعات والمؤسسات التعليمية. لكن في آب ١٩٦٦ انتشر الحراس الحمر في المدن ثم كانت محاولة احتواء الثورة في الشباب في المدارس والجامعات. ولكن مع نهاية ١٩٦٧ وما بعدها أصبح العمال قوة أساسية في الحراك. نلاحظ التشابه في تدرج الانخراط في ثورة الطلاب في فرنسا ١٩٦٨ خاصة بعد بضع سنوات، دخول العمال جاء بعد الطلاب وغيّر المشهد. في الحالتين قيادات النقابات خانت العمال بسبب رشوة وفساد قيادات نقابية وكذلك الاتجاه الاقتصادوي. كما أن كثيراً من المثقفين في الحالتين وقفوا ضد الثورة!!

أما الحزب، سواء الحاكم في الصين، أو المعارض في فرنسا، فإما تخلى عن أو خذل، أو لم يرتقِ للدور المطلوب، أو وقف ضد الثورة!.

حينها بدأ ماو البحث في إمكانية إبقاء الجيش والدولة بعيدين عن الحراك، لكنهما أصبحا فيها عام ١٩٦٧، ثم صار الهدف بقاء الجيش كملاذ أخير، لكن انتشار العنف في وهان وكانتون ١٩٦٧ في آب ١٩٦٧ حال دون ذلك. أما العامل الذي أسس لعدم دخول الجيش في الحراك الثوري فلأن قيادته لم تكن بيد فريق ماو.

كان هدف ماو استبدال الحزب بحزب الدماء الجديدة، لذا ركَّز على أن تلك المنظمات الشعبية ليست مؤقتة بل دائمة، أي استبدال أو ربما موازاة الحزب الذي تبقرط بحزب بلا بيروقراطية أي الوصول إلى الانتخاب الشعبي الحر بدل الحزب الذي أصبح مفروض بيروقراطياً على الشعب. ذلك لأن النص الحزبي يمنع حرية النقد فلا بد من تجاوز هذا التقييد.

فبموجب النص الحزبي: "إن نقد أي شخص بالاسم في الصحافة يجب أن يقرر بعد نقاش من لجنة الحزب على نفس المستوى وفي بعض الحالات يقدم للجنة الحزب في المستوى الأعلى كي يُوافق عليه"[1].

مضمون هذا النص واضح بأنه يضع النقد في عمليات تنقية وتدقيق وتشغيل جهاز رقابي هائل في بلد كالصين مما يعني أنه حتى نشر النقد المصرَّح به سوف يبهت أو يموت بسبب طول المدة إلى أن يتسنى له النشر! وفي النهاية ربما يحصل تدجين بيروقراطي. وإذا كان هذا النص قد دفع ماو لتجاوزه، فليس من الواضح إن كان هذا النص قد وُضع أساساً / سابقاً بقبول ماو نفسه.

بدايات الثورة وصراع القوى:

بدعم من كوادر يؤيدون ماو منذ وقت طويل وجزء من الجيش تم تطهير البلدية في شنغهاي واللجنة الحزبية للحزب. وهو ما يسمى القبض على السلطة تحت اسم كميونة شنغهاي والتي تمثل نقطة تحول في الثورة الثقافية، وأعلنوا مواصلة نفس النهج وطبعاً تمت إهانة القيادات البيروقراطية بالركل وأسوأ من ذلك كما كتب جاو.

تجدر الإشارة إلى أن كل طرف كان يعمل لتمتين معسكره، فقد نجح الطرائقيون **Capitalist Roaders** بقيادة شو ان لاي في إعادة دينغ للقيادة وهو أيضاً من اتخذ الطريق الرأسمالي وأصبح الأمين العام بعد ماو.

ومقابل أحداث شنغهاي، قامت الكوادر المحافظة بتحرك بدأته في الأرياف بتحريك ميليشيا من مناطق ريفية للمشاركة في قمع الحراس الحمر والثوار مما يعتبر نقطة تحول عام ١٩٦٨. وبموجب إعادة هيكلة الحزب على يد اللجنة المركزية باكراً منذ ١٩٦١ أن أصبح ليو تشاو تشي رئيساً للدولة بدل ماو. وليس واضحاً بالطبع إن كان ماو قد اختار قيادة الحزب، ومن ثم إن كان قد تمكن من محاصرة الطرائقيين داخل الحزب وهو الأمر الذي أقر بفشله فيه لاحقاً. ويبدو، أن قوة الحزب وتأثيره له معنى

(1) Badiou Alain, The Communist Hypothesis, Verso, 2015, p. 95.

وفاعلية خلال الثورة أقوى من فاعليته في ظل الدولة ولاسيما إذا كانت السلطة في الدولة موضوع تنافس بين خطين.

هنا نلاحظ التقاطع بين قيام البرجوازية في فرنسا بتحريض الفلاحين ضد الكميونة، فقد قام الفلاحون في ليون بمشاركة ثورية في فترة الكميونة، وبدأ الطرائقيون بتحريك الريف ضد شنغهاي. هذا مع العلم أن الفلاحين كانوا عماد الثورة ومن ثم الانتصار والاستقلال!.

في ٢٠ آب ١٩٦٨ قامت ما تسمى قوات الصدمة والمكونة من "مليون من الأبطال" مدعومة من وحدات من الجيش باحتلال النقاط الإستراتيجية في ووهان وشنّ هجمة "صيد الساحرة" الثوار في المدينة.

قبضت مجموعة من الجيش على وانج لي ومعه عدد قليل من الحرس الأحمر وضربتهم بقسوة.

تم اعتقال اللجنة الثورية ولكن بعض الجنود مكّنوا وانج لي من الهرب عبر الأشجار.

تبين هذه التطورات أن الكفة رجحت لصالح الطرائقيين باكراً بغض النظر عن تأخر هزيمة الثوار. ومع بداية ١٩٦٩ كانت سلطة لين بياو والجيش قد تمكّنت.

توصل ماو إلى قناعة أنه منذ الاستيلاء على شنغهاي فإن أيديولوجيا البرجوازية والبرجوازية الصغيرة المنحرفة قد تفشّت بين المثقفين والطلبة وخرّبت الوضع.

كان لعبارة ماو "إن البرجوازية موجودة داخل الحزب الشيوعي" مدلولها النقدي والتحريضي ضد الطرائقيين، وهو ما حفز شجع الثوار الذين وزعوا شعار "من حقك أن تثور".

مقولة ماو هذه: "إن البرجوازية داخل الحزب الشيوعي" هي التي لم يتوقف تأثر باديو بها حتى الآن بقوله: "... نعلم أن مختلف السياسات التحررية يجب أن تضع حداً

لموديل الحزب أو العدة أحزاب، من أجل تأكيد سياسات "بدون حزب" ولكن في نفس الوقت دون التورط في الفوضوية"[1].

هي مقولة جميلة ثورياً، ملهمة وشاحنة، ولكن كيف يمكن للتحرر أن يتمكن من تصميم معادلة تتجاوز الحزبية، الدارجة على الأقل، من جهة، وتتوقف على حافة أو عند عتبة الفوضوية؟ فاتخاذ موقف متماسك بين حدَّيْ البيروقراطية والفوضوية يراه لينين في الحزب الشيوعي الذي يؤكد المركزية الديمقراطية والنقد والنقد الذاتي، ويراه ماركس في "إن سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح". لكن باديو يؤكد وجوب مغادرة الحزبية على الطريقة اللينينية.

هذا ما عبَّر عنه ماو على النحو التالي: "لا يمكن ترك الحركة الشيوعية لجهاز الدولة فمن الضروري للمنظمات الجماهيرية المستقلة وحتى المنظمات الشعبية أن تنفصل عن الحزب، أن تخلق ضمن دينامية التاريخ، حتى لو اقتضى الأمر، الانتفاضة". وهذا ما عمل ماو في النهاية على تنفيذه. وعليه يترتب السؤال:

هل أخفق في إبداع طريقة تتجاوز الدولة/ السلطة والحزب؟ أم أن الظرف الموضوعي ثورياً لم يكن ناضجاً لحمل التجربة الجديدة؟ هل لم تكن مكتملة؟

ومن جهة ثانية، هل قدم باديو تطويراً نظرياً لأطروحة ماو وثورته الثانية أي الثورة الثقافية؟

هل كان ماو، مأخوذاً بمقولة إنجلز "العنف قابلة التاريخ". وهل تمكن من ضبط العنف الثوري في الثورة الثقافية؟ أم أن عنف الطرائقيين قد قطع الطريق عليه؟

كان ماو متردداً أثناء الثورة الثقافية، حيث فكر بأن الكوادر ربما يغيرون موقفهم على ضوء تحريك الجماهير.

لقد تم الصفح والتسامح مع أعداء الحزب الشيوعي أمثال ملاك الأرض والرأسماليين والرسميين القوميين والضباط، ولكن الثوار بقوا يُعاملون كأعداء

(1) Badiou Alain, The Communist Hypothesis, Verso, 2015, p.117.

للإنسانية. وهذا يطرح السؤال عن مدى كون الديمقراطية ضمانة حقيقية للحرية. لذا يجادل باديو بأن الديمقراطية هي تنظيم سلطة الهيمنة المسيطرة. هي عملية تشريع أو تأسيس السيطرة. لذا يرى باديو، أن مأساة المسيحية حصلت حينما أصبحت دين دولة.

ليست الديمقراطية ضمانة للحرية وهي بطبيعتها لا ترقى إلى هذه الدرجة من الضمان. هي آلية ضبط علاقة بين السلطة والرعية وبين الذكر والأنثى وداخل الأسرة. ومن هنا، فإن من بيده السلطة هو أكثر من ينتهك الديمقراطية وأكثر من يزعم التعلق بها.

الغرب وشيطنة الثورة الثقافية:

إضافة لما طرحناه أعلاه، لم يغب الغرب الرأسمالي عن تطورات الصين كعدو لها، بل كانت المهمة الأساسية للإمبريالية منذ الثورة البلشفية هي تهديم الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية، ولا ينفي هذه القاعدة الأساس، بل يؤكدها، ذلك العدوان الغربي الرأسمالي على العديد من بلدان العالم التي لم تنخُ تحت عباءة هذا الغرب. ولو كانت الحرب على هذين النظامين أقل كلفة لما ترددت الإمبريالية لا حينها ولا حتى اليوم بعد الاشتراكية. أما الثورة الثقافية فكان دور الغرب مركزياً/ قيادياً في شيطنتها. تضمن ذلك اتهام الثورة الثقافية بالدعوة لتدمير الأربعة القديمة: الأفكار القديمة، والعادات القديمة، والثقافة القديمة، والمسلكيات والعادات القديمة. وهي مزاعم تنفيها مسيرة الثورة الصينية التي قادها ماو والرفاق والحزب ارتكازاً على الفلاحين وقومية الطبقات الشعبية، وهما ركيزتان تنطلقان من الأربعة القديمة نفسها ولكن لا تتبنى الجوانب الغيبية والرجعية فيها.

لكن ما يخفيه الغرب أن الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو رفع متوسط العمر في الصين من ٣٥ عاماً سنة الاستقلال ١٩٤٩ إلى ٦٣ عاماً سنة ١٩٧٥ وحقق مساواة المرأة بالرجل ونقل المرأة إلى فضاء التحرر بأبعد من المساواة وجعل الصين دولة عظمى، وحقق الإصلاح الزراعي ونقل التعليم من كونه فاسداً لصالح الطبقات العدوة: ملاك

الأرض، والفلاحون الأغنياء، والمضادين للثورة. كل هذا رغم الانخراط في حربي مقاومة معاً:

- العدوان الغربي كثورة مضادة.
- ومواجهة الثورة المضادة داخل البلد.

يرى باديو أن الثورة الثقافية كانت محاولة، حتى لو فشلت في خلق ذاتوية جديدة. لماذا تم النظر إلى الثورة الثقافية على أنها فقط عنيفة وتدميرية؟ إن منطق دفن الثورة يتطلب رواية تركز على المستوى العنيف والتدميري للثورات الشعبية. وكما أشار وانغ شاوجوانج[1] فإن الأدبيات الحالية تركز على الجزء التدميري للثورة الثقافية بينما تعير انتباهاً قليلاً لجزئها البنائي. فقد حصل التدمير غالباً في بداية الثورة الثقافية في سنوات ١٩٦٦-١٩٦٧ وإلى حد ما عام ١٩٦٨، بينما فترة البناء امتدت من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٦. يشترط منطق وأد الثورة رواية تنكر السمات البنائية للثورات الشعبوية[2].

الصين بعد هزيمة الثورة الثقافية ورحيل ماو... طابورها السادس الثقافي:

يسود في الوطن العربي وهم وضيع قائم على استدخال الهزيمة الذي تنشره الثورة المضادة وأدواتها العربية بأن مساوىء العرب فريدة من نوعها ومحصورة في العرب حتى كـ "عرق". وضمن استدخال الهزيمة هناك تيار أسميته الطابور السادس الثقافي، وهو ظاهرة عالمية، لا عربية فقط، تيار هو مثابة المثقف التقليدي/ العضوي للثورة المضادة يقابله المثقف الثوري النقدي العضوي المشتبك.

قال البروفيسور جياو جو بياو من جامعة بيجين: "كم كان حظاً نكداً أن الولايات المتحدة في الحرب الكورية لم تواصل زحفها إلى بيجين لتحتل الصين. وأقسَمَ

(1) Wang Shaoguang (2006), 'Comments' at the 'Is a History of the Cultural Revolution Possible?' workshop with Professor Allan Badiou, Washington University, Seattle, 22–26 January, in Gao, p. 208.

(2) The Communist Hypothesis 2015 ibid, p. 96.

أنه لو كان في السلطة لحول الصين إلى الولاية ٥١. وحينما غزت الولايات المتحدة العراق ٢٠٠٣، كتب جياو قصيدة ونشرها في الإعلام وقال فيها أنه لو دُعي إلى الجيش الأمريكي لن يتردد لحظة. وهو يرغب أن يكون في بقية حياته جندياً في الجيش الأمريكي[1]. (أنظر لاحقاً الخطاب المشابه للمرتدين من الفلاسفة الجدد في فرنسا بعد أيار ٦٨).

أوردت هذا المقتطف للإضاءة على أين وصلت الصين بعد هزيمة الثورة الثقافية ورحيل ماو وهزيمة تياره. فالصين التي وقفت داعمة كوريا الديمقراطية وفيتنام ما كان ممكناً أن ينبت فيها نبت مشبوه ككاتب المقتطف أعلاه، أي خائناً للثورة ومُهيناً لوطنه. هذا ناهيك طبعاً عن التوجه الرأسمالي بعد ماو وخاصة في حل الكميونات الفلاحية إلى جانب تحويل الصين إلى ورشة للصناعات الغربية من أجل إنجاز مرحلة التراكم الأولي.

يطلقون على هذا التيار تيار: "كل ما تفعله الصين خطأ وكل ما تفعله الولايات المتحدة صحيحاً". وهذا شبيه بما يثرثر به مستدخلو الهزيمة العرب بأن العرب أمة لا فائدة منها، ومشابه لما اقتطفناه أعلاه عن الزعم بنفي فتاة لأنها قالت أن صباغ الأحذية الأمريكي جيداً. تخيلوا أي حد يصل مثقفوه في الوضاعة. بماذا يختلف هذا عن برهان غليون، وفواز طرابلسي، ومارسيل خليفة وسلامة كيله الذين خدموا العدوان على وطنهم سوريا. وليس أقل منهم وضاعة وخسة التروتسكي محمد جعفر (وهو: كنعان مكية، وسمير الخليل) وفالح عبد الجبار، وحميد مجيد... الخ من العراق الذين قضوا ردحاً من الزمن يقولون لـ جورج بوش وجورج دبليو بوش "... هيت لك" لاغتصاب العراق. إنه مرض البحث عن التميُّز الفردي وكره الذات ولو بإكليل من العار!.

---

(1) Xiao Ling (2005), 'Wangguo lunzhe: cong Jiao Guobiao dao Hu Shi' (These who want China to be finished: from Jiao Guobiao to Hu Shi), Fenghua yuan, http://www.fhy.net/11 December 2005, accessed on 27 January 2006.

هكذا يكون مصير قِصار الـنَفَسْ. يبـدؤون ثـوريين ويتخيلـون أن النصـر قـاب قوسين أو أدنى، ولا يلبثون أن يتعبوا، يطالهم الإعياء سواء لغياب فرصة الظهـور ونيـل السلطة، أو للفقر أو للمطاردات البوليسية فينتهون إلى الاستسلام وحتى الخيانة. يا لحـظ الثورة المضادة.

لعل أوضح الأمثلة على هذا قيادات كبيرة في الحركـة التروتسـكية الـتي انتهـت ضمن قيادة المحافظين الجدد في الولايـات المتحـدة باحثـة عـن نصـر عـبر تـدمير الـوطن العربي بدءاً بالعراق فليبيا فسوريا فاليمن.

العدوان نفسه، بينمـا تختلـف جيوشـه. كـان تـدمير واحـتلال العـراق بـالجيش الأمريكي نفسـه أي الأول، أمـا الثـاني فـالجيش الصـهيوني، وفي حالـة سـوريا الجـيش الأمريكي الثالث/ جيش أوباما، الـذي جنَّـد مئـات الآلاف مـن الإرهـابيين الـتكفيريين العرب والمسلمين ليقاتلوا حروب أمريكا في سوريا خاصة والوطن العربي عامة.

يصاب المرء بالغثيان حين يستمع لمحلل قومي عربي يمتدح أوباما بتسـمية "عقيـدة أوباما" المختلفة عن رؤساء أمريكا الآخرين. ولا أقل "مغصاً" تجاهل الكـثير لهـذا ومـن ثـم البحث عن بيان باهت للتروتسكيين ضد الإمبريالية ينتزعونه من روث البهائم ويطلونـه بالذهب. أما في جانب قـوى الـدين السياسـي، فيكفـي الـذين احتفلـوا بهزيمـة ١٩٦٧، وساروا في ركب الإمبريالي حتى بغداد وبنغازي وعدن وحلب!.

تواصلاً مع شيطنة الثورة الثقافية ومسح التراث الماوي، فإن حكومة الصـين قـد سمحت لقنوات روبرت ميردوخ وسي أن أن، منذ أول يـوم في احـتلال العـراق بالبـث كما تريد، وكل ما يصل للمشاهد الصيني تتم فلترته على يد من يعملون مع سـي أن أن وميردوخ[1]. **(Li Xiguang 2005)**

يو جيي الـذي بـادر بالرسـالة المسـماة "إعـلان مـن المـثقفين الصـينيين في دعـم الحكومة الأمريكية في تدمير نظام ديكتاتورية صدام حسين"، يقول: "... إن ماو هو سـلف

(1) Li Xiguang (2005), 'Live coverage of lies or truth?', http://www.tbsjournal.com/Archives/Spring04/paper.htm, accessed on 24 May 2005. p.p. 26, 130.

صدام حسين، حيث تحظى حقوق الإنسان بأولوية على السيادة القومية، وبأن الولايات المتحدة قد تصرفت بشكل متعدد الجوانب لأن قيم الولايات المتحدة قيم شاملة في الديمقراطية وحقوق الإنسان[١]. لقد خصص الرئيس الأمريكي بوش لقاء خاصاً مع يو جيي وإثنين من الصينيين المتحولين إلى المسيحية حيث استقبلهم في البيت الأبيض عام٢٠٠٦[٢]، وهي حظوة يقدمها لشخصيات من مستوى قداسة دالاي لاما.

وحينما قصفت القاذفات الأمريكية السفارة الصينية في بلغراد ١٩٩٩، حيث قتل ثلاثة وجرح أكثر من عشرة أشخاص، حصلت مظاهرات غاضبة. وحينها قام بعض المثقفين الصينيين بالقول: على الحكومة الصينية أن تعوض الملايين الذين قتلهم النظام قبل أن تطالب أمريكا بالاعتذار. وبأن هذه المظاهرات تكرر سلوك ثوار البوكسرز بما هي غير عقلاينة ومضادة للحداثة[٣].

والمريب أن هذا الانبهار بالتبعية للإمبريالية الأمريكية لم يُحرج بعض الرسميين في تبنيه:

إن برنامج هي شانج المخصص لتشويه التقاليد الصينية والمدعوم من زهاو زيانج حينما كان السكرتير العام للحزب الشيوعي الصيني، كما ورد في كتاب طبع حديثاً في هونج كونج الذي يشرح تفصيلاً أفكار زهاو التي رواها أثناء وجوده في سنوات الإقامة الجبرية في البيت بعد سقوطه خلال هزيمة ميدان تيانانمين، عام ١٩٨٩، حيث جادل زهاو بأن على الصين أن تتبع الولايات المتحدة لأن مصالح الولايات المتحدة تطابق مصالح الإنسانية[٤].. لنتذكر أن نفس هذا القول قاله برنارد ليفي وجلوكسمان وسلوجينستين عن الجيش الأمريكي (أنظر ثورة أيار ٦٨).

---

(1) Yu Jie and Xu Jinru (2003), 'Zhongguo zhishi fenzi guanyu shengyuan Meiguo cuihui sa damu duca cuihui Sadamu ducai zhengquan Yizhengquan' (Declaration by Chinese intellectuals in support of the US destruction of the Sadam dictatorial regime), Shiji shalong luntan, http://forum/cc.org.cn/luntan/china/showcontent1.phb3?eb=I&id=100856&id1=-3469, accessed on 21 February 2003.

(2) Buckley, Chris (2006),'Beijing', Reuters, May 10.

(3) Gao, Mobo (1999a), Gao Village: Rural Life in Modern China, London: C. Hurst;

(4) Zhang Deqin, 'X_D醒的改革大教Z' (Wake up to the lesson of reform), Tianxia luntan, http://www4.bbsland.com/forums/politics/messages/1523163.html, accessed on 5 September 2006.

نعم هذه مقولة ما يسمونه في الصين: "كل ما تفعله الصين خطأ وكل ما تفعله الولايات المتحدة صحيحاً". هذا القول من الصعب أن يصدر حتى عن مثقف ليبرالي غربي! فلا يمكن للمرء التخيل أن رجلاً كهذا، حتى لو لم يكن بخلفية شيوعية، لا يعرف كم هي سياسة الولايات المتحدة وحشية!

هذا التماثل مع القيم الغربية يؤكد المستشرقون الصينيون[1] وجهة النظر المسماة الطغيان الشرقي[2]. وهذا تقاطُع عنصري اتضح في هجوم هؤلاء المستشرقين على الشرق رغم أن الصين شرقية، مع ما كتبه تروتسكي عن ستالين حيث وصفه بـ"الآسيوي"، أي الذي يشبه القادة الآسيويين، مخادع، قاسي، وفلاح[3]. بنفس القدر من الفوقية، كان مثقفون برجوازيون في زمن ماركس يسمونه "العربي" بناء على ملبسه[4].

هذا وحده يكفي لتوضيح موقف تروتسكي المضاد لتحالف البروليتاريا مع الفلاحين في الثورة وهو الموقف الذي لم تغادره معظم تفرعات التروتسكية حتى اليوم وحصرت رؤيتها في الثورة في أنها لا تنطلق سوى من بوابات المصانع.

كان الاستخذاء مشتركاً بين الإعلام والسلطة عند حرب العراق:

"... على مدار أربع وعشرين ساعة، ليلاً ونهاراً، ولمدة عشرين يوماً كان مليار صيني جلوساً ملتصقين بالشاشات الخاصة بهم يشاهدون عدوان الجنود الأمريكيين ضد العراق. لقد شاهدوا التغطية الحية لقادة الحكومات المعتدية، خُطَب واحدة تلو الأخرى، ومؤتمرات صحفية حكومية واحد بعد آخر، والشعارات الرسمية والإعلام الوطنية لدول العدوان واحد بعد آخر. كانوا يراقبون الحكومة والجيش والصحفيين المعتمدين لتغطية الحرب وهم يتناولون الطعام، وحين النوم والدردشة والضحك مع

---

(1) Vukovich, Daniel Frederick (2005), Sinological-Orientalism: The Production of the West's Post-Mao China, PhD Thesis, Rubanan-Champaign: University of Illinois.

(2) Wittfogel, Karl (1957), Oriental Despotism, New Haven: Yale University Press.

(3) Trotsky, Leon (1997), Stalin, 2nd ed, New York: Stein and Day.

(٤) في خصومة سياسية في جامعة بير زيت أسماها الطلبة حرب البراعم بيننا وبين الليبراليين، حيث نقدت عملاً فنياً ليبرالياً في الأرض المحتلة عام ١٩٧٥ فيه انتصرت للطلبة اليساريين كتب ضدي ليبرالي فلسطيني: "أصلاً عادل سماره فلاح لا يفهم في الموسيقى".

الجنود. وكيف كان الصحفيون يبثون بثاً حياً مع قوات بلادهم على الهواء مباشرة... في موقف كهذا، ربما تسترجع الدعاية الكلاسيكية الغربية ضد الشيوعيين والإعلام المُدار على يد الشيوعيين. أما في الواقع فقد كان الصينيون يشاهدون **CNN** وقنوات روبرت مردوخ. فمنذ اليوم الأول سلمت الحكومة الصينية البلاد للقنوات الخمس الأكثر شعبية في البلاد لأيدي **CNN**، وميردوخ. وعليه، فإن جميع الرسائل والصورة التي تلقاها المشاهد الصيني عن العدوان على العراق كانت من أجهزة التلفزيون الخاصة بـ **CNN**، وفريق ميردوخ"[1].

أشرنا أعلاه بأن دينغ كان يدعم الخطى الراديكالية بهدف إيصالها إلى التطرف والنتائج الخطرة. ما يلي يؤكد من مصدر آخر أنه كان يدعم التيار الراديكالي، ولكنه عاد وانحرف:

"... كان دينغ مع الجناح الراديكالي في القفزة العظيمة للأمام. عندما قام دينج بجولة في الشمال الشرقي في سبتمبر ١٩٥٨، ألقى العديد من الخطب العاطفية والرائعة لتشجيع سياسات القفزة العظمى إلى الأمام والثناء على نظام الكميونات المؤسسة حديثاً. وفي النهاية، على الرغم من أن دينغ لم يشارك في مؤتمر لوشان للهجوم على بنغ فقد نشر رأياً في الراية الحمراء الناطقة باسم الحزب الشيوعي الصيني **CCP** ناقداً بنغ ووضع توقيعه على ما يثني على سياسات القفزة العظيمة إلى الأمام"[2].

ورغم الضخ المعادي، هناك وجهات نظر أخرى غير رسمية في الثورة الثقافية. ففي تقرير عن ورشة عُقدت نظمها وشارك فيها بعض كبار رسميين متقاعدين من الحزب الشيوعي وذلك في ١٣-١٥ أيار ٢٠٠٦، حيث قُيِّمت الثورة الثقافية إيجابياً وتحدت طبعة الما بعد ماو للأحداث. وهذه تعتبر لا سابقة لها من عدة نواحي. أولاً لأنه

---

(1) Li Xiguang (2005) ibid.

(2) Zhong Yanlin (2006) (_.y), '.面Pz'执zQ – 邓$在'大^_'XY!.态|，à色|R_' (The banner holder of the three flags: Deng Xiaoping's attitudes, role and performance during the Great Leap Forward), *Modern China Studies*, file://C:\Documents%20and%20Settings\mobo\Local%20Settings/Temp_ZC..., accessed on 5 July 2006.In Gao, p. 127.

ما من ورشة كهذه عقدت في الصين قبل هذه، وثانياً، لأنه تم نشرها في الإعلام الإلكتروني لمن أراد أن يقرأ. ومن ضمن أهم ما ورد فيها:

لا بد من التفريق بين الثوار وبين الحرس الأحمر، فالثوار مدعومين من ماو لاستهداف "طرائقيو الرأسمالية" بينما الثاني يتبع عملياً الأيديولوجيا والخط السياسي لـ البيروقراط[1].

يورد ريموند لوتا، شهادة فيما يخص التوجهات المبكرة لفريق دينغ باتجاه اليمين:

"... في بداية الستينات وبعد سحب السوفييت خبرائهم واعتماد الصين القفزة الكبيرة العظمى للأمام، فإن القوى المحافظة قد اكتسبت أرضية وقوة. فقد حاولوا استخدام معايير الربح لتقرير أولويات الاستثمار. حاولوا تقوية نظام التعليم القائم على النخبة. وإذا أخذنا في الاعتبار أن نظام التعليم العالي في فترة ما بعد ١٩٤٩ في الصين كان متأثراً جداً بنظام المراتبية السوفييتية، أي التخصص ومن ثم اختيار الطلبة الأفضل تدريباً. كانت القوى المحافظة متخندقة في الحصن التعليمي. لقد بقي المجال الثقافي حصنا للتقليد. الأوبرا، وهي شكل فني عالي شعبياً، كان لا يزال مسيطر عليه في مجاليْ الموضوع والشخوص.

إن أحد أهم التحريفات ضد الثورة الثقافية هي القول بأن ماوتسي تونغ كان متطرفاً في إبادة كل من لا يحبه. إن الكتاب الرجعي (**ماو: القصة غير المعروفة**) الذي يجادل بأن ماو كان يتخذ سياسة ثأر سادية ضد قادة الحزب الذين تجرؤوا على تجاوزه... وبأن الثورة الثقافية كانت برنامجاً ضخماً من الإرهاب والخداع. كل هذا محض أكاذيب.

كان ما يقلق ماو هو المحاولات المكثفة للإطاحة بحكم البروليتاريا، وذلك في نفس الوقت إلى جانب إعطاء الانطباع لحقيقة أن ديكتاتورية البروليتاريا يجب أن تُحكم من قبل جماهير الشعب وهذا يجب أن يأخذ شكلاً مؤسساتياً محدداً – وذلك أنه كلما

(1) Gao, 2008, p. 132.

تتقوى هذه الدولة، كلما تصبح مختلفة نوعياً عن الأشكال الأخرى لمختلف أشكال الدولة.

لقد أنقذت الثورة الثقافية التعليم من كونه فاسداً لصالح الطبقات العدوة: ملاك الأرض، الفلاحون الأغنياء والمضادين للثورة .

ديمقراطية ماو / الثورة الثقافية:

ضمن الحملة الصليبية التي قادها دينج لتشويه الثورة الثقافية، فإن أعضاء من النخبة الثقافية مثل جي كسيانلين، با جين، يي يونجلي، ويان جياكي قد بنوا "احتجازاً/ حصاراً ثقافياً ضد الثوار وهيأوا بأن الثوار هم المسؤولون عن التدمير والضحايا... مع أنهم قتلوا على يد من يتحكموا بمكاتب الحزب. في حين أن الثوار عاملوا رسميي الحزب بشكل إنساني في القتال الأيديولوجي.

لم يقصد ماو قمع رسميي الحزب، بل أراد لهم أن يدخلوا تجربة التعلم من الجماهير قبل أن يُعادوا إلى مكاتبهم (كما ورد في شهادة وانج لي[1]، الذي أكد أن ماو قال له شخصياً عدة مرات بأن ليو يجب أن يُسمح له أن يكون عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني.

وحتى في حمأة النضال ضد "طرائقيي الرأسمالية" كانت هناك دائماً تعليمات تنص على أن أولئك الذين هم هدف الصراع يجب حمايتهم جسدياً وتغذيتهم جيداً. إن معظم من كانوا يُسمون مقاتلين مسلحين لم يكونوا مقاتلين من بين الثوار بل ثواراً قُمعوا من قبل رسميي الحزب. وإن معظم الرسميين المهمين في الحزب قد تم استدعاؤهم إلى بيجين لحمايتهم بعد بعض من جلسات محاكم أو جلسات الصراع والكثير منهم أُعيد للسلطة خلال عامين. ففي اللجان الثورية التي أنشئت خلال الثورة الثقافية، لم ياخذ ممثلو الجيش ممثلي الثوار على نحو جاد. كانت شنغهاي فقط الحالة الأفضل قليلاً للثوار لأنه كان للثوار دعماً مباشراً من المركز. كان ماو متردداً أثناء

(1) Gao, 2008, p. 128.

الثورة الثقافية، حيث فكر، متفائلاً، بأن الكوادر ربما يغيرون موقفهم على ضوء تحريك الجماهير. لقد تم الصفح والتسامح مع أعداء الحزب الشيوعي أمثال ملاك الأرض والرأسماليين والرسميين القوميين والضباط، ولكن الثوار بقوا يُعامَلون كأعداء للإنسانية.

المرأة المطلقة:

فيما يخص الجندر كان ماو هو صاحب الموقف الليبرالي. فحينما اعترضت كوادر محيطة به من الحزب الشيوعي الصيني على زواجه من جيانج على أساس أنها إمرأة مطلقة وأن لها حياة ملتبسة، فقد أوردت تقارير أن ماو قال لهم، أنه هو نفسه كان رجلاً مطلَّقاً[١].

كانت إحدى الاتهامات للتقليل من شأن جيانج أنها كانت قد عاشت مع رجل دون زواج. ومع أن ذلك يمكن النظر إليه على أنه حداثة، تقدمية أو ثورية في ذلك الزمن. بل إن رداً أقوى على هذه التهم هو أن تُوجه التهمة نفسها كجريمة للرجال. يقول لان: "إنه ليس من قبيل الحق اتهام جيانج بأنها تزوجت ماو لإعلاء شأنها. فما من امرأة تتزوج أي شخص ما لم تُجب على اتهامات بأن لها دافع مخفي. ليو شاوشي تزوج خمس مرات ولم يكن ذلك قضية في الخطاب الرسمي[٢]. يمكن للقارىء العودة لما ورد في بداية هذا البحث أي ما ورد في محطة **BBC** البريطانية ضد زوجة ماو.

إن أخطر ما اعتمدته القيادة الما بعد ماوية تجاه الصين بأسرها هو اعتقادها بأنه ليس فقط أن الرأسمالية هي الطريق الوحيد كي تنجز الصين حلمها لتكون قوية وثرية ولكن أيضاً أنه من المحتم بأن الجماهير الفقيرة وغير الحاصلة على امتيازات يجب أن تحمل عبء ونتائج ما أسموه المرحلة الأولية للتراكم الرأسمالي. وهذا ما نشهده اليوم في الصين حيث النمو العالي والإنتاج المتسع القائمين على تشغيل قروسطي للطبقة العاملة[٣].

---

(1) Gao, 2008, p. 149.

(2) Ibid, pp. 149-150.

(٣) انظر جون بولامي فوستر وروبرت و. ماكشيسني، ***أزمة لا نهاية لها***، ترجمة: مازن الحسيني، ٢٠١٤.

لم يكسد الاقتصاد:

هناك شهادة واحدة هامة على أن الاقتصاد كسد خلال الثورة الثقافية ذلك أن رواتب العمال هبطت فعلياً أو عادت كما كانت قبلها بـ عشر سنوات، من ٥٨٣ يوان عام ١٩٦٦ إلى ٥٧٣ عام ١٩٧٦. وعلى أية حال فإن شو قد أشار إلى أنه خلال تلك الفترة فإن النفقات العامة على الرواتب في الصين قد ارتفعت بـ ٦٥ بالمئة. وبأن ما حدث هو أنه حيث بقيت الرواتب متدنية فإن مزيداً من الناس قد تم تشغيلهم. ومن الواضح أنه في بلد لا يعاني التضخم وبأن أسعار جميع السلع اللازمة للحياة اليومية للناس ممسوكة بيد الدولة، فإن زيادة الرواتب ليست مسألة مهمة طالما هناك تشغيلاً كاملاً من أجل المساواة وضماناً لمعيشة الجميع. وفي مساهمة أخرى، فإن شو[1] قد أورد أرقاماً تفصيلية كيف أن الصين قد طورت تقنية متطورة في علم الدفاع الوطني، وكيف أن النفط الصيني والصناعات الإلكترونية تطورت وكيف أن الصناعة والري اتسعت خلال فترة الثورة الثقافية.

ولكن إذا ما نظر المرء إلى التفاصيل يجد أن "زهي جانك قد حققت ارتفاعاً برقم مزدوج (عشرات) خلال السنوات الخمس ما بين ١٩٦٩-١٩٧٣، وهذا المقدار المؤثر حيث حققت ١٩.٢٪، ١٤.٤٪ و١٠.٢٪، و١١.٥٪[2].

فالثورة الثقافية لم تتسبب بكارثة لاقتصاد تلك المقاطعة بل كان هناك نمو سريع للصناعة في الريف. وفي عام ١٩٦٦، تم تصنيع شاحنة من نوع **vanand** وكانت الصناعة الجماعية تنمو بمعدل متوسط سنوي قدره ١٥.٨ في المائة على مدى ١٠ سنوات[3].

---

(1) Shui Han (2007), '历=表...._êt.错×的' (History shows that Ma Yichu's idea of population is wrong), http://www.shengyu.org/modules/article/view.article.php?14, accessed on 21 May 2007.

(2) Forster, Keith (2003), 'The Cultural Revolution in Zhejiang revisited: the paradox of rebellion and factionalism, and violence and social conflict amidst economic growth', in Law Kam-Yee, ed., *The Chinese Cultural* Revolution Reconsidered: Beyond Purge and Holocaust, New York, Palgrave Macmillan, pp. 123–15.

(3) Gao, 2008, pp. 87-88.

وفي عام ١٩٦٦، فإن نسبة قيمة المخرج الصناعي من فرق الكميونات التي تدير مشاريعاً صناعية مقارنة بمشاريع الدولة كانت ١٧.٨٣ ووصلت عام ١٩٧٦ ما نسبته ٣٧.٦٣ حيث كانت قيمة مخرج الصناعات الجماعية قد نمت بمعدل سنوي قدره ١٥.٨ بالمئة على مدار عشر سنوات.

تطور الصين كان في عهد ماو: (A Chronicle of Achievements)

كان تطور الصين الحقيقي هو في عهد ماو وهو أساس التطور اللاحق ولكن الذي أخذ منحى غير اشتراكي. ولدعم حقيقة أن التطور بدأ في عهد ماو، فإن إيراد وقائع من الأحداث الاقتصادية الهامة قد تم تعميمها على نطاق واسع. ويتضمن هذا العديد من الأمثلة التي تدحض التصوير أو التهيئة بأن ماو لم يكن يعبأ بالتنمية الاقتصادية في الصين. بل حسب الوقائع، فإنه في ١٩ فبراير ١٩٦٦، قد أوصى ماو بأن تعمل الصين على مكننة/ ميكنة الزراعة في غضون ٢٥ عاماً.

تشتمل الوقائع لعام ١٩٧٢ على قائمة استيراد ثمانية مصانع لمخصبات/ أسمدة كيماوية ضخمة ومصانع أنسجة. وهناك إدخالات أخرى كإقامة المعارض التجارية السنوية الناجحة في غوانغدونغ والعلاقة التجارية للصين مع أكثر من ١٥٠ دولة. هذا أيضاً يظهر أن ماو لم يكن ينوي إغلاق الصين عن العالم الخارجي اقتصادياً وأن الصين تريد تحديث اقتصادها.

ويحتوي السجل على العديد من الإنجازات العلمية والمالية من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٧٦، بما في ذلك اختراع أول سيارة "العلم الأحمر" وإقامة المجمع الاصطناعي للأنسولين البلوري البقري، والقنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية، والكمبيوتر الترانزستور الصيني الأول والكمبيوتر للردارات المتكاملة في وقت لاحق، وأول كاميرا صينية ثلاثية الأبعاد، أول ١٠٠,٠٠٠ ناقلة زِنة طن واحد، واختراع المضادات الحيوية تشينغدا، والإطلاق الناجح للقمر الصناعي واستعادته، وأول السكك الحديدية الإلكترونية، وتطوير حقول النفط دانغ وشنغلى بكين **Yanshan** مصفاة النفط هلم جرا. وعقد أول مؤتمر للبيئة في الصين وتطبيق السياسة الحكومية لمكافحة تلوث المياه.

لقد قام شيانغ نانزي عام (٢٠٠٦) بتسجيل قوائم مسحية لبناء السكك الحديدية في الصين في عصر ماو وأثناء إصلاح ما بعد ماو على سبيل المقارنة. ويطلب من القارئ أن ينظر في حقيقة أن متوسط النمو السنوي للسكك الحديدية من ١٩٥٠-١٩٧٨ كان ٩٤٢ كيلومتراً بينما كان خلال الفترة ١٩٧٨-١٩٩٥ كان ٣٥٣ كيلومتراً فقط.

لذلك، كان ادعاء زائفاً الزعم بأن دينغ هيساو بينغ هو الذي قام أو تبنى الإصلاح الاقتصادي للصين لأن ذلك بدأ في فترة ماو[١] عبر الثورة الثقافية. لقد رفض ماو الموافقة على اقتراح تشن يونغ جوي (سكرتير الحزب في فرقة دازوى الذي كان قد رُقي ليكون نائب رئيس مجلس الدولة) بجعل لواء الإنتاج، بديلاً لفريق الإنتاج باعتباره وحدة المحاسبة الأساسية. يقتبس ذلك كل من تشو دنغ شياو بينغ وجيانغ زيمين لإظهار بأثر رجعي متأخر، وخاصة منذ حرب العراق، أن سياسة الخط الثالث كانت بعيدة النظر وذات أهمية إستراتيجية بالنسبة للصين.

في وقت متأخر عام ١٩٨٢، أعلن رئيس الوزراء[٢] التحول الاشتراكي في الريف الصيني كنظام جماعي كان ضرورياً وصحيح تماماً. لكن بعد سنة واحدة، أي عام ١٩٨٣ أصدر الحزب الشيوعى الصيني قراراً بتفكيك النظام الجماعي التعاوني وأمرت المنظمات الريفية بتغيير الجماعة من اسم الكميون إلى شيانغ (بلدة – تستخدم في الصين قبل ١٩٤٩) وتوزيع الأراضي على أساس منزلي على الرغم من أن العديد من الناس كانوا معارضين لذلك[٣].

لقد قاوم الكميونيون بعض الضغط، ولا تزال هناك ٢٠٠٠ قرية حافظت على النظام الجماعي؛ وتشمل هذه مقاطعات نانجي في خنان، هواشي في جيانغسو، داتشيو

---

(١) انظر بولامي فوستر، مصدر سبق ذكره.

(2) Zhao Ziyang (2007), 'lm阳n禁!的=_' (Zhao Ziyang's remarks during the years of his house arrest), edited by Zong Fengming, Hong Kong: Kaifang zazhi. BIBLIOGRAPHY [263].

(٣) انظر مقال ز. هون كسيو الاقتصاد السياسي لتفكيك الجماعيات في الصين، منشور في مونثلي ريفيو المجلد ٦٥، العدد ١ أيار، ٢٠١٣، مترجم في: عادل سمارة، التعاونيات/ الحماية الشعبية: إصلاح أم تقويض للرأسمالية، الأرض المحتلة، ٢٠١٨، ص ص١٥٠-١٧٨.

في تيانجين، هينهي ودوديان في بكين، وتشو زهوانغ، وخبي بانبيديان، وهونغلين في هوبى، هوشي في داليان، ويانكو ورونغقوي في غوانغدونغ، Tengtou وWanhai في تشجيانغ.

ولكن إذا ما نظر المرء إلى التفاصيل يجد أن "زهي جانك قد حققت ارتفاعا برقم مزدوج (عشرات) خلال السنوات الخمس ما بين ١٩٦٩-١٩٧٣، وهذا المقدار المؤثر حيث حققت ١٩.٢٪، ١٤.٤٪، و١٠.٢٪، و١١.٥٪... فالثورة الثقافية لم تتسبب في كارثة لاقتصاد تلك المقاطعة بل كان هناك نمو سريع للصناعة في الريف[١].

ضد نقد الريفنة:

إن سكان المدن الذين يشكلون ١٥ بالمئة من المجتمع الصيني يستهلكون ثلثي موارد البلد من العناية الصحية بينما الـ٨٥ بالمئة من السكان يحصلون على تسهيلات أقل من ثلث موارد الدولة الصحية[٢].

إن دور الحكومة المركزية هو تحصيل ضريبة القيمة المضافة وضريبة الاستهلاك، بينما الحكومات المحلية تحصِّل ضريبة الأعمال، والضريبة الشخصية وضريبة دخل المشاريع. هم يعتقدون أن الرأسمالية هي الطريق الوحيد كي تنجز الصين حلمها لتكون قوية وثرية ولكن أيضاً أنه من المحتم بأن الجماهير الفقيرة وغير الحاصلة على امتيازات يجب أن تحمل عبء ونتائج ما أسموه المرحلة الأولية للتراكم الرأسمالي. هذا ما يتجلى في تحويل مئات ملايين الفلاحين إلى عمال ليهجروا أراضيهم وأماكن سكناهم ويتحولون إلى يد عاملة هي الأرخص عالمياً.

آراء في الثورة الثقافية:

الاشتراكية هى أفضل بكثير من الرأسمالية والشيوعية ستكون عالماً أفضل بكثير

(1) Forster, 2003, p.p. 147-48.
(2) Song Bingwen et al. 2003, p. 160.

نداء من اللجنة المركزية

١٦ مارس ٢٠١٦

الرفاق الأعزاء، أصدقاء الثورة الهندية، العمال، الفلاحين، الجماهير الكادحة

نحتفل بأربعة ثورات بروليتارية عالمية مهمة تاريخياً، الذكرى السنوية لكل منها في غضون فترة قصيرة من الزمن. الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى، (**GPCR**) – التى تستكمل الذكرى الخمسين لتأسيسها هذا العام والتى كانت طفرة ثورية غير مسبوقة في الصين الاشتراكية في فترة ماو والحزب الشيوعى. حيث كان الهدف هو ربط البناء الفوقى الثقافي بالاشتراكية في البلاد وبالقاعدة الاقتصادية وتحريك الجماهير العاملة الواسعة ضد البرجوازية وأشكال أخرى من الثقافة الرجعية.

لقد قادت نضالاً مريراً أي صراع طبقى ضد طرائقيو الرأسمالية، مما أكد أهمية هذا التعليم في الطريق إلى الشيوعية ببناء أقوى للاشتراكية وبناء الاشتراكية على صعيد عالمى. وتقوية الحركات الشيوعية لكثير من البلدان، وتشكيل الأحزاب الماركسية اللينينية وحرب الفلاحين المسلحة الثورية في الهند التى تأثرت بالثورة الثقافية البروليتارية العظمى.

لقد كان ناكسالباري حدثاً رائداً تحت قيادة الرفيق **Charu Majumdar** – واحد من اثنين من كبار القادة والمعلمين والمدافعين من الحزب الشيوعى الهندي **CPI** (الماوي) التى تقود بداية جديدة في تاريخ الثورة الديمقراطية في البلاد.

كان برنامج تحديث الصناعة بعد ماو في حقيقته عبارة عن حرب على العمال في مشاريع الملكية العامة. إن جيانغ زيلونج، وهو عامل كاتب، قد نشر رواية عام ١٩٧٩ تشرح الصراعات بين كادر إصلاحى وبين عمال[1].

تقول القصة بأن مديراً جديداً وجريئاً تم تعيينه منذ وقت قريب كمدير

---

(1) Jiang Zilong, "Qiao Became the New Director," in the *Renmin wenxue* anthology, *Short Novel Awards of 1979* (Shanghai: Shanghai wenyi chubanshe, 1979) (in Chinese).

لمصنع، مصحوباً بزوجته المثقفة جداً (وكليهما كان قد درس في بلد متقدم الاتحاد السوفييتي)، قد لاحظ أنه بسبب فقدان المُثل بعد الثورة الثقافية، بأن العمال أصبحوا كسالى ويتغيبون عن مواقع عملهم. وبموجب ما تنص عليه "الإدارة العلمية" فقد استخدم مبادىء متشددة وقاسية جداً ضد العمال بما فيها فصل ١٠٠٠ من العمال غير المثبَّتين من أجل زيادة الإنتاجية. لذا كرهه كثير من العمال وكتبوا شكاوى لسكرتير الحزب في المصنع، على أمل أن الحزب الشيوعى الصينى سوف يخلصهم، وعلى أية حال، فإن سكرتير الحزب كان بنفس عقلية المدير. وفي النهاية، فإن القادة ذوي المراتب العالية شجعوا المدير كى يشعر بأن لديه الحرية الكاملة في المضى في التجربة، وقرروا الذهاب إلى بلد متقدم ليتعلموا تكنيك الإدارة الحديثة.

ما بيَّنته هذه الرواية كان بالضبط اتجاه الإصلاح المدينى. فبدلاً من زيادة مشاركة العمال وسلطتهم السياسية، أصبح القادة آمرين والعمال جرى تنظيمهم لخدمة الإنتاج. ورغم أنه في هذه الرواية هدف قادة المصنع ما زال "التحديث"، فإن من السهل تغييره لاحقاً إلى الأرباح للقادة لأن العمال سوف يصبحون بلا سلطة قطعياً. ورغم ذلك، فقد يكون من المناسب القول أنه في نهاية سبعينات القرن العشرين كانت سلطة العمال لا تزال معتبرة في معظم الحالات، حتى أن كثيرا من العمال الذين دعموا الإصلاح لم يتقبلوا الرأسمالية. ولنأخذ مؤلف الرواية كمثال، فرغم أنه دافع عن الإصلاح في البداية، فإن جيانج قد راجع موقفه لاحقاً، ووقف أمام الرأي العام ضد الخصخصة وقمع العمال[1].

---

(1) Jiang Zilong, "Qiao Became the New Director," in the *Renmin wenxue* anthology, *Short Novel Awards of 1979* (Shanghai: Shanghai wenyi chubanshe, 1979) (in Chinese).

انظر: الاقتصاد السياسي لتفكيك الجُماعيات في الصين، زهون كسيو، "بروفيسور مساعد بجامعة رينمين الصينية في بكين. تعالج أبحاثه الهامة الاقتصاد السياسي، التطور الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي. ترجمة: بادية ربيع وثابت عكاوي، منشور في مجلة: مونثلي ريفيو، مجلد ٦٥، العدد ١ أيار ٢٠١٣.

وأخيراً... الصهيونية:

لعل من أهم مآثر الصين الشعبية في عهد ماوتسي تونغ، هو موقفها الواضح والجذري من الكيان الصهيوني. بينما، وللمقارنة، فقد أنتج التلفزيون الصيني سنة ٢٠١٧ شريطاً "وثائقياً" بالتعاون مع السلطات الرسمية الصهيونية تحت عنوان "الذهاب إلى إسرائيل – أرض الحليب والعسل"، ويَدعم الشريط "الوثائقي" الأساطير الصهيونية المُؤَسِّسَة لدولة الإحتلال، ويتبنى وجهة النظر الصهيونية، ويدّعي الشريط الصيني "إن فلسطين كانت مُجرد صحراء، وأرض فارغة (بلا شعب) لكن المُستوطنين اليهود المُتَفَوِّقِين في كل المجالات حَوّلُوها إلى جنة مبارَكَة ومُزْدَهِرَة"، وفق المُلَخّص الذي نَشَرَتْهُ صحيفة "الشعب" الصينية الرّسْمِية عند إطلاق سلسلة كاملة من الأشرطة الوثائقية الداعمة للكيان الصهيوني في التلفزيون الرسمي الصيني ٢٩ تموز/ يوليو ٢٠١٧، وصرّح المسؤول عن الإعلام في السفارة الصهيونية ببكِين: "إنه أول وأهم مسلسل تلفزيوني شامل ينتجه التلفزيون الصيني يُقَدِّمُ للمُشاهد نظرة تاريخية شاملة تَضُمُّ الكثير من الحقائق عن إسرائيل وعن الشعب اليهودي وعن الحضارة اليهودية ومساهماتها في الحضارة العالمية، ونحن واثقون أن هذا المسلسل سيساعد في تعزيز العلاقات الودية بين الشعبين، وذكرت الشبكة الصهيونية الإعلامية "عروتس شيفع": أن العلاقات بين إسرائيل والصين كانت شبه معدومة قبل الثمانينات من القرن العشرين، بسبب دعم الصين للعالم الإسلامي ومنظمة التحرير الفلسطينية، ثم تطورت علاقاتهما العسكرية خلال عقد الثمانينات، وأقامت علاقات دبلوماسية رسمية بعد توقيع اتفاقيات أوسلو في أوائل التسعينات"[1].

---

(١) عن مركز دراسات "كاتيخون" (**katehon**) – فرِدْرِيك ولْيام إنْغْدَال (باحث اقتصادي من أمريكا مُستقر في ألمانيا) ١٠/ ٠٥/ ٢٠١٨.

ثورة ١٩٦٨ الطلابية:

حرب الطلاب المدينية:

مقدمة:

جامحة وساخنة وخلافية ونقدية ومشتبكة كما الشباب نفسه، هذه ثورة الطلاب أيار ١٩٦٨ بل والعمال كذلك. كم ابتهجتُ بها حين قرأت عنها مقالة في مجلة News Week اليمينية طبعاً. لا زلت أذكر أنني وقفت على باب الزنزانة في سجن رام الله وهو باب من القضبان الحديدية حينها ١٩٦٨ أي بعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. بناية السجن وتسمى المقاطعة وباب الزنزانة المكون من القضبان هي من بقايا فترة الاستعمار البريطاني ثم الحكم الأردني قبل أن يقوم الكيان الصهيوني لاحقاً بتحويل أبواب الزنازين إلى صفيح بارد في الشتاء وشديد السخونة في الصيف. وهو نفس بناية المقاطعة التي حوصر فيها ياسر عرفات من قبل العدو إلى أن تم تسميمه رغم أنه اعترف بالكيان على ثلاثة أرباع فلسطين ووافق على حكم ذاتي لبقية فلسطين!، ولاحقاً قامت سلطة الحكم الذاتي برئاسة محمود عباس بهدم المقاطعة وإقامة أبنية ضخمة مكانها بمشهد فخم أقرب إلى البيت الأبيض في واشنطن! وهو ما لا يليق بضآلة سلطة حكم ذاتي تحت استعمار استيطاني اقتلاعي عنصري وتابع للإمبريالية بشكل عبودي. وباختصار، كي أتمكن من رؤية النَّص كان لا بد أن أقف عند باب الزنزانة.

كما لم أنسَ كم ابتهجتُ لحصول تلك الثورة في كل من الغرب والشرق. لم أضع الغرب والشرق في نفس الموقع بالطبع، لكن نقد الشرق، وإن كان يقود إلى الطرد من "المعبد"، إلا أنه كان ضرورياً. كنت حين اعتقلت ١٥-١٢-١٩٦٧ مع رفاق من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أيضاً طالباً جامعياً، فربما أضفى هذا مزيداً من النشوة حين قرأت المقالة.

كان الطلبة هم الأكثر دوراً في الشارع والاحتجاج لكن ليس شرطاً وحدهم

لإنتاج الثورة أو تحديداً استمرارها فما بالك بانتصارها. يرتد هذا إلى الوضع الاجتماعي للفئة الاجتماعية الطلابية بما فيه فئة العمر والمهنة والدخل والمسؤولية الاجتماعية والمناخ المحيط... الخ. كل هذه تحفز الطلبة على الحراك الحرياتي. لكن هذا الحراك لا يمكنه الوصول إلى ثورة أو الوصول بالثورة إلى منتهاها التغييري بمعنى إسقاط النظام القائم وإبداع نظام مختلف مضاد ذلك لأن الحاسم في هذه المسألة هو موقع هذا الحراك أو القوة الثائرة في التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية وتحديداً من نمط الإنتاج المهيمن ومدى كونها قادرة على حمل وتثبيت نمط إنتاج آخر كنقيض له. إنها فئة تتوزع بين مختلف الطبقات.

هذا يعني أن القوى الطبقية الاجتماعية الأخرى أي النقيضة للنظام الرأسمالي وهي الأهم، المكون الأساسي أو المتولد الأساسي عن نمط الإنتاج الرأسمالي المهيمن ونقيضة هذا النمط، أي الطبقة العاملة، هي التي يجب أن تنخرط في ثورة التغيير وليس فقط في ثورة الاحتجاج وتقودهما بوعي طبقي سياسي. هذا كان أحد أهم دروس ثورة الطلاب عام ١٩٦٨.

وهكذا، نفهم بأن الثورة كل متكامل واتساع بحجم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية سواء من حيث القوى الاجتماعية الطبقية والوعي الطبقي والعمق الثقافي التي بمجموعها تهدف وتوصل إلى الهدف. بناء على هذا يمكننا قراءة دور الطلاب في أوضاعهم الطبقية الهلامية الموزعة طبقياً أو على الأقل البعيدة عن موقع الإنتاج بشخوصهم، والمرتبطة بطبقات متعددة متناقضة في علاقاتها بموقع الإنتاج. فإبن العامل طالب وإبن الرأسمالي طالب أيضاً، وبالطبع يكون السؤال، أين يتموضع وعي ابن العامل أو الفلاح طبقياً وثورياً؟ هل يحلم ويتجه للتوصل إلى وضع طبقي برجوازي صغير أو طبقة وسطى، أو يرى دوره في الاصطفاف الثوري التغييري؟ وهل يُهيِّىء ابن الملياردير نفسه لإدارة الشركات أم تجذبه الرومانسية الثورية أو يفهم الثورة بوعي عميق.

فجَّر الطلاب الثورة، ولاحقاً تبعهم العمال والفلاحون فتصلَّب عودها واشتد،

وانقسم المثقفون والنقابات والأحزاب "الثورية" بين مع وضد وعلى الوسط، والتقطت البرجوازية هذه الاختلالات، وتمكنت من إجهاض الثورة. ومع ذلك خلخلت هذه الثورة البنى الاجتماعية وخاصة الثقافية الفكرية في المجتمع الغربي – أوروبي وخاصة في فرنسا، وهزت كذلك بعض دول الاشتراكية المحققة ووصل لهيبها أو لفح قطاعات طلابية في المحيط.

في العقود الثلاثة التي سبقت الثورة الثقافية كان الجدل الفكري الثقافي حول الثورة وتحديداً الاشتراكية في أوجه، كان الخلاف الصيني السوفييتي، وكانت مدرسة فرانكفورت الثقافوية بغطاء يساري والتي بقيت غافلة عن مشكلة الكولونيالية![1]، وكانت فترة باندونغ في المحيط كحالة وطنية وسطية ضد الاستعمار، تقدمية وطنية وقومية ولكن غير اشتراكية... الخ لنقل لم يكن الاستقطاب الثوري ضمن تيار محدد قيد الإمكان.

وهنا، لا نقصد أن وجود مرجع واحد وحيد للثورة كالكومنترن هو وحده الطريق السليم بمعنى دوره في التجنيد والتحشيد والتثقيف والاصطفاف كموجبات ثورية، ولكن غيابه أدى إلى نتائج أسوأ من أخطائه. ومع ذلك هي حالة أو مرحلة علينا قراءتها جيداً من جهة، وخاصة قراءة قدرة الماكينة الثقافية الأكاديمية الإعلامية النفسية الإمبريالية على اختراق معسكر الثورة وطبعاً المجتمعات عامةً هادفة شيطنة أي توجه تقدمي.

من هنا يمكننا القول بأن الانفجار الطلابي كان ضرورة لا يوقفها شيء، كان حدثاً، ولكن ليس شرطاً أن يتخذ الحدث الطريق الذي نرغب إلا بقدر استيعابنا له وتوجيهنا له. هو حالة، ونحن الذين علينا أن نجعل منه حالة ثورية. هذا التوجيه قائم على من نحن؟ ما حدود قوتنا وما حدود ثوريتنا؟ وكانت النتيجة أن انتهت أوهام التنظير للاعتماد على الطلبة وحدهم.

---

(١) يخالُ الباحث أحياناً بأن هذه المدرسة جرى بناؤها وتواصل شغلها كما أو كان تخصصاً في النازية ثأراً لليهود من المحرقة وكأن هذا شغلها الحصري أو كأن العالم هو النازية واليهود وأوروبا الغربية والولايات المتحدة. وعليه، إذا كان هناك من مثالٍ على المركزانية الغربية فهذه مدرسته اللصيقة.

ليس هذا انتقاصاً من فعالية الطلبة، ولكن لا بديل عن توفر الأرضية الطبقية العمالية من جهة ولا بد أن تفرز الطبقة حزبها، لا أن يهبط الحزب على الطبقة من الأعلى. تأخرت الطبقة نسبياً في ثورة الطلاب، وحينما كانت قد ألقت بقضها وقضيضها في الثورة، غاب الحزب. لم يكن للحراك نفسه، الحراك بتعدده وعموميته، حزب أو تحالف أحزاب متبلورة. وغياب الحزب يُفقد الوعي الطبقي هدفه السياسي، الهدف السياسي للطبقة أي الوصول إلى السلطة بغض النظر عن تموضعها كلاسيكياً في السلطة أو الذهاب بعيداً إلى نفي الدولة/ كسلطة أصلاً أي عدم تعبئة أسطوانة الدولة بمادة جديدة. كما أن أتون الصراع، لم يفرز الحزب لأن كثيراً من قوى الثورة كانت ترفض الحزبية.

ما أشبه اليوم بالبارحة! فالثورة الثقافية في الصين كانت ضد الحزب نفسه، لأن الحزب كان قد تبقرط وعششت فيه الطرائقية الرأسمالية! وفي كميونة باريس، كان الثوريون جزءاً من الطبقة العاملة، وكان أحد أهم مكونات الثورة إما من الفوضويين أو من البؤريين (البلانكيين). ليس بالفكر الثوري أن نقول بأن المطلوب توفر كافة مكونات نجاح الثورة، ولكن لا بد من الاقتراب من ذلك لأية تجربة مقبلة.

أما السؤال الذي غاب تقريباً في معظم المراجعات لمختلف هذه الثورات (الكميونة، والثورة الثقافية وثورة أيار ١٩٦٨)، فهو دور الفلاحين، أو تموضعهم؟ رغم أنهم، وخاصة العمال الزراعيين في فرنسا شاركوا في ثورة ١٩٦٨، كما أن الفلاحين في انتفاضة ١٩٨٧ شاركوا بشكل واسع رجالاً ونساء ضمن جماهير الأرض الفلسطينية المحتلة ١٩٦٧ أي الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين.

ولأن فرنسا كانت بؤرة ذلك الصراع، فإن تخلي الحزب الطبقي عن الطبقة، عن الثورة، عن الطلبة كان تأكيداً على إجهاضها، وكأنه كان يتهرَّب من مقولة ماو تسي تونغ "تجرَّأ على النصر".

الاتحاد العمالي سي جي تي حاول تعريف نضال العمال على أنه تقليدي من أجل الخبز والزبدة كطلبات نقابية، والاتحاد العمالي بي سي اف حاول تعريف نضال

الطلبة على أنه حركة لإصلاح ولبرلة الجامعة. ولأن هذه كانت من عوامل التحفيز الثوري، لا شك أنها غدت ضمن مطالب وأهداف الثورة، لكنها حدها الأدنى.

في تجربة ثورة الطلاب هذه، خاصة الطلاب، تراجع المعلمون، لم يدعمها ألثوسير، وقام أدورنو باستدعاء الشرطة لاعتقال طلابه حينما بدأوا الحراك. كانت لحظة مثيرة للدهشة الغاضبة حيث تبين الفالق بين التنظير وبين التنفيذ. كان التنظير أكاديمياً والتنفيذ شبابياً! هل كان لا بد من التفارق، التناقض؟ لربما لا. فالطبيعي هو الجمع التفاعلي بين الفكر والممارسة، بين النظرية والتطبيق. لكن هذا لم يحصل.

في فرنسا بل والغرب، جَبُنَ وتراجع المعلمون، ألثوسير وأدورنو مثلاً، وربما نقول عجزوا عن الانتقال من التنظير إلى التطبيق، ولكن تقدم الفلاسفة المرفوضون لوفيفر على سبيل المثال الذي أعطى مكتبه للطلبة ليكون غرفة عمليات لهم. فالثورة ليست اختباراً للطبقات الشعبية من حيث وعيها السياسي الطبقي وحسب بل هي امتحان مباشر، تحدٍّ ميداني للمثقفين أيضاً.

هل كان أحد أسباب تراجع المعلمين أنهم أقاموا مواقفهم على هدم الهرم النظري الشيوعي التقليدي أي الاتحاد السوفييتي دون أن يُقيموا مبنىً نظرياً قائماً بذاته! فلم يتحول ما أقاموه إلى بديل حقيقي.

وحتى البديل الذي طرحه ماركوزة أثبتت مجريات الحدث أنه لم يكن القلعة القادرة على تحقيق النصر. ما ذهب إليه ماركوزة كانت قلعة بلا قاعدة مادية طبقية، كانت محمية من جمهور لا يشكل القوة الإنتاجية لمجتمع، بل كانوا غالباً مهمشين عن مواقع الإنتاج. غاضبون نعم، ولكن المعدات الثورية غائبة. مقاتلون نعم، ولكن لا يمكنهم حمل المجتمع، مجتمع الثورة تحديداً، على أكتافهم كما الطبقة العاملة متسعة أو حتى ضيقة. أخذت الرجل حماسته وخاصة ضد الماركسية، فانتهى رومانسياً لا ثورياً.

وللمقارنة، رغم فقدان ماو للحزب ومعظم السلطة لكنه لم يتراجع وحاول في ميدان الصراع الشغل مع الجيل الجديد، مع الشباب في الحزب وخارجه، وهؤلاء قطاع

واسع من القوة الإنتاجية في المجتمع بمعنى أن طرائقيي الرأسمالية لم يكونوا ليعلنوا أنهم طبقة وإن كانوا في طريق التشكل الرأسمالي أو استعادة ذلك التشكل أو مواصلته من تحت طلاء. ما أقصده أن فريق الثورة الثقافية لم يكن خارج قطاعات الإنتاج.

يقول ماو في الثورة الثقافية: "... على الرغم أن العمال والمثقفين الشباب ثاروا ضد الحزب، فقد فشلت ثورتهم في تغيير الحزب نفسه، وحتى حين سُئلوا أين كانت البرجوازية في بلد اشتراكي، أجاب ماو: "**صحيح، كانت في الحزب الشيوعي نفسه**"، حيث وجدت مكاناً مريحاً للاختباء داخل الحزب والوسائل المناسبة لتغطية سلطتها الجديدة، كما نراه في الصين اليوم، وها هي اليوم تقوم أو تمعن باتجاه التراكم الأولي لرأس المال كما في القرن التاسع عشر. جميل، وأين يكمن استدخال الهزيمة فلسطينياً؟ إنه يكمن في الزمر القيادية للمقاومة الفلسطينية.

"إن الشعب، والشعب وحده، هو القوة الفاعلة في صياغة تاريخ العالم، بينما كنا نحن أنفسنا غالباً صبية أو جهلة".

وفي الحقيقة لم يُخفِ الطلبة مصدر التأثير عليهم، حيث كان فكر الشيوعيين الحقيقيين، ماركس، ماو والماركسيين الذين، على أية حال لم يصمدوا أي سارتر، إنما لم يكونوا تلامذة لمدرسة فرانكفورت. لكن دهشتهم في ماركس وماو لم تنضج للتكوين الحزبي. لعل هذا يوصلنا إلى أن فشل اليسار الجديد نابع من فشل التنظير اليساري الجديد الذي كانت يساريته بقدر عدائه للنظرية الماركسية نفسها، كان شغله إلى حد كبير التقليل من شأن الماركسية.

المحركات، مناخ ومجريات الثورة:

المناخ الفرنسي/ الأوروبي:

أما والطلبة هم المحرك البدئي للثورة، فقد نجم عن ذلك رفضهم إفقار التعليم وخاصة الجامعي، وتأنيث التعليم الأساسي وبعثرة التعليم التكنوقراطي للتعليم الثانوي

وخاصة في فرنسا، وهذا دفع للتفاعل الجماهيري مع هذا الاحتجاج. ورغم أن الاحتجاج على المبنى والجهاز التعليمي هو التحدي المباشر الذي واجهه الطلبة ورفضوه، فإنه هو نفسه كموضوع احتجاج مطلب جماهيري ترافقت معه مطالب ليست طلابية بحتة، بل تمس أصل النظام الاجتماعي والسياسي القائم. وقد اتضح ذلك بصورة خاصة في المطالب السياسية المطروحة ومن إشراك الجماهير وخاصة في فرنسا. وفي تقاطع هذه المطالب والاعتراضات أصبح الهدف هو التخلص من البناء التعليمي القائم، من النظام الاجتماعي وخاصة بناء الدولة. وهي الدولة التي كان يرأسها الجنرال ديغول ذو الأهمية في فرنسا سواء بتاريخه ضد الاحتلال الألماني في الحرب الإمبريالية الثانية، أو محاولاته بكل ما أمكنه هزيمة الثورة الجزائرية إلا أنه قاد فرنسا المهزومة. واتكاء على تاريخه "كبطل قومي برجوازي" في خدمة الرأسمالية جعل الجامعات خادمة لرأس المال الكبير مما تسبب في تسعير الرفض الطلابي.

كان المجتمع الذي ينشده الطلبة هو المجتمع الحر القائم على الإدارة الذاتية التسيير الذاتي. كان الهاجس هو كيف يمكن للشعب أن يحل مشاكله بنفسه؟ كان معظم الشعب الفرنسي ميالاً إلى رفض النظام الاجتماعي الغربي للرأسمالية البيروقراطية الحديثة وضرورة إعادة تقييم أساسية عميقة للقيم الاجتماعية.

تعالي الحكومة الديغولية، رجعيوها ساعدا بدورهما الحركة لتنتشر كالفطر في التحول إلى إضراب طلابي على صعيد الوطن وتمظهر في الحراك الطلابي كانت انطلاقته باحتلال طلبة جامعة نانط مباني الجامعة، ثم حرب شوارع شاملة بما فيها حواجز طبقاً لتقاليد باريس الثورية، وامتدت إلى المعامل والمكاتب. كما قامت أيضاً عناصر كبيرة من الشريحة الإدارية والمهنية التخصصية بالمشاركة في الإضراب العام واحتجت على البنية المركزية جداً والتراتبية والسلطوية في أوساطها أيضاً.

احتج الصيادلة على مزاياهم وتضامن مهنيون وعلماء وفنيون وأضرب صحفيو التلفاز الحكومي ورفضوا إذاعة التحريفات التي صاغتها الحكومة، بعض الطلبة أعلنوا الثورة الثقافية، وهتفوا "... **الموت لمجتمع الاستهلاك والموت الزؤام للاغتراب**

نريد عالماً جديداً وأصلياً، نرفض عالماً يقايض الضمان ضد المجاعة بخطر الموت من الضجر". ورُفعت شعارات **"لن تتحرر الإنسانية حتى يشنق آخر بيروقراطي في مؤخرة آخر رأسمالي**".

"هذه الثورة التي بدأت لن تتحدى المجتمع الرأسمالي فقط، بل الحضارة الصناعية"

"لا تغير المشْغَل بل غير حياة التشغيل" "السلطة للتخيُّل".

وحتى بعد تقوية سلطة الديغوليين لم يتصور أحد أن يتسلل ديغول مع جنرالاته إلى ألمانيا للتباحث في ولاء الجيش له، ورفعت شعارات ضد: وهم الاستقرار الليبرالي، التماسك، موت السياسة، كما تبدد إجماع المجتمع الرأسمالي المتقدم. إذن لا صحة للحديث عن عدم تسيُّس الشباب عمال وطلبة فهم في المقدمة.

وصف معلق بريطاني ثورة ١٩٦٨: "**... إنه إضراب خارج السياسة التقليدية... إضراب ضد ملل العمل ممثلاً في المصانع الحديثة جداً الذي يقود للاغتراب وضد سلسلة الأوامر البيروقراطية المتحجرة، رفض تفويض السلطة والافتقار للنقاش الجماعي... إنه إضراب ضد نمط من السلطة**"[1]. هذه المرة كل فرنسا وليس باريس فقط.

- لذا، حين انتقلت الثورة من الطلبة إلى العمال، وحتى الفلاحين، قررت البرجوازية/ الدولة التراجع وتقديم بعض الحلول.

ومقارنة مع فرنسا، كانت المطالب في إسبانيا محو آثار النازية من التعليم، وفي إيطاليا تقليل التفاوت المناطقي والتفرقة الاجتماعية، وفي إفريقيا الخلاص من أثر الاستعمار في التعليم وفي أمريكا الجنوبية إقامة علاقات وظيفية مع حاجات التنمية.

كان أيار ١٩٦٨ هو المظاهرات الجماهيرية، المتاريس، المعارك مع البوليس، ... الخ. كانت ظاهرة عالمية لا أوروبية/ فرنسية فقط في المكسيك ألمانيا الصين إيطاليا والولايات المتحدة، تونس تشيكوسلوفاكيا... الخ، لم تكن ظاهرة فرنسية خاصة. كانت صرخة وحراك شبابي أممي لم تُلغِ الهزيمة هديرها ووجعها حتى اليوم.

---

(1) Arghadh, John. The New French Revolution (New York, 1969), p. p. 62, 465, 468.

المجريات:

ثـورة مـايو عـام ١٩٦٨ في فرنسـا هـي فـترة عنيفـة مـن الاضـطراب المـدني سادتها الإضـرابات العامـة والاعتصـامات في الجامعـات واحـتلال المصـانع في مختلـف أنحاء الجمهورية الفرنسية بـدفع مـن الطلبـة والعمـال واشـتراكيين وشـيوعيين. أخـذت المظـاهرات طابعـاً جماهيريـاً، وأقيمـت المتـاريس، واشـتبك الشـباب في معـارك مـع البوليس... الخ.

يقول باديو: كانت بداية من طلبة المدارس والجامعات وهـم جـزء مـن الشـباب منقطع تماماً عن الجماهير العريضة وعن الطبقة العاملة... كانت القوة غير العاديـة فـوق العادية للأيديولوجيا والرموز ، المفردات الماركسية، وفكرة الثورة. ومن جهة ثانية قبـول العنف. يمكن تعريفها أنها كانت دفاعية ورافضة للقمع، لكن تبقى عنيفة[١].

كانـت اسـتلهاماً لإبـداع ثلاثـة عوامـل راديكاليـة: الـدعوة للإضـراب وقـرار الإضراب، باهتمام قليل للمؤسسات الرسمية للطبقة العاملة. قادها عمـال شـباب مـن الطبقة العاملة من خارج منظمة اتحاد العمال التي دعت له جزئياً كي تتحكم به لـذا لجـأ العمال الشباب إلى الإضراب الشرس بعيداً عن قيـادة النقابـات الـتي مقابـل الإضـراب لجأت أي الاتحادات التقليدية إلى شعار "أيام الفعل النشاط".

ثم احتلال المصانع وهو استمرار لتقليـد الإضـرابات العظيمـة ١٩٣٦ و١٩٤٧ لكن هنا (أيار ١٩٦٨) كانت على نطاق واسـع. وزرعـت الرايـة الحمـراء علـى أغلـب المصانع.

وجرى الاختطاف الممنهج لكبار المدراء ونشبت المعارك في المحيط مـع الأمـن أو قوات سي آر اس.

قـادت الثـورة حركـات متعـددة تـتكلم لغـة واحـدة: الصـراع الطبقـي، قيـادة البروليتاريا للصراع منظمـات جماهيريـة وحـزب وكلـها تحـت الرايـة الحمـراء، ورفـض

(1) The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015, pp. 35-36.

الانتخابات حيث الشعار "الانتخابات هي خدعة"، ذلك لأن الحكومة وبعد شهر من حراك الطلاب وحراك غير مسبوق من الطبقة العاملة قامت الحكومة بانتخابات أتت أكثر رجعية. (قارن مع حكومة تيير في الكميونة وحكومة الكميونة) الانتخابات وضع الشعب في الصندوق ٤ سنوات.

يرى باديو أن هناك أمران يطبعان ١٩٦٨ ولا يزالان حيَّين حتى الآن:

- أن هناك حركات اجتماعية ملتحمة بمطالب محددة والاتحادات هي منظماتها الطبيعية.
- ثم هناك عنصر الحزب الذي تواجد في مختلف المواقع الممكنة للسلطة، والذي يجلب لها، إن كان بوسعي وضعها كما يلي، قوة ومحتوى الحركات الاجتماعية. باديو، ص٤١.

في تفارق عن اعتدال الحزب، بدورهم، استخدم الطلبة مختلف المصادر المتناقضة وخاصة التناقض الذي منع الحكومة عن مزيد من انتهاك البرجوازية الصغيرة عِبْرَ مثلاً، إعطاء أمر بفتح النار على الجماهير. لقد قاتل الطلبة بشجاعة وابتكروا وسائل جديدة للصراع، مثلاً مجموعات صغيرة مسلحة جيداً ومتاريس مما أجبر الدولة على تراجع ما، وأرغم البوليس على اتخاذ خط عام بعدم الذهاب بعيداً. وحينما توحدت البرجوازية والرأي العام، وصحافتها، وإذاعاتها ضد هذا "الإفراط" اضطرت الحكومة لتراجع ما.

ورغم تمدد الثورة الطلابية في بقاع عديدة من العالم، لكن لم يصل الحراك حد تهديد النظام سوى في فرنسا ومع ذلك بقي صداها في مسمع الطبقات الشعبية في العالم.

في فرنسا تعاون اتحاد الطلاب الثوريين مع اتحاد الشباب الشيوعي الماركسي اللينيني والجماعة المؤيدة للحزب الشيوعي الصيني والشباب الشيوعي الثوري وحركة ٢٢ آذار في العمل الثوري. لكن الشيوعي التقليدي بقي مراقباً. أي لعبت القوى الصغيرة مثل التروتسكية والماوية/ وليس الحزب الشيوعي، التي لها علاقات مع قطاع

الإنتاج والسنديكالية الفوضوية دوراً حاسماً في الدعوة للإضراب في شركة الملاحة ورينو. لذا، حينما قررت الديغولية التحول ضد العمال نالت تراجعاً أو على الأقل عدم الاكتراث من قبل البرجوازية الصغيرة بمن فيهم الطلبة. كان أشد التفاعل من العمال المثقفين الفنيين علمياً وتقنياً هؤلاء تقبلوا مطالب الطلبة وهذا أعطاها الطابع الشعبي ذي العلاقة بمواقع الإنتاج، لكنه لم يوفر لها الحزب القائد!

هل السبب أنها كثورة شبابية عمالاً وطلاباً أعلنت وقوفها ضد ما يسمى، صدقاً أم تجنياً، الجمود المذهبي الروسي والصيني والمادية المفرطة وضد الالتزام بأي حزب، أم لأن هذه القوى لم تكن قد هيأت نفسها وجمهورها والشعب عموماً لتلعب دوراً ثورياً يلتقط الحدث بل يساهم في صنعه؟ مما جعل تجاوزها ضرورياً.

القوى الشابة اشتراكية الهدف، مثلاً بخلاف كثير من مناضلي الكميونة؟ فهم من الفئات المثقفة والتي زادت عدداً بتطور العلم والتعليم. لذا، كان من أهدافها إزالة الإمبريالية والاحتكارات والقضاء على عدم الترشيد الاقتصادي ورفض العسكرة وتخفيض ساعات العمل والتأمين الأقصى لمتطلبات الراحة وتحويل الإنتاج لتلبية حاجات الاستهلاك، وتحسين نوعية واتجاه الإنتاج. لكن الإشكالية لم تكن فقط في الخلاف على أية أداة أو طبقة، بل في غياب الأداة المناسبة.

هذه الاحتجاجات قادها كوهين – بنديت ولجنة الـ٢٢ آذار من جامعة نانط في ضواحي باريس. حينها، كان كوهين بنديت ثورياً حيث كتب في كتابه (**الشيوعية الغاية: البديل اليساري**) أن ثورة الطلبة بدأت لأن المجتمع لم يقدم للشباب سوى البطالة أو أعمالاً حولتهم إلى أدوات لخدمة الاحتكارات الرأسمالية المتحكمة. كما أن المجتمع يطلب منهم الإذعان لجرائم السياسة الدولية، مثل حرب فيتنام.

طبعاً تُبرز أغلب الوثائقيات والتظاهرات وتُعلي شأن البعد الطلابي الشبابي التحرري المتأثر بقياديين طلبة مثل دانيال كوهن – بنديت، وجاك سوفاجو وألان كريفين، وبأفكار ماو تسي تونغ، وتشي جيفارا، وهوشي منه/ فيتنام، وريجيس دوبريه، وليون تروتسكي، وفرانز فانون، وهربرت مركوزة والمثقفين والأكاديميين مثل جان بول

سارتر، وآلان جريسمير، وجان لوك غودار و . أ ف ستون، وغارودي وغيرهم من المثقفين والمبدعين. لذا، بدأت طلابية وتحولت عمالية في فرنسا خاصة.

كانت للأزمة، كما أشرنا، ثلاثة مظاهر عام ١٩٦٨: انتفاضة الطلبة وإضراب العمال الجماعي وأزمة الثقة في الحكومة وهو ما قاد إلى الانتخابات البرلمانية. لكن، للأسف تم في النهاية حل كل واحدة من هذه لصالح الوضع القائم **Status quo**.

وقائع الثورة ويومياتها:

لم تكن ثورة ١٩٦٨ باريسية كما كان شأن كميونة باريس، لا من حيث الانحصار في باريس ولا من حيث الابتكارات الثورية الشعبية.

"... طلبة مدينة تولوز سبقوا هم أيضاً طلبة السوربون وأسسوا "حركة ٢٥ نيسان/ أبريل". الشيء نفسه بالنسبة إلى تحركات الشغالين، فاحتلال المصانع من طرف العمال بدأ يوم ١٤ أيار (مايو) في مدينة بوغيني على بعد ٤٠٠ كيلومتر من العاصمة. تجارب الإدارة الذاتية سواء في المصانع أو خارجها حصل أغلبها بعيداً عن العاصمة الفرنسية: نانت، لوهافر، ...الخ. أشرس الإضرابات والمواجهات مع قوات الأمن حصلت بعيداً عن باريس، وحتى المرات القليلة التي استُعمل فيها الرصاص الحي لقتل العمال، كانت في مناطق أخرى: مونبيليه وكالفادوس.

دخول العمال:

بدأت التحركات العمالية في أيّار (مايو) ١٩٦٨ بالإضراب العام يوم ١٣ أيّار قبل أن تبدأ حركة احتلال المصانع يوم ١٤ منه (مصنع "سود ــ أفياسيون" بالقرب من مدينة نانت) لتنتشر ككرة الثلج في كامل فرنسا وتشمل عشرات المدن ومئات المؤسسات الاقتصادية. لم يقتصر الإضراب على المصانع الكبرى أو القطاع الخاص فقط، إنّما شمل أيضاً المؤسسات الصغرى والمتوسطة ومؤسسات القطاع العام، بما فيها وسائل الإعلام التابعة لديوان الإرسال الإذاعي والتلفزي الفرنسي.

تطور عدد المضربين عن العمل من ٢٠٠ ألف شخص يوم ١٧ أيّار ليصل إلى قرابة ١٠ ملايين عامل يوم ٢٦ منه. لم يكن على المضربين مواجهة قوات البوليس وميليشيات رؤوس الأموال والشيطنة الإعلامية فحسب، إنّما كان عليهم أيضاً أن يصمدوا أمام ضغوط و«خيانات» النقابات والحزب الشيوعى الفرنسى وكل الرفاق الذين لم يستسيغوا هذا الفلتان العمالى الذي يكفر بالأطر التقليدية وتوجيهات الزعماء. حاول الحزب الشيوعى والنقابيون المقربون منه كبح/ لجم انتفاضة العمّال في محاولة لاسترداد دورهم كرعاة للطبقات الشعبية ومفاوضين باسمها مع السلطة السياسية وأرباب العمل. مثلت مفاوضات غرونيل (٢٥-٢٧ أيّار ١٩٦٨) التى جمعت ممثلين عن النقابات وأرباب العمل والدولة أولى الضربات لتحركات العمّال عبر إقرارها رفع الأجر الأدنى المضمون وتدعيم العمل النقابى وعدة "مكتسبات" أخرى. صحيح أنّ أغلب العمّال واصلوا إضراباتهم، لكن الخلافات بدأت تدب في أوساطهم: بعضهم يعتبر الاتفاق مرضياً في حين يراه آخرون دون المأمول وأن ميزان القوى في صالح المضربين ويمكنهم نيل المزيد. طوال فترة الإضراب والصعوبات المادية عدم الحصول على أجر، بالإضافة الى بداية ردة الفعل الديغولية من مظاهرات مساندة للنظام والحصول على دعم الجيش وعوامل أخرى أضعفت تدريجياً حماسة ووحدة المضربين... بدأ العمّال يعودون إلى مراكز عملهم منذ منتصف حزيران (يونيو) ١٩٦٨ في وضع ما بين الانتصار والانكسار. ومع هذه العودة التدريجية بدأ الموت البطيء للثورة في عمر أشبه بعمر كميونة باريس وشابه لاحقاً حصار الكيان الصهيونى لبيروت الذي انتهى بترحيل المقاومة الفلسطينية إلى مقبرتى تونس واليمن. حقاً تتشابه التراجيديات.

دخول الفلاحين:

شهدت مدن فرنسية عدة تحركات ومظاهرات فلاحية تُعدُّ بالعشرات، وشارك فيها مئات الآلاف خصوصاً خلال الفترة الممتدة من ٢٢ إلى ٢٦ أيّار أي في أوج الأحداث. تركزت هذه التحركات أساساً في منطقة الغرب (جهات البريتانى والبايى دو لا لوار) والجنوب (جهة لونكدوك روسيون) والوسط الشرقي (جهة الرون ألب) حيث

يوجد ثقل كبير للمزارعين ومربى الماشية. لم يكتفِ الفلاحون بتنظيم مظاهرات قطاعية، بل انضموا في بعض الأحيان إلى الاعتصامات الطلابية والعمّالية في الجامعات والمصانع أو في أماكن أخرى مثل ما حدث في مدينة نانت حيث التحق آلاف من الفلاحين بالعمّال والطلاب الذين سيطروا على وسط المدينة ومقرّ البلدية، وبدأوا في إدارة ما يشبه «الكميونة». هناك الكثير من الصور والفيديوهات تُظهر جرارات الفلاحين في قلب «الساحة الملكية» التى غيّر المعتصمون اسمها ليصبح "ساحة الشعب".

في الحقيقة، تحركات ونضالات الفلاحين (نتحدث هنا عن عمال الفلاحة وصغار الملاكين)، بدأت قبل أيّار ١٩٦٨ بسنوات. فالفلاحة (الزارعة وتربية المواشى) التى كانت إلى حدود الخمسينيات تُشغّل ثلث الفرنسيين تقريباً، تراجع ثقلها بحكم تطور الصناعة وقطاع الخدمات ونزوح الكثير من أبناء الأرياف إلى المدن الكبرى والمتوسطة. كما أنّ نمط الإنتاج الفلاحى شهد تغيرات جذرية، منها تراجع الفلاحة العائلية لصالح المستغلات الشاسعة التابعة لكبار الملاكين وشركات صناعة المواد الغذائية. هذه التغيرات خلقت طبقة عمّالية – فلاحية تعمل في المزارع والمستغلات الكبيرة وسط ظروف صعبة وبأجور متدنية. كما أنّها صعّبت الأمور على صغار الملاك الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على الإنفاق أكثر والرضى بمداخيل أقلّ لمواجهة المنافسة. كما أن انتشار الأفكار الماوية في الأوساط اليسارية الفرنسية جعل مناضلين يهتمون أكثر بعالم المزارعين ومسائلهم ويسعون لتثوير هذه الطبقة"[1].

يقول باديو ثورة ١٩٦٨ في فرنسا تأثرت بمساقات الثوسير ولاكان التى لا يمكن التقليل من شأنها، نظراً لمحتواها وما يسمى البنيوية التى هيمنت عليهما، ونظراً لطريقة عرضهما للمؤسسة الجامعية (بالمعنى الحقيقى) التى سقطت في حالة تجمد مريح وإطاعة سادتها. (لكن الثوسير لم يقف مع الثورة ولاكان انحنى لميتران بعد ٢٠ سنة!) بينما خان أدورنو طلابه فوراً. ربما لم يكن يتخيل أن الثورة هي خارج النص الأكاديمي.

(١) هذا مقتطف من مقالة محمد رامي عبد المولى في الأخبار اللبنانية بتاريخ الجمعة ١ حزيران ٢٠١٨.

تواطؤ:

بعد أقل من شهر على أحداث أيّار ١٩٦٨ العاصفة في باريس ومدن فرنسية أخرى، وافق أكبر اتحادات العمال الفرنسيين (كان يسيطر عليه الشيوعيون) على وقف الإضرابات واستئناف العمل في المصانع في مقابل منافع وتنازلات ماديّة محدودة للعمال من قبل المالكين والدولة. هذا النموذج من المناورة السياسيّة بأقل التكاليف، سمح للرأسماليّة الأوروبيّة بتجديد نفسها داخل طور جديد. إذ ما لبثت الأحزاب اليسارية واتحادات العمال وتيارات الاشتراكيين – الديمقراطيّين في دول أوروبا الأخرى، أن تسابقت بدورها لقبول رشى مشابهة، ونفذت رغبات الرأسماليين بوقف القلاقل وإعادة تطبيع الاستغلال.

وصل الأمر، كما أشرنا، إلى سفر الرئيس/ الجنرال شارل ديغول لساعات بسرية كبيرة ودون إعلام أحد حتى رئيس وزرائه جورج بومبيدو إلى ألمانيا وذلك لمقابلة صديقه الجنرال الفرنسي جاك ماسو ليتأكد من ولاء الجيش له خوفاً من محاولته الوقوف في صف المتظاهرين. ربما تذكر ديغول ما حصل في الكميونة حيث انضمت وحدات من الجيش للثوار.

انتهى الأمر بالموافقة على حل الجمعية الوطنية والإعلان عن عقد انتخابات برلمانية جديدة في يونيو والتي خرج منها الديغوليون أكثر قوةً.

لعل ما يفرق الثورة الطلابية عن شعارات أو طموحات الكميونيين أنها كانت أكثر رومانسية لا سيما برفع شعارات مثل: "سلطة الطبقة" بينما الطبقة لم تكن جاهزة لمواصلة النضال من أجل سلطتها و"ثورة الشباب" بينما الشباب وحده لا يمكنه إنجاز الثورة لمداها التغييري التحولاتي، و"الأممية الطلابية الجديدة" وكأن الأممية مجرد رغبة حماسية لا تحوُّل في التشكيلات ومواقع وخاصة علاقات الإنتاج.

ولكن، لا ننسى أنه تبلور على هامشها اليسار الجديد وهو ضد الإمبريالية ومن الطبقة الوسطى رغم ضعفه فيما يخص التقاط الأهمية القصوى للطبقة العاملة وهي

الرافعة التى تحمل النظام الرأسمالى، الرافعة التى بوسعها هدمه. ولا يقلل من دورها توسع الطبقة العاملة وتعدد شرائحها وحتى تنافس بعض شرائحها بينياً.

ومن مساهماتها إدانة الرأسمالية والإمبريالية والحروب وتحويل البشر إلى آلات. وكذلك ضمن مجرياتها أنها فتحت الطريق لكل من حركة المرأة، ومن ثم حقوق وتحرر المثليين... الخ.

أبعد من فرنسا:

ليست الثورة الطلابية أيار ١٩٦٨ ظاهرة فرنسية حصراً، وإن كانت فرنسا مهدها الحقيقى، بل قد يصح القول بأن ثورة ١٩٦٨ مستلهمة من الثورة الثقافية في الصين ١٩٦٥-١٩٧٦ ومتأثرة بالثورة الصينية أو الاتجاه الصينى، الماوية، في الشيوعية. وكما ورد آنفاً، كانت ثورة ١٩٦٨ ظاهرة عالمية بدأت في فرنسا وامتدت إلى المكسيك، وألمانيا، والصين، وإيطاليا، والولايات المتحدة... الخ، أي لم تكن ظاهرة فرنسية خاصة. لكن هذا لا يعنى أن هناك معنى لأممية طلابية بالمعنى التنظيمى الذي ينجز ثورة عالمية بمفرده أو حتى بقيادته وحده.

وكما أشرنا في غير موضع، لم تكن الثورة الطلابية مقتصرة على فرنسا، بل امتدت للكثير من بلدان العالم، وُوجهت طبعاً بالقمع. ففى المكسيك (٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٨)، حوصر الطلاب المتظاهرون وأطلقت النار عليهم بلا تمييز، فقُتل المئات وجرح الألوف واعتقل كل من حاول الفرار واختفى كثيرون منهم من دون أثر.

"... في شهر آذار/ مارس من عام ١٩٦٨، وبينما كانت فرنسا تستعد لتعيش أكبر تحركات احتجاجية عرفتها منذ الإضرابات العمّاليّة عام ١٩٣٦، كانت تونس وجامعاتها ترزح تحت وطأة العسكرة والحصار من طرف قوات البوليس وميليشيات الحزب الحاكم، و«الموجة الاحتجاجية» اليسارية بصدد الخفوت. عجّت السجون وقبو وزارة الداخلية وغيرهما من مراكز الاعتقال حينها بمئات المناضلين اليساريين المنتمين أو المقربين من التنظيم الثوري «تجمّع الدراسات والعمل الاشتراكية بتونس»، المعروف أكثر

باسم جريدته «آفاق» (برسبكتيف)، وبعض المنتمين إلى الحزب الشيوعى التونسى. وختمت أحداث «آذار/ مارس ١٩٦٨» في شهر أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، بمحاكمة ١٠١ من بين الموقوفين من قبل محكمة زجرية تم إنشاؤها لهذا الغرض وهى محكمة أمن الدولة، التى أصدرت في حقّهم أحكاماً بالسجن تراوحت بين بضعة أشهر وستة عشر عاماً ونصف.

تبلور حد برسبكتيف السياسى، خاصة بعد حسمها، بمناسبة ندوة الجزائر التى التأمت في آذار/ مارس ١٩٦٧، أسسها النظرية وأهدافها السياسية، التكتيكية والإستراتيجية. تلت هذه المرحلة عملية الحسم الأيديولوجى في صلبها وعبّر عنها إعلان تبنيها الماويّة رسمياً في أيلول/ سبتمبر من نفس السنة.

بضعة أشهر بعد هذا الإضراب، نُظّمت مسيرات طلابيّة ظهيرة يوم ٦ حزيران/ جوان، في شوارع تونس، دعماً للجيوش العربيّة في مواجهة إسرائيل و«تنديداً بتواطؤ النظام التونسى مع الإمبرياليّة الأميركية – البريطانيّة – الصهيونية». خلال هذه المسيرات طاف آلاف المحتجون شوارع العاصمة، بتأطير من «برسبكتيف» في البداية، قبل أن يفقد المنظمون السيطرة على المتظاهرين وتتحول الاحتجاجات إلى اعتداءات على السفارتين الأميركية والبريطانية والمركز الثقافي الأميركى والكنيس اليهودي الأكبر في «شارع الحريّة». وقد أكدت عدة شهادات من طرف قياديين «برسبكتيفيين» وغيرهم تواطؤ الأمن التونسى (بحضور قياداته)، وذلك عبر سماحه للمتظاهرين بمهاجمة الكنيس وبقية المراكز الأجنبيّة من دون أدنى حماية، مما غذّى فرضية التآمر الرسمى لاستغلال الأحداث لاحقاً لقمع الحركات الاحتجاجية. طالت حملة قمع كبرى في وقت لاحق من ذلك اليوم القيادات الطلابيّة ومن بينها محمد بن جنّات، المناضل «البرسبكتيفى» الذي حكم عليه بالسجن لعقدين مع الأشغال الشاقة[١].

كما أنها تأثرت بالمستوى السلبى في معسكر الثورة العالمية أي الخلاف الصينى السوفييتي، والبيروقراطية في أنظمة الاشتراكية المحققة. هذا المناخ هو الذي دفع إلى

(١) جريدة الأخبار اللبنانية بتاريخ الجمعة ١ حزيران ٢٠١٨.

ضرورة مواقف نقدية لمعسكر الثورة، النقد الذي ساوى عبثاً بين الأنظمة وبين النظرية الماركسية – اللينينية وخاصة الدور الذي لعبته بخبث مدرسة فرانكورت ولاحقاً اليسار الجديد والتى على أية حال بقدر ما هزت المعسكر الاشتراكى لكنها لم تقدم بديلاً ثورياً عملياً.

لم يتبلور عن تأثر الشباب بالصين منظمات ثورية مؤهلة للاستقطاب والتغيير بل أفرزت مجموعات رومانسية قلدت التجربة الصينية ولا سيما في الريفنة ومنهم "الفلاسفة الجدد" الذين انتهوا إلى حضن الثورة المضادة وخاصة برنارد هنري ليفى وجلوكسمان!

ففى فرنسا غادر المدن عشرات آلاف الطلاب بهدف التحول إلى بروليتاريا بالذهاب إلى الريف للعيش مع العمال تقليداً للتجربة الصينية. كانوا ينادون بضرورة تبادل التجارب والخبرات لخدمة الشعب حيث كان الشعار الرئيسى "تحالف الجماهير". ومن بين شعاراتهم: نحن نناضل ضد محافظية الحزب الشيوعى الفرنسى الذي كان اتجاهه سوفييتياً. وهذا لا يختلف عما طُرح في الصين نفسها في الثورة الثقافية أي النضال ضد البيروقراطية تحت شعار النضال ضد التحريفية.

الحزب الشيوعي الفرنسي وثورة أيار ١٩٦٨:

رفض الحزب الشيوعي الفرنسي ثورة ١٩٦٨ مخافة أن تتحول إلى ثورة لا يمكنه السيطرة عليها، أي تتجاوزه، وفي الثالث من مايو ١٩٦٨ بينما كانت الشرطة تتعارك مع المتظاهرين في الشوارع ، وقبل أسبوع من ليلة المتاريس الشهيرة نشر جورج مارشيه وكان وقتها الأمين العام المساعد للحزب الشيوعي الفرنسي، (ثم أصبح بعد ذلك زعيم الحزب ومرشحاً للرئاسة في عام ١٩٨٧) مقالاً في صحيفة لومانتيه ينكر فيه أية صحة للمصداقية الثورية للطلاب على أساس أنهم ماويون وتروتسكيون وفوضويون... وأن الحزب الشيوعي الفرنسي هو الحزب الثوري الوحيد"[١].

(١) روبرت يونغ: أساطير بيضاء، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص٢١-٢٢.

لم يختلف موقف الأكاديميين الماركسيين عن موقف الحزب الشيوعي الفرنسي، حيث أصبحوا لا يتأثرون بما يجري في الشارع وهو الانفصال الذي مثّله بطريقة مشهورة ثيودور ادورنو الذي استدعى الشرطة حينما اقتحم الطلاب مبنى الكلية التي كان يدرس بها النظرية الشيوعية[1].

لقد تأثر الطلاب بفيتنام والجزائر وكوبا وكان من بين الشعارات شعارات الثورة الثقافية "نحن القوة".

يركز روبرت يونج على تأثير الماوية ومن ثم الدور الكبير للماويين في ثورة ١٩٦٨ وخاصة أن الثورة الثقافية جسدت اقتحام الجماهير للحياة الثقافية. يقول:

"... يمكن مقابلة تاريخ العصيان الخاص بالماوية في فرنسا بعد ١٩٦٨ بتجليها السابق باعتبارها اتجاهاً موالياً للصين داخل الحزب الشيوعي الفرنسي الذي جرى تطهيره على الفور"[2].

يمكننا القول بأن التيار السوفييتي نجح في إضعاف الماوية حتى التقويض سواء في ثورة ١٩٦٨ وعلى صعيد عالمي، ولكنه تيار بعد أن ساهم في إخراج خصمه من الساحة السياسية الاجتماعية الطبقية، كان قد مهد لموته هو نفسه.

ولعل المفارقة كانت حيث هاجم الحزب الشيوعي الفرنسي هذه الثورة، فقد وصفها مفكره الأبرز الثوسير بأنها "أهم حدث في التاريخ الغربي منذ المقاومة والانتصار على النازية" فإن العمال هم الذين يظلون في النهاية الطبقة الثورية الوحيدة والأدوات الوحيدة الممكنة للثورة"[3].

ولكن الثوسير هو نفسه الذي أقر الكفاح المناهض للكولونيالية والإمبريالية في الهند الصينية، على أساس أن طابعه اشتراكي، إلا أنه يظل هنا مشغولاً بطريقة خيالية

---

(١) روبرت يونغ: أساطير بيضاء، ص٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤.

بصورة إعادة بناء الجزائر، ليس من أجل الجزائريين أنفسهم، بل من أجل جماعة من المستوطنين[1].

فقد اعتبر ثورة الجزائر كهزيمة بينما اعتبر فيتنام كانتصار. ولعل من اللافت أن الكثير ممن يوصفون بأنهم ما بعد بنويين خرجوا من الجزائر، ... وأن الحزبين الشيوعيين الفرنسي والجزائري كانا ضد استقلال الجزائر[2]. كانت جماعة الاشتراكية أو البربرية من بين قلة من اليسار الراديكالي أيدت استقلال الجزائر[3]، ص٢١.

والغريب، أن روبرت يونغ نفسه يرى أن ثورة ١٩٦٨ نشأت في أوروبا إثر المظاهرات المضادة للحرب في فيتنام[4]، ولم يلاحظ تأثير الثورة الثقافية في الصين والماوية على ثورة الطلاب في فرنسا!

الأحزاب والحركات الجديدة:

ثورة أيار ١٩٦٨ مثل الانتفاضة الفلسطينية لم يكن حزباً محدداً هو دافعها، حاولت مجموعات ماوية وتروتسكية قيادتها حيث شاركت فيها لكنها لم تقدها، كان الحزب الاشتراكي الموحد هو أكثر الأحزاب تبلوراً والذي دعم الانتفاضة كلياً. ولكنه في الانتخابات لم يحصل على الكثير لأن معظم المناضلين لم يعتبروا سياسة الانتخابات هي الإستراتيجية الشرعية، للتغيير بعد الثورة الشعبية.

في ثورة أيار ١٩٦٨، نقدت الحركات الجديدة غير الحزبية تماماً دور الأحزاب القديمة وتجاوزتها. لكنها حركات متغيرة متحركة تعلو وتهبط وتتلاشى لينبت بعدها نموذجاً آخر. والسؤال هو: كيف يمكن الجمع بين الأمرين. لقد ركز على هذه الحركات شنتال موف وأرنستو لاكلاو. ولاحقاً نيجري الذين نقدوا النموذج اللينيني للحزبية

(١) روبرت يونغ: أساطير بيضاء، ص٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣.

لكنهم ذهبوا لصالح مستوى فضفاض من الحزبية والذي لا يُثمِّر ولا يُعمِّر في التحليل الأخير. ولعل التغير السريع لهذه الأحزاب هو ما شجع الحزب الشيوعي على الإصرار على كونه الحزب "الأجدر" بتمثيل الطبقة العاملة ومن ثم اتخاذ موقفه أو قراره بأن ثورة ١٩٦٨ لا تستحق الدعم. هذا الخلط في المواقف لدى الحزب الشيوعي هو الذي ورَّط الثوسير في الزعم بأن الجزائر هزيمة وفيتنام انتصار.

تأثير تنظيرات على ثورة ١٩٦٨:

من ناحية فعلية، كانت ثورة أيار ثورة وعي سياسي حماسي بلا ثورة بنية، ثورة ثقافية بلا ثورة سياسية؟

امتداداً لنقد أو رفض الاتجاه السوفييتي والتحريفية، كان لا بد لجيل الثورة الثقافية أن يبحث عن أطروحات أخرى، لمفكرين آخرين هنا يقول بنديت:

"حاول البعض فرض ماركوزة علينا: هذه نكتة. ما من أحد منا قرأ ماركوزة. بالطبع قرأ بعضنا ماركس، وربما باكونين، والمعاصرين ، الثوسير، ماو، جيفارا، لوفيفر. وعلى وجه التقريب فإن حركة مناضلي ٢٢ آذار قرأوا سارتر"[1].

جادل أندريه جورز بأن المفهوم الوجودي للاغتراب يمكن أن يقدم أساساً نظرياً للحركة التي توحد كل من الطبقة العاملة التقليدية والجديدة حول برنامج راديكالي.

لقد ساهم كل من سارتر وكاستريادس ولوفيفر في تقوية نظرية اليسار الجديد، ولكنهم زرعوا فيها الضعف من حيث ميلهم إلى الذاتي وإهمال الموضوعي.

والسؤال هو: هل كان ذلك بتأثير بدايات ما بعد الحداثة عليهم، ورفضهم للأحزاب الشيوعية؟ هل السبب تراجع الشيوعيين سواء في فرنسا أو موسكو، وبداية

(1) Cohen-Bemdit, *The French Student Revolt*, trans. By Brewster (New York, 1968), p. 58.

تراجع الثورة الثقافية في الصين؟ هل السبب أن هـؤلاء لم يكونـوا داخـل منظمـات كمـا كانت مدرسة التبعية؟ ثم هل هي علة الثورات أن ينقصها أحد الجناحين بالضرورة؟

وبالطبع، ربما قاد هذا الخليط من المفكـرين إلى تشـتت هـذه الثـورة وتحديـداً في عدم حصول إجماع نسبي على تبني مدخل أو مشروع ثوري. كان دور جورز وفي علاقتـه بـ سارتر نقد التحريفية الماركسية مرتكزاً على أن الطبقـة العاملـة لم تعـد ثوريـة طالمـا تم تنظيمها فقط على أسـاس قضـايا اقتصـادية كـالفقر والاسـتغلال. طبعـاً إن صـح هـذا الموقف وخلا من المبالغة. وجورز صاحب نظرية الطبقة العاملة الجديدة.

بدوره وجد هنري لوفيفر نفسه في معمعان الصراع. كـان كـثير مـن حركـة ٢٢ آذار من طلابه ومنهم كوهين بنديت. دعم أعمالهم وسمح لهم باستخدام مكتبه كملتقـى تنظيمي. رأى أو نادى باحتجاج على كليـة الحيـاة اليوميـة. "احتجـاج علـى كـل شـيء، رفض كلي لكافة أشكال الاغتراب الممارس والمتوقع أنه رفض مع سبق الإصـرار الـذي يجب تبنيه"[١].

رأى كاسـتريادس أن أيـار هـو إثبـات لصـحة مزاعمـه وأفكـاره، تمامـاً كمـا رأى "الثورة الهنغارية/ المجرية"[٢] ١٩٥٦ بـنفس الشـكل. بالنسـبة لـه كلتـا الثـورتين أثبتتـا استحالة مشروع العقلانية البيروقرطية". طبعاً نلحظ هنا فوقية يسارية[٣].

رأى كاستياديس بتورط واضح أن الماركسية موشاة مدهونة بالميتافيزيقا الغربيـة العقلانية للهيمنة ووافقه جلوكسمان وليفي وتأثراً منهما بفرويدية لاكان زعماً بأن القـوة هي **ego ideal** الذات كمثال. أما برنارد هنري ليفي تحديداً، فوصل به هـوس السـقوط ليرى بأن كل مـن الاشـتراكية والرأسماليـة بربريـة[٤]، لكنـه انتهـى خادمـاً للرأسماليـة

---

(1) Lefebvre, *The Explosion* (New York, 1969) p. 67.

(٢) حتى اليوم كما أعتقد، لم تتم دراسـة أن مـا حصـل في المجـر ١٩٥٦ سـواء كـان مقدمـة لنقـد ثـوري ضـد التحريفية السوفييتية أم كان مقدمات لإسقاط المعسكر الاشتراكي، أميل إلى الثاني.

(3) Castoriadis, "La re'volution anticipate," in La Brec'he,

أنظر أيضاً كتاب عادل سمارة، ظلال يهو-صهيو-تروتسكية في المحافظية الجديدة، مصدر سبق ذكره.

(4) *Anti Oedipus* Paris 1974.

والصهيونية ومروجاً لتدمير العالم الثالث وخاصة الوطن العربي.! فهل كان عميلاً جرى دحشه في القوى الثورية إلى حين؟ إنه الفيلسوف النائم إلى حين.

رأى سارتر أن ضعف أيار يرتد إلى أن المجموعات التي انصهرت مع بعضها رفضت الشكل المنظم مخافة أن تتبقرط. وهذا ما أعطى الفرصة للبنى المرفوضة خلال أيار لكي تعيد تأكيد هيمنتها. وهنا تتبدى بالمقابل مشكلة باديو الذي يرفض البقرطة لا شك، لكنه يدعو إلى تحول لا يتوقف عند لحظة ما، مما يقود إلى عدم بناء أو تماسك مشروع محدد على الأرض. والتماسك المحدد هو آلية مركزية للإنجاز وتحقيق النصر. وهذا يطرح السؤال: ما المقصود بالتحول المتواصل وعدم التوقف عند لحظة ما؟ هل هو بالمفهوم النسبي، بمعنى أن هناك لا بد من توقف ما، ولكن على أن لا يصبح التوقف هو سيد الموقف؟

أي هي ثورة ثقافية بلا تنظيم، ثورة ثقافية لا سياسية ولا طبقية سياسية.

صحيح أن تيارات هذه الثورة التقت على رفض الوضعية (الماركسية وغير الماركسية) لمفهومها للمعرفة. فالوضعية ترتكز على منهج علمي مشتق من العلوم الطبيعية. وتجادل بأن المعرفة محدودة في نطاق أو ملكوت التثبت التحقق الامبريقي. أنها تحلل هدف المعرفة من الخارج من الأبعد. هذه المنهجية حينما يتم تطبيقها على الكائن الإنساني تمحو إمكانية معرفة الأوضاع الداخلية للوعي. في الحقيقة أنها تنكر وجودها. فالوضعية، لدى خصومها، أي بقراءتهم لها، تقزِّم الظاهرة الداخلية أو الذاتية لصالح تجليات موضوعها الخارجي (أشكال السلوك أو إشارات اللغة).

لقد ذهب الجناح الوضعي في فرنسا في الستينات والمدعو البنيوية ذهب خطوة أوسع. فإضافة إلى إنكار الواقع لصالح الظاهرة الذاتوية، أنكر البنيويون الفرنسيون مجرد وجود الذات. وهكذا فإن ليفي ستروش ادعى بأن الهدف النهائي للعلوم الإنسانية ليس لتشكل الإنسان بل لحله وتذويبه[1]. وميشيل فوكو وهو بنيوي آخر ازدرى وأهمل ونفى الذاتوية وحاكى نيتشة زاعماً "موت الإنسان"[2].

---

(1) Levi –Strauss, *The Savage Mind,* trans. G. Weindfeld (Chicago, 1977), p. 247
(2) Foucault, Michael, *The Archaeology of Knowledge ,* trand , by A. Smith (New York, 1971) and *The Order of Things,* (New York, 1970).

صحيح أن المناخ الفكري الذي أثر في مكونات ثورة ١٩٦٨ في فرنسا خاصة حينها تجاوز المدرسة السوفييتية متأثراً بمدرسة فرانكفورت، وهذا أبعد الثورة عن المفكرين الثوريين الحقيقيين ماركس، ماو، هوتشي منه وفانون.

أما لوي ألتوسير فقد شارك العديد من طلابه في أحداث مايو ١٩٦٨، إلا أنه التزم الصمت في البداية. لقد كان متردداً كما يبدو بين قناعته بالضرورة الثورية على الأقل بناء على وعيه الثوري والتوجع الماوي المخفي داخله، وبين الموقف الانتهازي للحزب الشيوعي الذي كان عضواً فيه. لكنه، للأسف حسم لاحقاً بأن وافق أو اتفق مع الموقف الرسمي للحزب الشيوعي الفرنسي باعتبار الطلاب ضحايا ليسارية صبيانية. وهذا وصف في الحقيقة يبين لنا لماذا عزَفَ الشباب عن الشيوعية التقليدية!

أما التروتسكية، رغم مشاركتها في الثورة لكنها لم تقدم بديلاً أيضاً، كان من ممثليها دانييل بن سعيد (درس في جامعة باريس الغربية نانت، وهو المولود في تولوز لأب يهودي)، من الحركة التروتسكية في فرنسا الذي يعتبر من الشخصيات القيادية في الانتفاضة الطلابية عام ١٩٦٨.

يقول بادیو في ثورة ١٩٦٨: "برزت في فرنسا الأكاديمية مساقات الثوسير ولاكان، وهي لا يمكن التقليل من شأنها، نظراً لمحتواها وما يسمى البنيوية التي هيمنت عليهما، نظراً لطريقة عرضهما للمؤسسة الجامعية (بالمعنى الحقيقي) التي سقطت في حالة تجمد مريح وإطاعة سادتها"[١].

وقف الثوسير ضد التجريبية والتاريخية، الإنسان **Man** بلا تاريخ بينما للطبقة تاريخاً. (ص١٦٥، هيرش)

ولكن، إذا كان الفرد بلا تاريخ فكيف يمكننا فهم توسط امتداد الفرد من ذات إلى عابرة للجماعة[٢].

---

(1) The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015.

(٢) أنظر عادل سمارة، كتاب المثقف المشتبك والعمليات الفردية روافع لتجاوز الأزمة، (الجزء بالإنجليزية) منشورات مركز المشرق/ العامل للدراسات الثقافية والتنموية، رام الله، ٢٠١٧، والطبعة الثانية عن مكتبة بيسان– بيروت، ٢٠١٨.

هل اشتغاله بالمعرفة بالماركسية كعلم هو ما أبعده عن ١٩٦٨؟[١].

في تبريره للعلم اعتمد على ابتعاد العلم عن التجريب ومن ثم ارتكز على الرياضيات.

كما فك العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم لأن الأيديولوجيا امبريقية تعتمد على تحليل وقائع العالم الاجتماعي.

كان يخفي ميوله الماوية، لذا حينما طرد الحزب ٦٠٠ من رفاقه لم يحتج.

سارتر وكستياديس ولوفيفر هاجموا البنوية بدفاع عن أنفسهم، بتركيز على تقزيم البنيوية للتوجه التاريخي. كما ناقشوا زعم الموضوعية لدى البنيويين حيث أنها لم تعترف بذاتية الباحث. رداً على تهمة التاريخانية فإن اليسارين الجدد اتهموا البنيويين بالعلموية.

جورز مثل كاستريادس ركز على التسيير الذاتي كمدخل لتجاوز معضلة اشتراكية السوفييت، ورقابة العمال على المصنع لتجاوز الاغتراب في المصنع والمجتمع.

لكن جورز متردد، فهو إضافة لما هو أعلاه رأى أن شريحة العمال الذهنيين والمثقفين والتقنيين هم طليعة الطبقة العاملة وهم أكثر ثورية من عمال الإنتاج. وأن أداة الثورة هم البروليتاريين المابعد صناعيين واللاطبقيين. لذا، ومن تجربة أيار هو إذن مع تمييع الطبقة ولكنه يريد حزباً يلائمها وليس الحزب اللينيني الطبقي. بل مع حزب جماهيري (مثل خروتشوف حزب الشعب).

وهكذا، بين تخاذل الحزب الشيوعي في فرنسا، وتلاطم الأطروحات الجديدة وحامليها الجدد وجدت الثورة الطلابية نفسها بلا دليل نظري، وقيادي ثوري متقارباً إن لم نقل موحداً.

---

(١) هيرش، ص ص١٦٦-٦٧، مصدر سبق ذكره.

الانحسار الثوري:

بعض من كانوا أساسيين في أيار ١٩٦٨ أصبحوا اليوم ساسة عاديين. كوهين بنديت مثلاً يقول: "... **نحن في عالم مختلف، لقد تغيرت الأوضاع كلية، وبناء على ذلك يمكننا إحياء ذكرى السنوات الأفضل في حياتنا مع شعور داخلي نقي لم يحدث أي شيء بعده ذي أهمية بالنسبة لنا. نوستالجيا وفولكلور**". ص٣٣.

ربما يفيد هذا الحديث في استرجاع موقف الحزب الشيوعي الفرنسي بأن ثورة ١٩٦٨ كانت صبيانية يسارية. صحيح أن رومانسية طلابية كانت حينها، ولكن هذا لا يعفي الحزب العريق من تطويرها إلى ثورة مكتملة طبقياً ومشروعاتياً. أما حديث كوهين بنديت، فيؤكد مقولة الحزب الشيوعي، لكن بعد عقود! أمر مضحك حقاً، حين يتحول الثوري إلى جزء من ماكينة الإمبريالية.أنظر لاحقاً كيف يصف حركة السترات الصفراء.

"... أما الحديث الأكثر تشاؤماً بل وانحطاطاً فهو إننا نُحيي ذكرى ١٩٦٨ بعد أن أصبح الإنتاج الحقيقي والبطل الحقيقي لها هو النيو-ليبرالية الرأسمالية المنفلتة من أية قيود. الأفكار التحررية لـ ١٩٦٨، التحول في الحياة التي نعيشها، الفردية وطعم الـ**jouissance** تحول إلى واقع بفضل رأسمالية ما بعد الحداثة وعالمها البراق بمختلف أنواع الاستهلاكية. وأبعد من هذا، فإن ساركوزي نفسه هو نتاج ١٩٦٨، بأن تحتفل بـ أيار ١٩٦٨، كما يدعونا اندريه جلوكسمان أن نفعل، هو أن نحتفل بالغرب النيوليبرالي حيث أن الجيش الأمريكي يدافع بشجاعة ضد البربرية[١].

لنتذكر ما كتبه مثقفون صينيون مشابه لهذا (كما ورد في فصل الثورة الثقافية)، مما يدل على أن السقوط الثقافي ظاهرة معولمة.

للتغطية على دورهما العميل للرأسمالية وبحجة تحليل أسباب فشل الثورة الطلابية، فإن اندريه جلوكسمان وبرنار هنري ليفي قد وجدا ضالتهما لدى سولجنستين الذي قال "أن الاشتراكية مستحيلة" فوجدا هذا سُلَّما ينزلان عليه من الماوية ومغامرة

(1) The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015, p. 33-34.

حرب فلاحين فاشلة وقصيرة المدى في فرنسا إلى الصهينة! كما ذهبا إلى نيتشة، أيضاً وهما اللذين كانا الثوسريين أصبحا متفقين مع فوكو ولاكان. بدوره كتب فوكو مراجعة مادحة لعمل جلوكسمان ونشره في **Le Nouvel Observateur 9 May 1977 w 206**.

لو كان لنا وصف هذا الطرح من أحد فلاسفة ثورة ١٩٦٨، فربما نقول بأن هذا الرجل هو في الحقيقة كان لغماً مخابراتياً في الثورة. يمكنك القول بأن بنديت التحق بالطبقة البرجوازية، أما أن يصل فيلسوفاً للتفاخر بالجيش الأمريكي الذي لا بقعة في العالم لم ينزف فيها الدم على يدي هذا الجيش! هذا طرح أسوأ من فاشي فربما الكثير من الجيش الأمريكي لا يقولون ذلك ولا حتى كثير من جنرالاته!.

لعل قمة مأساة تخاذل مثقفي ١٩٦٨، هو تمكُّن متيران من احتواء المثقفين بعد السنين الحمراء للثورة الثقافية، حتى أن جاك دولوز قَبل العشاء مع ميتران. يقول آلان باديو إن تسمية: "السياسة الثقافوية" مناسبة لنظام الأوهام هذا. إنه هزيمة بلا مجد، وفشل غير ملحوظ/ مكشوف في السلطة. إنها نهاية أكثر من عشرين سنة (ربما حتى الأزمة الحالية) والتي أسمها الحزب الاشتراكي. أوِ، صار يجب مرة أخرى قول ما قاله اراغون، بتشجيع من ستالين، الذي قال ذات مرة: "**أطلق النار على لحى الديمقراطية الاجتماعية الراقصة**". ولكن، ما من أحد حتى فكر في القيام بذلك"[(١)].

هنا تفيد المقارنة مع القول التالي لـ ماو تسي تونغ: "**إن منطق الإمبرياليين وجميع الرجعيين في العالم هو أخلق اضطرابات، افشل، اخلق اضطرابات مجدداً، لكن منطق الشعب أن يقاتل، يفشل، ثم يفشل مرة أخرى، فيقاتل مرة أخرى... حتى انتصاره**".

The logic of imperialists and all reactionaries the world over is 'make trouble, fail, make trouble again', but the logic of people is fight, fail, fail again, fight again,...till their victory"[(2)]

- **The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015**

(1) The Allusion is Louis Aragon's poem (Front Rouge).
(2) last away illusions, Prepare for Struggle' Selected Works of Mao Tse-Tung, Vol. IV, Foreign Languages Press, 1969, p. 248.

أحد الشعارات الماوية العظيمة في "**السنوات الحمر**" كان "**تجرأ على النضال وتجرأ على النصر**". طبعاً نعلم أنه ليس سهلاً اتباع هذا الشعار حينما تكون الذاتوية متخوفة ليس من القتال بل من النصر[1].

لقد تجرّأ ماو على النضال وعلى النصر إلى أن تحررت الصين، وتجرّأ على النضال مجدداً بالثورة الثقافية. صحيح أن الثورة هزمت، لكن الضرورة لم تُهزم وتراثه لم يُهزم.

إنجازات:

ضمن منجزات ١٩٦٨ ليس فقط توسع تيار التسيير الذاتي بل كذلك نهوض نسوي مجدداً. حركة التحرر النسوي في فرنسا. فقد بدأت النساء الناشطات ببلورة مجموعات صغيرة غير رسمية بداية رداً على ذكورية شوفينية الرجل في أيار ولكن أساساً كاستمرار وتعميق للثورة ضد المراتبية والسيطرة التي شنتها ثورة أيار. كانت أول منظمة نسوية علنية هي "سياسة التحليل النفسي" **Politique et psychanalyse** التي تكونت أيضاً عام ١٩٦٨. وأسستها انطوانيت فوكييه وهي من مدرسة لاكان في التحليل النفسي. وهي حركة سريعاً ما أسَّست نفسها كمركز ثقافي للحركة الجديدة. كان هدفها وضع طباق نسوي للمادية التاريخية وللتحليل النفسي ماركس وفرويد.

في آب ١٩٧٠ قامت مجموعة صغيرة من النساء (وضمنهن الكاتبة كريستين روشيفورت ومونيكا ويتج) بوضع إكليل على قبر الجندي المجهول تقول: "إلى الزوجة المجهولة للجندي". شن الإعلام حملة ضد هذه الإهانة لتضحيات جيش فرنسا. العجيب هو: أين هي تضحيات جيش فرنسا؟ هل هي غير مقتل الجنود الفقراء في الخارج لتهب الأمم الأخرى لصالح البرجوازية؟

مما طرحته ثورة ١٩٦٨ أن الفارق بين الجنسين ليس طبيعياً بل نتاج السيطرة

(1) The Communist Hypothesis, Alain Badiou, Verso, 2015.

ويجب إلغاء الوضع القانوني لمؤسسة الزواج والأسرة أو تحويلها جذرياً. طبعاً بداية هذه التوجهات حديثاً في الغرب كان كتاب سيمون دي بوفوار الجنس الآخر ١٩٩٤[١].

وهنا أيضاً، لا بد أن ننظر إلى مآل الحركة النسوية في فرنسا والغرب عموماً بمعنى أن هذه الحركة على تنوع مدارسها وخاصة الراديكالية وحتى المتعلقة بالنساء السود، أي الأشد فلتاناً، انتهت إلى خمود هائل!! فهل المشكلة في ضعف الأصالة أم في تناول المعضلات الاجتماعية بترف فكري بحت؟. يبدو أن مختلف المدارس النسوية الداعية لمختلف أشكال التغيير والرفض قد خبت جذوتها لتبقى على السطح النسوية الليبرالية المرتكزة على ثقافة السوق ورأس المال[٢].

ويمكن التساؤل في هذا الصدد، أليس عجيباً أن كل ما حصل للنساء في ليبيا والعراق وسوريا واليمن، ناهيك عن فلسطين، على يد الولايات المتحدة بأدواتها قوى الإرهاب التكفيري لم تُثر الحركات النسوية العالمية بشكل يُذكر! هل السبب عنصرية بيضاء؟ عنصرية جندرية؟ أم احتواء رأس المال وحتى الوهابية لهاتيك النسوة. (راجع مقالتك عن الماركسية الثقافوية والوهابية)

صحيح أن ثورة ١٩٦٨ أسَّست لنقد تغييب النساء السود الإثنيات المهمشين... الخ. ولكن كما اتضح تم توظيف كل هذا لنقد الماركسية وليس لصالح الثورة.

النتائج:

كان الاحتجاج بثلاثة أضلاع كما ورد أعلاه: احتجاج الطلاب وإضراب العمال وأزمة الثقة في الحكومة التي تقودها الانتخابات البرلمانية.

(١) كان كلاً من الجاحظ ومن ثم ابن رشد قد حسما هذا الأمر باكراً، أنظر كتاب عادل سمارة: "تأنيث المرأة بين الفهم والإلغاء".

(٢) على الرغم من فضيحة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون مع عشيقته مولينسكي، ورغم قيام الرئيس الأمريكي الحالي دونالد ترامب باستخدام ابنته في الحصول على الأموال من حكام السعودية، وقيام رئيس وزراء بولندا مؤخراً بنفس السلوك، أي تسليع المرأة إلا أن هذا لم يحرك الحركات النسوية للدفاع عن إنسانية المرأة.

وقد تم حلها لصالح الوضع القائم: فللطلبة فتحت الجامعات مع تعديل وإصلاح في البنية، وعاد العمال للعمل مع تعديل في الأجور حيث أكلها التضخم، وعانى اليسار من هزيمة انتخابية كبيرة مؤلمة بفقدان مليون صوت. وتم قمع المناضلين في الجامعات وأماكن العمل ومنعت المنظمات اليسارية واعتقل قادتها. أما الحزب الشيوعي فهاجمها وطالب بالعودة للوضع السابق بأسرع ما يمكن، ربما تخلصاً من الحرج الذي أصابه نظراً لموقفه السلبي من الثورة.

ولكن بالمقابل، تلى الثورة طرح قضايا لم تكن قيد التركيز من الحركة الشيوعية التقليدية سابقاً مثل الإثنيات والنسويات وعمال الخدمات الأخرى والعناية الصحية وأوضاع السجون والعمال الأجيرين في غير قطاعات الإنتاج المستأجرين، البيئة... الخ.

لقد فتحت الثورة الباب على مصراعيه في كافة مناحي الحياة. وهذا السؤال من المفترض أن يمنحها قدرة استقطاب أوسع، الأمر الذي لم يحدث لاحقاً على الأقل في الانتخابات النيابية، ربما لأنها بلا تنظيم. لأن التنظيم هو أداة تثمير الجهد الثوري. ولنا أن نسأل: هل كان مفكروها في تنظيمات، وإن حصل هل كانت فاعلة؟ الواضح أنه لا.

أم كان الذين ضدها في تنظيمات حزبية؟ والجواب نعم. كانوا في أحزاب؟. قد تكون المعضلة أن المفكر حتى لو مع الثورة فلا يكفي، لا بد من الحزب ولا بد للطبقة العاملة التي تفرز الحزب على أن يأخذ مصالحها وتوجهاتها العامة لا أن يأمرها من الأعلى.

لقد وفرت هزيمة الثورة دعماً للبنيوية التي رأت أن الأفراد لا يمكنهم تغيير البنى الاجتماعية.

كان ثوريو ١٩٦٨ يعتقدون بالإمكانية الثورية والتغيير ضد الرأسمالية في البلدان الصناعية. كأن هذا تكرار لأطروحة ماركس نفسها أن الثورة الاشتراكية ستحدث في الدول الصناعية على يد البروليتاريا. ولكن كما ارتكزت أطروحة ماركس على البروليتاريا فإن ثورة ١٩٦٨ أيضا انضم لها العمال الشباب، ولكنها افتقرت إلى

الحزب القيادي. لكن الفارق بين أطروحة ماركس وأطروحة ١٩٦٨، هو اختلاف المرحلة، بمعنى أن موقع الثورة المفترض في القرن العشرين هو العالم الثالث وليس البلدان الصناعية. هذه البلدان لم تكن مرشحة كموقع للثورة في فترة حياة ماركس، كما لم تكن مهيأة حين ثورة ١٩٦٨، فرغم وجود احتمالات ثورية بلدان العالم الثالث في فترة الثورة الطلابية إلا أن باندونغ كان يعاني تراجعه الذي لا نهوض بعده. فقد انتصرت الثورة المضادة في إندونيسيا بمذبحة عام ١٩٦٦، هُزمت مصر عام ١٩٦٧، وتغير نظام بن بيلا بانقلاب هواري بومدين ١٩٦٥، وكان الاتحاد السوفييتي قد حقن كثيراً من البلدان الحليفة له بـ"طريق التطور اللارأسمالي"... الخ.

أما في الغرب، فكان أندريه جورز ممن كتبوا في ثورة ١٩٦٨، وأخذ درساً أكده وهو الحاجة للحزب، ولكنه وقد أكد على الحزب، قدم تفسيراً مميعاً للطبقة[١]. هذا يؤكد أن الثورة كانت بحاجة إلى بنية حزبية طبقية لمواجهة بنية السلطة البرجوازية.

يمكن التعبير عن مأساة ثورة ١٩٦٨ فيما كتبه ميشال فوكو بعد الهزيمة:

"... ما يحاول الطلبة القيام به... وما أحاول أنا نفسي إنجازه... هو من حيث الأساس الشيء نفسه... ما أحاول القيام به هو التقاط النظم المحتواة ضمنياً، الكامنة والتي تحدد معظم سلوكنا المألوف دون أن ندركه. إنني أحاول الكشف عن أساسه، تبيان تشكيلتها، والمحددات التي تفرضها علينا، وبناء على ذلك أحاول تجليس نفسي بمسافة ما عنهم وتبيان كيف يمكن للشخص أن ينجو بنفسه"[٢].

جميل يا فيلسوف موت السياسة، حمداً لله على سلامتك! طبعاً فوكو في نهاية حياته أيَّد الليبرالية الجديدة، وهذا أمر مفرط في الطرافة. فإذا كان قد ركز على السلطة والسجن والقمع البيولوجي فإن الليبرالية الجديدة هي سجن معولم.

---

(1) Andre' Gorz, " *What are Lessons of the May Events*? In Charles Posner (ed), *Reflections on the Revolution in France*: 1968 (Baltimore, 1970), p. 264.

(2) " What the students are trying to do … and what I myself am trying to accomplish …is basically the same thing. .. What I am trying to do is grasp the implicit systems which determine our most familiar behavior without our knowing it. I am trying to find their origin, to show their formation, the constraints they impose upon us; I am therefore trying to place myself at a distance from them and to show one could escape.

وهكذا، ليس غريباً على ميشيل فوكو الذي وصل إلى موت السياسة أن ينتهي مبتهجاً بالنيوليبرالية[1]. طريف حقاً، أن ينتهي جلوكسمان مفتخراً بالجيش الأمريكي وأن ينتهي فوكو مُطرياً النيوليبرالية. أما برنارد هنري ليفي فأصبح مقاول خدمات الإمبريالية والصهيونية ضد الثورة. لعل من المجدي التساؤل عن مدى جدية مفكرين كهؤلاء! هل هم فلاسفة أم عابثين بالثقافة! وقد يؤكد هذا قبول دولوز أن يحتويه جورج بومبيدو!! أم أن هؤلاء من الطابور الثقافي السادس المعولم؟

(١) هل يمكننا انتقاد ميشيل فوكو Foucault and Neoliberalism Daniel Zamora Polity (2016)

خاتمة:

ثورة طلابية نعم، لكن في البدء، وهو أمر طبيعي لأن الشباب هو الأقرب والأكثر استجابة للنبض الشعبي ومفجر للحراك والأقل تحفظاً معيشياً وحياتياً والأقل ممالئة للحكم، أياً كانت طبيعته ودوره. بدأت طلابية وانتقلت عمالية وفلاحية كما هي أية ثورة شعبية من حيث البدء والامتداد. كانت ثورة ضد السلطة، وضد الطبقة بلا مواربة، ضد طبيعة النظام ونسق الحياة الذي بسطته البرجوازية بكل ما فيه من توازن لئيم بين الاستغلال والحرية الشكلانية للطبقات الشعبية، وهو الأمر الذي يبادر الشباب للتمرد ضده.

توفَّر المناخ فكان الحدث، وتوفر مفجر الثورة فكانت الثورة، توفرت شعاراتها وشحنتها الثورية لما يُطاول السماء، لكن غاب حزبها المفترض، ولم تُمهلها البرجوازية، وهي العدو والنقيض الطبقي الواعي جيداً لمصالحه، كي تبلور حزبها، ولم تساعدها خلافاتها الداخلية حتى في حسم ضرورة الحزب. كيف لا والفلتان وإن كان جميلاً ورومانسيا في آن، لكنه لا يُثمر الإمساك بمواقع السلطة، وإن كان يترك ورائه بذوراً جميلة تُبشِّر لزمن مختلف قادم هو ما قصدناه بالهزائم الوقتية المنتصرة تاريخياً.

كانت المشكلة هي: كيف يمكن للثورة الانتظام في حركة سياسية طالما بنيتها الأيديولوجية متفارقة. صحيح أن هدفها الإستراتيجي متقارب إلى حد التوحُّد، ولكن العمل الميداني والمرحلي والتكتيكي لم يحمل ما يُمَكِّنه/ يؤهله توليد حزب لا خلال الثورة ولا بعدها! كانت عاصفة ثورية قوية لكن تنقصها المنظمة الشيوعية.

لا شك بأن لتطور قوى الإنتاج الدور الحاسم في التحليل الأخير في ديالكتيك قوى وعلاقات الإنتاج. لكن، هل ستستند الاشتراكية إلى تطور قوى الانتاج أو ديالكتيك القوى والعلاقات هكذا بشكل ميكانيكي؟ وهل يمكن لهذا تجاوز القوة الشعبية المتحزبة كي تُخرج قوى الثورة من إسار هيمنة الثورة المضادة فترتقي مهمتها من مطلبية إلى تغييرية لكل شيء.

ربما اتضح من هذه التجربة أن تعدد مراكز القوى في الثورة وتفارقها يُعادل في مسألة الهزيمة غياب الحزب الثوري نفسه.

في خضم الاشتعال الثوري، لا بد من أنا جمعية " موحدة لضمان النصر.

حاشية:

في الخامس عشر من أيار ٢٠١٨ طافت باريس عشرات الآلاف من المحتجين على سياسات الرئيس الفرنسي ماكرون الموجهة ضد العمال حيث تقلصت حمايات العمال. وحمل العمال يافطات تقول: "توقف يا ماكرون" "يسقط رئيس الأغنياء" "فرنسا تحت ديكتاتورية ناعمة". وقد قدرت الشرطة عدد المحتجين بـ ٤٠ ألفاً بينما قدرتهم القوى اليسارية بـ ١٦٠ ألفاً. كما جرت مظاهرات في مدن أخرى منها تولوز وبوردو. كانت التظاهرة سلمية وانحصر القمع في قنابل الغاز كما تزعم الشرطة[1]. بعد أشهر قليلة شهدت فرنسا وحتى اليوم حراكاً جديداً قام به من أسمو أنفسهم بـ "السترات الصفراء" الذين يحتجون ضد سياسات الرئيس الفرنسي، ولكن هذه المرة بأعداد أكبر وبشكل متواصل كل يوم سبت **(هذا حتى آذار ٢٠١٩)**.

ليست هذه الحاشية رصداً ليوميات هذا الحراك، ولا لمقارنتها بثورة ١٩٦٨ ولكن فقط للتذكير المقارن بمثقفي الطابور السادس سواء الذين عايشوا ثورة ١٩٦٨ أو غيرهم. لذا، نقتطف من مقالة عثمان تزغارت ما يلي:

"حراك «السترات الصفر» يعرّي بؤس النخب!

عثمان تزغارت زعيم تيار «الفلاسفة الجدد»، برنار هنري ليفي، قارن «السترات الصفر» بـ «السترات السود» النازية، مبشّراً بأن هذا الحراك الذي «يعج بالفاشيين، من اليمين واليسار على السواء، سينتهي حتماً في مزبلة التاريخ»، وأطلق «هاشتاغ» على تويتر لتأييد الرئيس ماكرون في مواجهة من سماهم «أعداء الجمهورية!» من جهته، وصف قطب آخر من أدعياء «الفلاسفة الجدد»، وهو باسكال بروكنر، أصحاب «السترات الصفر» بأنهم «برابرة وليسوا مستضعفين»، محرّضاً السلطات على التعامل معهم بمزيد من الحزم الأمني، مستشهداً بمقولة باسكال الشهيرة «العدالة من

(1) https://www.rt.com/news/425927-france-protest-paris-live/ RT.COM

دون قوة هي العجز بعينه». في المنحى ذاته، لم يتردد الفيلسوف والوزير السابق لوك فيري في مطالبة قوات الأمن علناً بإطلاق النار على المتظاهرين الذين يقترفون أعمال عنف أو تخريب!. الموقف التحريضي ذاته تبنّاه زعيم الطلبة خلال انتفاضة مايو ١٩٦٨، دانييل كوهين بنديت، شاجباً «أعمال التخريب التي طاولت جادة الشانزليزيه التي هي الواجهة السياحية لفرنسا عبر العالم». حين تم الرد عليه بأن انتفاضة مايو ١٩٦٨ بدورها تخللتها أعمال عنف ألهبت على مدى أسابيع «الحي اللاتيني» الذي يعد الواجهة الثقافية لفرنسا عبر العالم، أجاب بنديت بأنه «خلال مايو ١٩٦٨ كانت هناك أعمال عنف بالفعل، لكننا لم نشهد أعمال نهب كما رأيناها مع السترات الصفر». أعمال النهب الهامشية التي تخللت بعض التظاهرات، وبالأخص في باريس، اعتبرها بنديت سبباً كافياً للوقوف ضد «السترات الصفر» وتجديد تأييده لـ «صديقي ماكرون، الذي لا أعيب عليه سوى كونه يعاني مما يمكن وصفه بمتلازمة التلميذ الأول في الصف، إذ إن ثقته الشديدة بنفسه تجعله يبدو متعالياً، لكن إصلاحاته تسير في الاتجاه الصحيح! الوحيد الذي شذّ عن القاعدة من بين أقطاب النخب الجديدة هو الفيلسوف وعضو الأكاديمية الفرنسية ألان فنكلكروت. لكن دوافع تأييده لـ «السترات الصفر» تندرج في خانة العذر الأقبح من الذنب. فقد أشاد بكون الحراك يحمل ألوان **Bleu, Blanc, Rouge** رمز العلم الفرنسي، بدلاً من الـ **Black, Blanc, Beur** شعار التعدد العرقي الذي ترفعه الجمعيات المناهضة للعنصرية في فرنسا. ورأى أن غياب أبناء المهاجرين من شباب أحياء الضواحي عن هذا الحراك يعد «ظاهرة صحية تدفع إلى التفاؤل!»[1]

نجحت «السترات الصفراء» في ازدراء ونزع القناع عن الأسطورة المهيمنة حول ما يسمّى «بالديمقراطية» التمثيلية المملوكة «للطبقة السياسية» التي لا تمثّل إلّا نفسها، إنّه هذا الطَّيف من العاملين بالسياسة من كلا يمين ويسار الوسط.

وكما التحق العمال بثورة الطلاب ١٩٦٨، فقد انضمّ التلاميذ الفرنسيون إلى انتفاضة الستر الصفراء ليتظاهروا على طرائق القبول الجامعي غير الديمقراطية التي

(1) https://www.al-akhbar.com/Opinion/264835

قدمها ماكرون، حيث عطّلت ١٧٠ مدرسة ثانوية كاستجابة لنداء «الثلاثاء الأسود» الذي أطلقته نقابتهم. كما بات هنالك إحياء للإضرابات والاحتجاجات بين موظفي الخدمة العامة والممرضات والمدرسين، وجميعهم حصلوا على إلهامهم من نجاح «السترات الصفراء».

انتقلت شرارة احتجاج «السترات الصفراء» إلى بلجيكا وبريطانيا والبرتغال وهولندا وهنغاريا والعراق ولبنان ومصر وغيرها. حتّى في ألمانيا، ولكن بأعداد أقل، رأينا عمّال شركة «أمازون» الألمانية وهم يرتدون السترات الصفراء في عيد الميلاد في محاولة للإضراب، لتهديد أرباح الشركة في أكثر وقت مزدحم في العام، وتبعه جهدٌ لضمّ عمّال شركة «أمازون» البولنديّة. هذا رغم أن مركز انبثاق حرارتها بقي في فرنسا.

ولكن الغدر إياه ومن القوى إياها، ويبدو بأنّ أحزاب اليسار الراديكالية (مثل جماعة ميلانشون)، ومعها أحزاب اليمين المتطرفة (مثل جماعة ماريان لوبان) لم تدخل الاشتباك! مما يعيد إلى الوعي مشهد ثورة ١٩٦٨. حيث لعبت قيادة الاتحاد العام للعمّال (**CGT**) وغيرها من النقابات الدور السلبي ذاته في ١٩٦٨. لقد تجنبوا المواجهة والتقوا مع الحكومة في الكواليس ليخرجوا باقتراحات للقيام بإضرابات تتمّ على أشهر يُنهك فيها العمّال.

لافت أن تحضر الصهيونية كرأس حربة للثورة المضادة عارية في كل حدث ثوري حقيقي. ففي تظاهرة للسترات الصفراء مر يهودي بالصدفة فشتمه أحد المتظاهرين بقوله: "أيها الصهيوني القذر".

https://m.youtube.com/watch?v=odSP37Rcb7c

الأمر الذي حرّفه الإعلام والسياسة البرجوازية الممولنة الفرنسية باعتباره ضد السامية مما أغرى رؤساء فرنسا هولاند وساركوزي وماكرون للتظاهر ضد السترات الصفراء بزعم أن المتظاهرين ضد اليهود! هكذا تقوم البرجوازية بالكذب، لكن هذه المرة على الفضاء[1].

(1) https://www.al-akhbar.com/Opinion/267274

ملاحظة:

فُرض في فرنسا نظام التقشف لـ ١٩٨٢-١٩٨٣، وحينما ذهب العمال إلى الإضراب ضد تالبوت تم وصفهم كإرهابيين شيعة، ص٤٦. ضعها بجانب حذف مادة الكميونة وكذلك لوصف فرنسا الحالية.(باديو، الفرضية الشيوعية ٢٠١٥، ص٤٦). واليوم أي شباط ٢٠١٨ وفي تحريضها ضد نظام الرئيس نيكولاس مادورو في فنزويلا، فإن أمريكا تتهم حزب الله وإيران بأن لهما نفوذاً في فنزويلا وأمريكا الجنوبية. ألا يؤكد هذا مقولة ماو تسي تونغ بأن الإمبريالية نمر من ورق، ما أسرع أن ترتعد وتكذب!

الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧:

مناخات الحدث:

في البدء كانت المساومة:

يجوز القول بأن اعتماد أي تحليل على الصُدف وتوكئه على، لو حصل كذا لكان كذا، هو اعتماد لا يمتُّ بصلةٍ للتحليل العلمي. ولكن في كثير من الحالات تكون مجموعة من الصدف هي الطريق الطبيعي إن لم نقل الحتمي إلى الضرورة. والصدفة حدث صغير وفي حال تراكمه وتكراره بتقاطع بَيْنِي يصبح حدثاً كبيراً ومُقرِّراً. وبالطبع ليس شرطاً أن ينتج عن مجموعة صدف حدثاً واحداً يمثِلها.

هذا حال الانتفاضة الفلسطينية لعام ١٩٨٧ (نسميها من الآن ولاحقاً انتفاضة ١٩٨٧) بما هي حراك شعبي واسع شمل معظم الطبقات الاجتماعية في الأراضي المحتلة ١٩٦٧ وجرى من فلسطينيي المحتل ١٩٤٨ تضامناً وحتى مشاركة بالحراك واجهه العسف الاحتلالي الصهيوني مما أدى إلى تقديم الشهداء، ثلاثة عشر شهيداً على الأقل من المحتل ١٩٤٨ . لكن هذا الصعود تواقت زمنياً مع حالة من الهبوط النضالي الفلسطيني خارج الأرض المحتلة أي تدهور م.ت.ف والواقع الرسمي العربي الذي استمات لمنع انتقال الفعل الانتفاضي إلى الشارع العربي فساهم في اغتيالها. هذا إلى

جانب تدهور المعسكر الاشتراكي كظهير للشعوب المضطهَدة، وكل هذا كان في خدمة الثورة المضادة[1] حيث كانت قد دخلت حقبة العولمة واعتمدت سياسة النيوليبرالية مما سمح لها بهجوم على الكوكب لم يتوقف بعد، وقد لا تكون قمته الحرب التجارية المعولمة بقيادة إدارة دونالد ترامب والتي من المحتمل انتقالها إلى حرب أحدث أسلحة الفتك الإمبريالي.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الانتفاضة كحدث مستقل، ذاتي الحُدوث، سواء كان تواشج صُدَفٍ أم لا، قد وُوجه بسياسات رسمية عربية ليست بحدث ذاتي الحراك وإنما بقرار رسمي واعٍ لما يخدمه. أي تمت مواجهة الحدث التاريخي بقرار/ات سياسية طبقية مصلحية تابعة ومضادة للشعب العربي بأسره بوعي وعن سبق إصرار.

حَسَمَ العدوان الصهيوني عام ١٩٨٢ ضد المقاومة في لبنان ووصول جيشه إلى بيروت مصير م.ت.ف حيث خرجت من الكفاح المسلح إلى النضال السياسي وتحديداً الانتقال من التحرير إلى الاستدوال وهو الانتقال الذي بدأ بقبول الخروج/ الطرد من لبنان إلى تونس واليمن، وإلى أللامكان!

جادل كثيرون بأن قيادة المقاومة قررت الخروج لأن البيئة اللبنانية وخاصة البيروتية غدت مجافية لها، ولأن الأنظمة العربية والاتحاد السوفييتي لم يقاتلا معها... الخ. وهذه أمور صحيحة، لكن كان بوسع قيادة المقاومة الانتقال إلى سوريا أو شمال لبنان والاندماج مع الحركة الوطنية اللبنانية وخاصة القوى الحليفة للمقاومة الفلسطينية. وهذا كان الخيار الطبيعي والضروري لا سيما وأن وقائع ما بعد ذلك أثبتت صحة هذا الخيار حيث تبلورت مقاومة لبنانية حقيقية انتهت بانتصار هذه المقاومة وخاصة حزب

(١) دائماً يجب التنبه إلى أن الثورة المضادة موجودة قبل الثورة، وإلا، ما ضرورة حصول الثورة. بمعنى أن الثورة ليست ترفاً بل ضرورة لاقتلاع واقع مضاد لها. هكذا قرأت ما حصل في الوطن العربي فيما يسمى الربيع، بمعنى أن الثورة المضادة تمكنت من اختطاف الحراك الثوري في بعض هذه الأقطار لأنها كامنة تحت الجلد بل حتى هي في الحكم.

الله وطرد الاحتلال من معظم الأرض اللبنانية المحتلة. أي جرى الإثبات بأن المقاومة هي الحل وبأن حرب الغوار قد دخلت طوراً جديداً من التطور سواء باستخدام التقنية الأكثر تقدماً إلى جانب البندقية، واعتماد القتال الغواري إلى جانب مستوى من الجيش النظامي، وهو ما اتضح لاحقاً في هذه المزاوجة في تجربة الجيش العربي السوري. بكلام آخر، عجزت قيادة م.ت.ف عن فهم تجربة ومقولة ماو تسي تونغ بأن المقاومة سمكة لا تعيش إلا في مائها أي بين الناس، الشعب.

لقد أثبتت المقاومة اللبنانية بدءاً بالقومي السوري والشيوعي وصولاً إلى قمة الدور والتطور لحزب الله بأن الهليوكبتر لم تتمكن من إنهاء دور المقاتل والبندقية. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مقاومة حزب الله كانت ولا تزال في بيئة نصف مؤاتية أي لأن نصف لبنان هو سياسياً في قيادته وجمهوره (الطائفي، والبسيط والمرتزق) مع الثورة المضادة علانية. أما في سوريا فحرب ومقاومة ضد النظام الرأسمالي العالمي بثلاثية الثورة المضادة الرأسمالية العالمية والصهيونية اليهو/ عربية والكمب/ هابية العربية.

لكن الحقيقة المُرَّة هي أن م.ت.ف وقعت في أخطاء بنيوية ذاتية وضد محيطها مما شكَّل ذخيرة لفريق الثورة المضادة من اللبنانيين الذين وصلوا الصهينة باكراً. وحيث تواكب هذا مع توجهات قيادة م.ت.ف باتجاه التسويات السلمية وهجران الكفاح المسلح وهذا ما دفعها لقبول سهل بالخروج من لبنان، ورفض التوجه إلى سوريا لأن القيادة الفلسطينية كانت تحلم بأن العدو سوف يسمح لها بإقامة دولة في المحتل ١٩٦٧، وهو الوهم الذي لم تخرج منه بعد رغم كل ما حصل. ولعل ثالثة الأثافي أن تنهار هِمَّة قيادة بحيث تنتظر من عدوها منحها جزءاً من وطنها! بينما لم يتردد العدو منذ قرن ونيّف عن التأكيد بالتصريح الواضح: "كل شيءٍ لي"!

ليس من قبيل التجني بأن قيادة م.ت.ف استخدمت الكفاح المسلح وشعار تحرير فلسطين استخداماً تكتيكياً للوصول إلى تسوية استدوالية على المحتل ١٩٦٧. ومن هنا لم ترتق من مقاومة إلى ثورة ومن تعدد فصائلي إلى جبهة وطنية. لذا، فتحت هذه

القيادة خطوط التواصل مع الإمبريالية أي المتروبول الذي خلق الكيان وسيرعاه حتى نهايتهما المتزامنة!.

في الوقت الذي كانت قيادة م.ت.ف تحض على المقاومة وحرب الغوار كانت تتلقى رسائل من العدو الأمريكي باتجاه التسوية، وكان أحد المراسلين المفكر إدوارد سعيد! وهذا يثير التساؤل: ما هي اللغة المشتركة بين الطرفين! ناهيك عن هبوط مفكر مبدع في الأدب المقارَن والاستشراق[1] إلى هذا المستوى والدور!

يتضح من فهم هذه القيادة للصراع والانخراط في معتقد التسوية أن هذه القيادة غارقة في استدخال الهزيمة على الأقل من باب إدراكها أنها لا تستطيع تحرير فلسطين، وبدل أن تبحث أو تستمر في الطريق الطبيعي للتحرير عبر كون القضية والصراع عربي ضد مجمل الثورة المضادة وليس فلسطيني صهيوني ذهبت باتجاه فلسطنة المقاومة ومن ثم فلسطنة الحل وهو ذهاب مقصود به إخراج القضية من عمقها العربي والإبقاء على العلاقة الهشة والخطيرة للقضية مع الأنظمة العربية وخاصة التابعة للرأسمالية العالمية لأن سقف هذه الأنظمة أدنى من سقف م.ت.ف من جهة ولأنها سوف تُقرِّب قيادة م.ت.ف من واشنطن زُلفى لعل وعسى تكون النتيجة دولة في المحتل ١٩٦٧.

هذا التوجه الاستدوالي هو الذي يوضح لماذا كانت هذه القيادة معنية بالتماحك مع سوريا والتباعد عنها والتعبئة ضدها وهي تعبئة هدفها نفي كون فلسطين هي جنوب سوريا كما يطرح حزب البعث العربي الاشتراكي بمعنى لو أن في سوريا نظام غير عروبي وقُطري الهوى لما وقفت قيادة م.ت.ف ضدها وهو ما يمكن تأكيده من العلاقة بين قيادة م.ت.ف مع أنظمة الحكم في الجزيرة والخليج وغيرها وهي أنظمة على نقيض بل عدو للمقاومة وللأمة العربية بل والعروبة بعمومها.

أما وقيادة م.ت.ف مأخوذة بالحصول على دويلة بالمعنى الشكلي، فهي لم ترتق

---

(١) قد لا يكون غريباً أن يهبط الليبرالي إدوارد سعيد من تحليله للاستشراق إلى دور الوسيط بين المقاومة والعدو الإمبريالي، وخاصةً في جملته التي تشكل لغماً في كتابه الاستشراق وهي قوله: "إنني لا أنتحب على تبعية العرب لأمريكا، ولكن على معاملة أمريكا للعرب".

لمشروع تطوير أو تنمية في الدولة المتوقعة. لذا افتقرت م.ت.ف قبيل اتفاقات أوسلو وبعدها لتطوير أي نموذج تنموي، وهذا ما دفعها للحديث عن خلق تايوان في "دولة الضفة الغربية وقطاع غزة". وهو موديل الرأسمالية التابعة والموجه اقتصادها للتصدير من بلد، لو حصل، ليس لديه ما يصدره ناهيك عن أن الإمبريالية ليست معنية بتايوان في المنطقة إلى جانب تايون الموجة/ المدحوشة في قلب الوطن العربي اقتحاماً أي الكيان الصهيوني[1]. هذا إضافة إلى أن اتفاقات أوسلو لم تعط م.ت.ف أية سيادة على الأرض!

تحت هكذا توجه لدى قيادة م.ت.ف صار التخلي عن الكفاح المسلح أمر طبيعي بل وشرطاً للدخول إلى مشروع التسوية والاستدوال.

عشية الانتفاضة... سياسات العدو:

طبقاً للدور الذي دفع الرأسماليات الغربية لخلق الصهيونية السياسية ومن ثم الكيان الصهيوني، وطبقاً للطربوش الديني الذي ألصقته القيادات الصهيونية بمشروع المركز الرأسمالي أي "أرض إسرائيل، وشعب الله المختار" ومختلف الخزعبلات المنمَّقة التي تقع ما بين:

- خبث مصلحي رأسمالي غربي روَّج رسمياً وأكاديمياً لهذه الخزعبلات لتغطية استهدافه الاقتصادي السياسي الثقافي والقديم المتجدد تاريخياً للوطن العربي بدءاً بفلسطين
- ونظراً لضخامة ماكينة الكذب الرسمي وغير الرسمي الغربي الرأسمالي انطلى هذا على الكثيرين حتى وقت قريب.

فإن هذه القوى المعادية استهدفت انتزاع كامل فلسطين وتدمير مختلف بُناها الجغرافية والديمغرافية والثقافية والتراثية والفلكلورية. وهذا مخالف لمزاعم إيلان بابيه بأن ما حصل في فلسطين كان تطهير عرقي[2].

---

(1) See Adel Samara, Industrialization in the West Bank. Al-Mashriq Publications 1992, Ph.D.
(2) See Adel Samara The Political Economy of the West Bank: From Peripheralization to Development . Khamisn Publications London 1988, M.A.

لذا فحجر الأساس في سياسات العدو هو انتزاع الأرض والتخلص من أهلها سواء بالطرد أو الإزاحة لإيصالهم إلى قرار الانزياح الذاتي[1]. ولتنفيذ هذه السياسات وضع العدو أكثر من ألفَيْ أمر عسكري والتي تبدأ من اعتقال السوق وحصره بالتبعية باقتصاد الاحتلال عبر تبادل لا متكافىء تحت السلاح واقتلاع البنية الإنتاجية وتشغيل قوة العمل داخل الكيان كي لا تنخرط في الإنتاج المحلي أو المقاومة.

قاد هذا إلى تحول المحتل ١٩٦٧ إلى محيط للمركز الصهيوني وتم الاعتماد على تحويلات العمالة داخل الكيان لتغطية العجز في الميزان التجاري للضفة والقطاع أما بعد اتفاق أوسلو فقد تم الاعتماد على الريع المسيَّس جداً لسد العجز.

خلق العدو بهذا بنية مشوهة في المحتل ١٩٦٧ سواء بالاعتماد الاقتصادي على العدو أو بتوحيد الأسعار دون توحيد المداخيل بين الطرفين، أو تحطيم معادلة عمل/ رأسمال في الضفة والقطاع بمعنى أن المفترض أن يتمكن رأس المال من تشغيل قوة العمل في البلد المحدد أي استغلال قوة العمل ولكن حتى هذا لم يتوفر مما دفع نسبة عالية من قوة العمل المحلية للعمل داخل اقتصاد الكيان الصهيوني وخاصة في العمل الأسود ووصلت تلك النسبة أحياناً إلى ٤٠ بالمئة منها. كما أن أعداداً ضخمة هاجرت بحثاً عن عمل سواء في بلدان الريع النفطي أو المَهاجِر الأخرى.

لقد تمكن العدو من إرغام مختلف الطبقات الاجتماعية في الأرض المحتلة ١٩٦٧ على الارتباط باقتصاده سواء بقطع علاقاتها التجارية مع الخارج وحصرها بيد الاحتلال أو مع بلدان معينة عبر وسيط من الكيان نفسه. وبهذا أصبح التاجر والصناعي والعامل والفلاح ملحقاً باقتصاد الاحتلال[2]. وهذا انتهى إلى تبعية كل جزء جغرافي/ مناطقي من المناطق المحتلة لاقتصاد العدو مباشرة مما أفقد هذه المناطق إمكانية تكوين قلب اقتصادي لها.

---

(١) انظر عادل سمارة، الاستيطان من الطرد للإزاحة فالإنزياح الذاتي في مجلة كنعان، العدد ٩٤ كانون ثان ١٩٩٩، ص ص ٨٧-١٠٠.

(٢) أنظر عادل سماره، اقتصاد المناطق المحتلة: التخلف يعمق الالحاق. منشورات صلاح الدين، القدس، ١٩٧٥.

الحال العربي عشية انتفاضة ١٩٨٧:

منذ هزيمة ١٩٦٧ حيث انتصر النظام الرأسمالي العالمي عبر الكيان الصهيوني على التيار العروبي وبالتالي تم احتلال بقية فلسطين وأجزاء من سوريا ومصر، لم يتوقف تدهور حال الأمة العربية بل وصل الأمر إلى احتلال بلدان عربية احتلالاً مباشراً بدءاً من العدوان على العراق ١٩٩١[١]. وتوازياً مع الهزيمة كان صعود تيار الأنظمة العميلة للإمبريالية وخاصة في الخليج وأنظمة الممالك والإمارات والمشيخات وقوى الدين السياسي وهو تيار خُلق ليلعب دور الخيانة.

إثر هذه الهزيمة، فُتح الباب لرقص الشياطين سواء لتسويد طبقة الكمبرادور، وسياسات الباب المفتوح، وتحديداً التجويف والتجريف، وإنعاش الطائفية، وتيارات الدين السياسي والقتال الضاري ضد العروبة ومن ثم تصفية القضية الفلسطينية وصولاً، كما أشرنا، إلى احتلال وتدمير الجمهوريات العربية[٢].

ترتب على هزيمة ١٩٦٧ استقواء منحى التجزئة القطرية والتبعية، أي تمفصلات سايكس – بيكو وسيطرة طبقات الكمبرادور على الحكم، والعمل العلني ضد القومية العربية سواء في السياسة أو الثقافة وبشكل خاص وأخطر عبر "تطوير" اللاتكافؤ بين أقطار الوطن العربي بما هو أي هذا "التطوير" هو سور الصين ضد أية علاقة وحدوية وتم بالطبع مقابل ذلك تعميق ارتباط وتبعية كل قطر عربي بالنظام العالمي على حدة وتراجع التجارة العربية البينية رغم تواضع مستوياتها[٣]. ومن النتائج

---

(١) إثر العدوان الثلاثيني ضد العراق ١٩٩١، تم اجتماع لوزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر مع ممثلي فصائل م.ت.ف في القدس المحتلة (الجزء الشرقي) داخل قنصلية العدو الأمريكي، وخلال النقاش قال بيكر لأحدهم: "هزمناكم في العراق، وهنا سيحصل ما نريد". كان ذلك من مقدمات مؤتمر مدريد الذي كان القابلة القانونية لاتفاق أوسلو المشؤوم.

(٢) كانت هذه الجمهوريات مثابة توليفة علمانية واشتراكية وإلى حد ما وحدوية لكنها كانت تعتمد في ضبط الوضع الداخلي على الأجهزة الأمنية وعلى حماية نفسها من العدو الرأسمالي الغربي بل من مجمل الثورة المضادة على وجود الاتحاد السوفييتي. وعليه، كان تفكك الاتحاد السوفييتي مثابة انكشاف هذه الجمهوريات، وهو ما اتضح باحتلال العراق ٢٠٠٣ ثم ليبيا ٢٠١١ وصولاً إلى الحرب المعولمة ضد سوريا واليمن.

(٣) أنظر كتاب عادل سمارة، دفاعاً عن دولة الوحدة: إفلاس الدولة القطرية. رد على محمد جابر الانصاري. منشوات دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠٣. ومركز المشرق/ العامل، ٢٠٠٤.

التي تترتب بالضرورة والقصد عن هذا الحال تسهيل/ تخلي هذه الأنظمة عن فلسطين وصولاً إلى تصفية هذه القضية.

تفتح هذه التطورات في علاقتها بالانتفاضة على تراجيديا أساسها حدث لم يستشر أحداً، فلا الانتفاضة بما هي انفجار حراك شعبي تم التنبؤ ولا التخطيط له ولا حتى تفجيره وقيادته كحراك شامل، وترافق مع أكثر من حدث عربي ودولي جميعها باتجاه التضاد مع الانتفاضة. أي وُلدت الانتفاضة ضمن مناخات مجافية مما جعل اغتيالها حتمياً.

الانتفاضة:

احتلت انتفاضة ١٩٨٧ في الأرض المحتلة مجمل الحيز العام المتبقي من فلسطين أي الضفة الغربية وقطاع غزة. هي حراك معظم الناس، حيث لا يمكن لحراك أن يشمل الناس جميعاً. ففي حين كان النضال الوطني قبيل الانتفاضة نضال المفارز المسلحة والمنظمات السياسية، أي النخبة، أتت الانتفاضة أو ابتكرت نضال الجماهير مما أعطاها نكهة خاصة وجديدة وعالمية. انتفاضة عبَرت العمر والجنس والثقافة وحتى معظم الطبقات، وأعادت الوعي الجمعي الفلسطيني إلى ثورة ١٩٣٦. وإن كان لنا وضع استنتاج قبل نهاية هذا الباب، فإن المصير التصفوي الرسمي العربي والإقطاعي التجاري الفلسطيني قد تكرر بشخوص أخرى ضد الانتفاضة أيضاً.

لم يصنع الانتفاضة حزب أو قائد أو مثقف ولا دولة بالطبع، هذا وإن كان قد ادعى ذلك الكثير. لكن الأخطر طبعاً هو استثمارها من كثيرين وخاصة من لم يساهموا فيها إلا بقدر ضئيل. وبالمقارنة مع ثورة ١٩٦٨ التي خذلتها القوى السياسية وخاصة الحزب الشيوعي، فإن القوى السياسية الفلسطينية "الفصائل" كانت موجودة ولكنها لم تكن مبادِرة في البداية. وبدل أن تتطور هي نفسها إلى حالة ريادية امتطت الانتفاضة وأخذتها إلى بيت الطاعة لمؤسسة م.ت.ف التي كان طموحها بل وهمها توليد دويلة من الانتفاضة في حدود المحتل ١٩٦٧. أما بالمقارنة مع الثورة البروليتارية الثقافية في الصين

حيث كان أحد شعاراتها "استهدفوا قيادة الحزب" فإن الانتفاضة أُرغمت على عبادة القيادة والاستسلام[1] لها رغم خروج القيادة وإخراج م.ت.ف معها من ميدان الصراع في لبنان! وحيث بدأت الانتفاضة ببعد تنموي شعبي "التنمية بالحماية الشعبية"، إلا أن المستوى القيادي لمنظمة التحرير الفلسطينية قصم ظهر هذا التوجه، حيث حوَّل كل الجهد الشعبي باتجاه استثمار سياسي للاستدوال، مهملاً تطوير البعدين اللذين يمكنهما الاستمرار بالانتفاضة بعيداً عما يسمى الاستقلال السياسي الذي لم يكن بوسع الانتفاضة تحقيقه[2]:

- التنمية بالحماية الشعبية.
- والتنمية الثقافية السياسية.

لذا، لم يتمكن الموديل التنموي، أي التنمية بالحماية الشعبية من منع تدفق منتجات العدو إلى السوق المحلية التي بدأت تتسع ذاتياً اعتماداً على مقاطعة منتجات العدو، كما حِيْل دون احتلال المصانع التي إما مهملة أو متعاقدة مع منتجات العدو ولا تم وضع اليد على الأرض المهملة، والأرض الفائضة، لا سيما التي يعيش ملاكها في الخارج وكل هذا نظراً لغياب حركة ثورية جذرية لها مضمونها التنموي لأن الموجود والمتحكم كانت قيادات الفصائل وليست قيادة شعبية.

كان دهس سيارة عسكرية للعدو مجموعة من الفلسطينيين من مخيم جباليا للاجئين الفلسطينيين هو القشة التي قصمت ظهر البعير لتنفجر الانتفاضة وكأنما كانت الناس على انتظار ذلك لتمتد إلى كامل الأرض المحتلة. حراك شعبي واسع، إغلاق الشوارع بالحجارة، رمي دوريات جيش العدو والمستوطنين بالحجارة. نعم غضب وسيطرة شعبية على الحيز، رغم جيش الاحتلال العديد بشرياً والمدجج سلاحاً والمعبىء بحقد خليط بين الفكر الرأسمالي الدموي، والميثولوجيا الدينية وتجربة النازية في المحرقة والاستشراق أيضاً والحقد الفردي.

---

(١) كان أوضح تعبير عن إلحاق الشعب بالقيادة عبارة الشاعر محمود درويش: "من يخرج على الشرعية يخرج عن الإنسانية". لعل هذا نموذجاً على مثقف السلطان.

(٢) حول عجز الانتفاضة عن تحصيل دولة، انظر كتابنا التنمية بالحماية الشعبية، مصدر سبق ذكره.

هذه السيطرة على الحيز هي التي خلقت مناخاً لديمقراطية حقيقية "الديمقراطية بالحماية الشعبية" رغم الوجود الاستعماري المسلَّح حيث أفلتت الناس من العقال ولم يعد بوسع قوات العدو وصول كل حي وحارة ومخيم وقرية. حالة من التحرر والتحرير النسبي للحيز في مواجهة سحق الحيز نفسه.

هنا بادر العمال العاملون في اقتصاد العدو إلى الإضراب. إنه انسحاب قوة العمل إلى الداخل، الانسحاب العمالي إلى الذات. وهذا يعني قطيعة مع اقتصاد العدو وتوجيه ضربة لاقتصاده الذي يستخلص مقادير هائلة من القيمة الزائدة من شغلهم ناهيك عن استلاب حقوق العمل إلى الحد الأقصى. ومبادرة العمال هذه لم تكن بقيادة نقابة عمالية خاصة بهم ولا بمبادرة النقابات العمالية في الضفة الغربية وقطاع غزة التي اعتادت على تدفق قوة العمل المحلية إلى أسواق الاحتلال وبالمقابل إغراق الاحتلال للأسواق المحلية بمنتجاته التي واصلت اجتثاث مواقع الإنتاج المحلية وامتصت السيولة المالية من الاقتصاد المحلي، أي استعادت ما حصل عليه العمال الفلسطينيون من أجور لقاء عملهم في اقتصاد الاحتلال بل وحازت معظم الفائض من الاقتصاد المحلي نظراً لاضطرار كافة الطبقات الاجتماعية لشراء حاجاتها عبر الكمبرادور/ التجار المستوردين من سوق الاحتلال بما هو السوق الوحيد الذي يوفر حاجاتها.

تلت ذلك مقاطعة منتجات العدو أي الانسحاب الشعبي إلى الداخل استهلاكياً[1] **Internal Withdrawal** وهي حالة من التوجه الشعبي العفوي للاعتماد على الذات، ما أمكن بغض النظر عن نطاق توفر ذلك.

بهذا تم توجيه عدة صدمات للعدو:

- الحراك الشعبي ومقاومة الجيش وإشغاله بما يرهقه ويرهق ميزانيته.
- الانسحاب إلى الداخل عمالياً مما أضر بقطاعات الإنتاج والخدمات في اقتصاد العدو (في القطاعات التي جرى تشغيل العمال الفلسطينيين فيها).

(1) See Adel Samara Industrialization in the West Bank.

وهو ما دفعه لاستجلاب عمالة من بلدان أخرى لم تسد الحاجة لا من حيث الخبرة ولا من حيث الكلفة، الأمر الذي دفع العدو لاحقاً وحتى اليوم لتسهيل تهريب عمال محليين إلى اقتصاده. بل إلى قطاع العمل الأسود الذي بناه العمال الفلسطينيون.

- الانسحاب الاجتماعي إلى الداخل، حيث شاركت فيه معظم الطبقات، استهلاكياً في مقاطعة لسوق العدو.

بعد المقاطعة العفوية كما الانتفاضة بدأت القوى والنشطاء في التفاعل مع الانتفاضة، فكان لا بد من تحريض التجار أو منعهم من تسويق منتجات العدو وخاصة وكلاء شركات العدو.

كان طبيعي أن يتولد عن ابتكارات الانتفاضة والحراك والمقاطعة الانسحاب إلى الداخل إنتاجياً، وكان لهذا شرطين:

- الأول: التوجه الإنتاجي للأساسيات من قبل رأس المال المحلي بالمعنى الموسع، ومن قبل المنتج المستقل ومتوسطي حجم الملكية الزراعية أو المشاريع المتوسطة.
- والثاني: مبادرة قيادة م.ت.ف لتقديم القروض المسهَّلة والمساعدات لمن يعمل على الاستثمار وخاصة في قطاع الإنتاج الزراعي والتصنيع الزراعي. ومعروف أن هذه القيادة كانت تحوز على المليارات من الريع الخليجي، ولكن كما يبدو كان شرط التمويل عدم اعتماد أية سياسة تنموية وهذا متوقع جداً لأن دافعي الأموال هم توابع للعدو الأمريكي راعي الكيان الصهيوني وحاميه.

فدعم اقتصاد الانتفاضة كان قيد الإمكان بفتح نوافذ تنموية من خلال علاقات الفصائل بقيادة م.ت.ف في الخارج والتي اكتسبت خبرة طويلة في تسييل الأموال إلى الأرض المحتلة ولكن حصل التسييل إلى مجالات تجنيد المؤيدين والمحاسيب وكسب الولاءات.

على المستوى الشعبي جرت مبادرات ميدانية موقعية في المناطق المحتلة وخاصة العودة إلى الأرض المهملة نتيجة العمل "بأُجور مغرية" في اقتصاد العدو، وذلك بداية باستغلال الأرض التي لا تتطلب إصلاحاً مكلفاً أي ثقيلاً، والتي بالإمكان استغلالها لزراعة المحاصيل التي لا تتطلب زمناً طويلاً حتى تُعطي، كالمحاصيل الحقلية مثلاً لا سيما وأنها الأكثر ضرورة لسد الحاجات الغذائية الأساسية.

بين الضرورة وبين المبادرة جرت محاولات شعبية ابتكارية للاعتماد على الذات حيث أقيمت عدة أنماط من التعاونيات[1]. تعاونيات الأحياء في المدن لتصنيع المربيات والمخللات وتسويقها... الخ، وكانت هذه بالطبع مبادرات نسائية. وهي مبادرات تقاطعت واعتمدت تبادلياً على تعاونيات أو نشاطات فردية لنساء أو لرجال الفلاحين في الريف وذلك بتزويد أحياء المدن بالخضار والفواكه. وبهذا كانت كل واحدة منها حماية شعبية للأخرى. وتم التبادل طبعاً طبقاً لقانون قيمة محلي بعيداً عن قانون القيمة المعولم الاستعماري الصهيوني. وهذا مستوى من الحرية أو المجال الديمقراطي النسبي المنتزع ولو نسبياً من أنياب العدو، وهو الأمر الذي أدركه العدو لاحقاً، فأهلك التعاونيات بالضرائب وبتخفيض الدينار الأردني الذي كان كثيراً من المبادلات بواسطته فقط.

كما قامت عدة فصائل فلسطينية بإقامة تعاونيات زراعية وتصنيع زراعي وحوانيت لتسويق المنتجات المحلية في المدن في عدة قرى في المناطق المحتلة. ومع أنها مبادرات شعبية متقدمة، إلا أنها بدأت مصابة بخللين قاتلين هما:

- الأول: تلقي التمويل الأجنبي الذي تدفق بقدرة قادر إلى الأرض المحتلة متواقتاً أو تالياً بشكل فوري لبداية الانتفاضة، حيث قلنا في حينه أن هذا مال مسموم يرمي إلى خصي البعد التنموي في الانتفاضة.

---

(1) See Adel Samara, *Women vs Capital in the Social Formation in Palestine* Al-Mashriq Publications, 1996.

- والثاني: افتقار الفصائل لمثقفين اشتراكيين[1] ليديروا هذه التعاونيات، حيث لم يتوفر بالمعنى الماوي "**لا الخبير ولا الأحمر**"! بل كان العديد من هؤلاء إما ضد المفهوم التعاوني أو مجرد باحث عن وظيفة مؤقتة يغادرها فور توفر فرصة عمل أخرى وخاصة حين تكون مكتبية، إدارية خدماتية لا إنتاجية وأكثر تخصيصاً مع مؤسسة أجنبية ومؤسسة أنجزة.

أُطلقت في حينه عدة تسميات على تعاونيات إنتاج الحاجات الغذائية الأساسية في أحياء المدن التي تزودت بالخضار والفواكه والحبوب من الريف واتخذت بالطبع طابعاً نسوياً بشكل بارز، تسميات اقتصاد منزلي، إنتاج أسري، اقتصاد طبيعي... الخ. ولعل المهم أنها مساهمات شعبية إنتاجية في المشروع الأوسع أي التنمية بالحماية الشعبية والذي تطور عفوياً وابتكاراً شعبياً.

ترتب على تزويد المدن بمنتجات الخضار والحبوب والفواكه من القرى والتي كانت قبيل الانتفاضة شبه مهملة وبعض فوائضها موجهة إما للتصدير إلى الأردن أو يتم تهريبها إلى سوق الاحتلال، تخليق شبكات تسويق محلية للمحتل ١٩٦٧ وشبكات تسويق إلى المحتل ١٩٤٨ وخاصة إلى المناطق التي يتركز فيها الفلسطينيون.

هكذا بنت الانتفاضة موديلها التنموي وهو الوحيد الممكن تحت استعمار استيطاني اقتلاعي[2]، والذي توافقت معه أُطروحتيْ في **التنمية بالحماية الشعبية** حيث

---

(١) قامت الجبهة الشعبية في الأشهر الأولى لانتفاضة ١٩٨٧ بإقامة مدرسة تعاونية لقرابة أربعين من الشباب والصبايا من الضفة الغربية وقطاع غزة في مدينة البيرة وذلك في عشرين جلسة حوار غطت الجوانب النظرية والعملية الميدانية للعمل التعاوني، وكان المحاضرون فيها الراحل بندلي جلافانس وكاثي جلافانس وآيلين كتاب وأنا نفسي. ولكن لاحقاً انتهى كثير من القياديين في الجبهة إلى الالتحاق بسلطة أوسلو وتفككت التعاونيات التي أقيمت على ضوء الطروحات النظرية والعملية للمدرسة التعاونية هذه.

(٢) حصر تسمية الكيان بالعنصري خطاب ممرور وتطبيعي وحتى زائد: يتسابق كثير من الفلسطينيين والعرب على نعت الكيان الصهيوني بأنه عنصري. إلى درجة عدم ذكر أنه اغتصب فلسطين. لا نعتقد أن هناك معنى لتسمية الاستعمار الاستيطاني الاقتلاعي الصهيوني بالعنصري (وخاصة الحديث عن – جدار الفصل العنصري– وكأن هؤلاء يتمنون إزالة الجدار وينتهي الصراع وتنتهي ضرورة النضال لتحرير فلسطين" خاصة =

كنت في بريطانيا أعد رسالة الدكتوراة وعدت لرام الله في ٤ أكتوبر ١٩٨٧ لاستكمال المسح الميداني. وما أن اشتعلت الانتفاضة في نوفمبر ١٩٨٧ حتى وجدت نفسي أطور هذا الموديل مع وعلى ضوء المبادرات والابتكارات الشعبية. هكذا تولد هذا المصطلح/ الموديل في تفاعل جدلي بين تعليم الشعب لنا وتفاعلنا فكرياً معه.

موديل التنمية بالحماية الشعبية هو حالة مقاومة كي لا يتم تذويب الشعب وهندسته وإعادة هندسته توازياً واستتباعاً لسحق الحيز بشكل متواصل. وللاختصار فإن خطى ابتكار وتطور ومن ثم اضمحلال هذا الموديل هي:

- كانت البداية انسحاب العمال إلى الداخل مقاطعةً للعمل في سوق العمل الصهيوني.
- تبعها انسحاب الاستهلاك الشعبي إلى الداخل مقاطعة لمنتجات اقتصاد العدو.
- الانسحاب إلى الداخل ضريبياً برفض دفع الضرائب لسلطات الحكم العسكري الصهيوني.

= أن كل هذا اللغو دون ومعزولاً عن البدء والتركيز على أنه اقتلاعي، لأن العنصرية جزء ومكون أساسي له مما يجعل إضافة عنصري مثابة رغبة أو عتاباً على عدم تصالحه مع المستعمَر أو احترامه للمستعمَر أي لشعبنا صاحب الحق في وطنه المغتصَب. وبالتالي إذا حصل وتنازل عن عنصريته، و "أحترمنا" يُصبح الكيان شرعياً ومن الشرعي استمرار اغتصابه لما اغتصب. وهذا لا يفترق عن ثرثرة أصحاب الصرخات "صرخة التعايش مع المستوطنين د. يحيى غدار – من لبنان – وأعوانه" وأصحاب دعاوى الدولة الواحدة "سلامة كيلة، وماجد كيالي وأحمد قطامش ورعيل كثير من تمفصلات عزمي بشارة" الذين يلهجون بالرجاء والدعاء بأن يتنازل الصهيوني عن صهيونيته، فينتهي حقنا في وطننا ويبقى بيد الصهيوني كل ما اغتصب. وهذا يعني أن كل نضال شعبنا هو فقط كي يتخلى الصهيوني عن عقيدته. أما متى "ازدهرت" هذه الدعوات والصرخات؟ أمر طريف ومفارقة فاقعة حيث ازدهرت هذه كلها بالتوازي مع توسع الصهيونية العربية وخاصة بتصهين أنظمة الخليج النفطية! ترى لماذا؟

ملاحظة: لمعرفة كل هذا إقرأ كتاب الرفيق محمود فنون في بين حل الدولتين وحل الدولة الواحدة: دراسة نقدية، منشورات مركز المشرق/ العامل للدراسات الثقافية والتنموية، رام الله، ٢٠١٨، المتوفر في الضفة الغربية المحتلة.

- وهذا عمَّ الالتزام بـه مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة باسـتثناء تجـار محلـيين ورأس المال الكمبرادوري.
- التوجه لإعادة بناء البنية الإنتاجية عبر:
  - العودة مجدداً إلى الأرض في استعادة لإنتاج الأساسيات.
  - التوجه للاستثمار الإنتاجي في الصناعات الصغيرة والوسيطة.
  - أي إعادة تركيب البنية الإنتاجية للاقتصاد المحلي.
  - مشاركة المرأة في الانتفاضة في المواجهات المباشرة إلى جانـب مبادراتهـا في التعاونيات في الأحياء والمنازل والقرى والمخيمات.
  - تخليـق شـبكات تسـويق في السـوق المحليـة وصـولاً للتسـويق لـدى الفلسطينيين داخل المحتل ١٩٤٨.
  - تخليق تسويق في الخارج من خلال قوى متضامنة مع القضية.

كانت هذه هي المرحلة الثورية الأولى للانتفاضة.

واجه العدو هذا بـ:

- ضرب مدخرات الطبقات الشعبية بتخفيض قيمة الـدينار الأردنـي لصـالح الشيكل الصهيوني بما يقارب خمسين بالمئة وهذا لعب دوراً خطيراً في تبخـر المـدخرات سـواء فيمـا يخـص تغطيـة الاسـتهلاك الضـروري أو محاولـة الاستثمار.
- استشراس القمع ضد المواجهـات وملـىء المعـتقلات المفتوحـة في صـحراء النقب بالشباب والشابات وخاصة العناصر النشيطة.
- فرض الضرائب الانتقامية على مختلف مواقع الإنتاج وإغلاق التي لم تدفع.
- تقديم تسهيلات هائلة للوسطاء التجاريين.

- إغلاق مواقع إنتاج عديدة بحجج عدم دفع الضريبة أو ارتكاب مخالفات.

في المرحلة الثانية كان يُفترض بناء علاقة جدلية بين الداخل/ الأرض المحتلة والخارج أي قيام قيادة م.ت.ف بالتالي:

- توفير الهبات والقروض للمشاريع الإنتاجية وخاصة الزراعية لتغطي إصلاح الأراضي في مستوياته الثلاثة والمصاريف الجارية لاستغلال الأرض.
- توفير هبات أو قروض للمستثمرين كي يغطوا أساسيات حاجاتهم في الفترة بين الإصلاح والإنتاج.
- دعم تحويل أو إعادة تركيب البنية الإنتاجية عبر التمويل واعتماد استراتيجية تنموية.
- التوقف عن اعتماد شبكة تحويل الأموال من الخارج إلى الداخل، والتي كانت مجرد أدوات فاسدة وشبكة بيروقراطية لكسب الولاء التنظيمي السياسي.

لكن هذا غالباً لم يحصل مما أدى إلى قطع اندفاعة الانتفاضة في مستوييها التنموي والثقافي. بل جرى تركيز القيادة على الاستثمار السياسي في وهم تسووي يفضي إلى دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كانت الفجوة بين الانتفاضة كمبادرة شعبية وبين قيادة م.ت.ف هائلة، طبقية مما أوضح أن الهدفين متناقضين:

- ففي حين كانت الانتفاضة رفض شعبي للاستعمار الاستيطاني مما يجعلها درجة من النضال الوطني الفلسطيني للتحرر والتحرير.
- كان هدف القيادة في الخارج منذ الأيام الأولى للانتفاضة هو توظيف الانتفاضة للوصول إلى حل سياسي بالحصول من العدو على دولة في

الضفة الغربية وقطاع غزة إلى جانب دولة الكيان التي احتلت عام ١٩٤٨ أكثر من ٧٨ بالمئة من فلسطين.

أي أن هدف القيادة كان غير هدف الشعب بلا مواربة. لقد اتضح موقف القيادة منذ الأيام الأولى للانتفاضة، حيث كانت تتواصل مع قيادات في الأرض المحتلة داعية إياها للتعبئة باتجاه الاستدوال وليس التحرير ولكن دون توضيح هذا التوجه للجماهير التي كانت تفيض إلى الشوارع والساحات والحواري كلٌّ يندفع بطريقته وفي موقعه وهذا ما جعل تسمية انتفاضة تسمية حقيقية.

كان هذا التوجه من القيادة وراء عدم دفعها لتكون انتفاضة تنموية ثقافية[١] كجزء من نضال شعبي طويل الأمد وكي لا تكون مجرد هبة سياسية للتوصل إلى دولة في مناخ كان شديد الوضوح بأن الانتفاضة لن تقود إلى التحرير ولا إلى انتزاع دولة[٢] من أنياب المستعمِر.

لم تغير القيادة توجهها قطعياً، بل استثمرت الانتفاضة أيَّما استثمار وبشكل متواتر انتهى إلى الغدر بالانتفاضة وتوقيع اتفاقيات أوسلو لـ "السلام" تحت تسمية "سلام الشجعان" فإذا به "سلام رأس المال" على أساس "اقتصاد التساقط" **Tricle-down Economy**، أما عملياً، فكل ما حصل هو تأكيد الكيان بأن فلسطين هي "دولة لكل مستوطنيها" وبأن اتفاقات أوسلو ليست سوى قيام السلطة المركزية في تل أبيب بمنح حركة سياسية فلسطينية اسمها م.ت.ف حكماً ذاتياً محدوداً في إقليم من أقاليم السلطة الصهيونية المغتصبة لفلسطين، وهذا يعني أن لا علاقة لهذا الحكم الذاتي بفلسطيني الشتات والمغتصب ١٩٤٨ أي أن الفلسطيني هو من يعيش في الضفة والقطاع. ولعل الصورة شديدة الوضوح مع كتابة هذه السطور وخاصة نقل سفارة العدو الأمريكي "وسيط السلام بدل حقيقته بما هو رأس العدوان ضد فلسطين والعروبة" إلى

(١) انظر بهذا الصدد، الاقتصاد الآخر للانتفاضة: اقتصاد الطبقة، عادل سمارة في مجلة الفكر الجديد، المجلد ١، العدد ١ آب ١٩٨٩، ص١٢٣.

(٢) انظر التنمية بالحماية الشعبية، مصدر سبق ذكره.

القدس المحتلة أي نقلها من جزء من وطننا المحتل إلى جزء آخر من نفس وطننا المحتل، وهو نقل لا يختلف عن إعادة انتشار جيش العدو في الضفة والقطاع بعد أوسلو أي تحريك قطعاته من منطقة إلى أخرى جميعها تحت سيطرته منذ عام ١٩٦٧ وقيام العدو بإعلان عنوان سياساته الفعلية على الأرض منذ بدء الصهيونية السياسية وصولاً إلى اغتصاب فلسطين ١٩٤٨ وخاصة احتلال الضفة والقطاع عام ١٩٦٧ أي "قانون القومية" الذي يعني أن الكيان دولة لكل مستوطنيها. وهذا يطرح التساؤل عن معنى صراع قيادتي فتح وحماس على السلطة عبر الانقسام بينهما تحت الاستعمار الاستيطاني الاقتلاعي؟

لذا، عملت هذه القيادة على خصي الانتفاضة بشكل تدريجي إلى أن وصل القطار محطة أوسلو بدل حيفا، وجرى إعلان وقف الانتفاضة وضرورة التطبيع ووقف مقاطعة اقتصاد العدو.

بدأت الانتفاضة في الأرض المحتلة ١٩٦٧ وإلى حد ما إلى المحتل ١٩٤٨. وجرى، كما أشرنا، استثمارها من قيادة م.ت.ف لصالح مكاسب سياسية معاكسة لهدف المقاومة الشعبية الفلسطينية التي بدأت منذ بدء الغزو الاستيطاني الصهيوني مدعوماً من الإمبريالية.

هنا تجدر الإشارة إلى هشاشة تحليلات البعض بأن الحركة الصهيونية خلقت نفسها وخلقت الحركة الوطنية الفلسطينية[1]! وهذه تحليلات تعتمد شكلاً من أشكال التنظير للنمط الآسيوي للإنتاج بمعنى أن الشرق صَدَفة صلبة مغلقة على نفسها لا يمكن لنواتها كسر جدارها الصلب الذي يحاصر انطلاقها وتفجرها، وبالتالي لا بد من عامل خارجي يكسر هذه الصَدَفة/ البندقة وهذا امتداد بدرجة أو أخرى لتنظيرات غربية رأسمالية كاذبة بشأن ما يُسمى "الاستعمار الإيجابي".

(١) انظر بهذا الصدد دراسة عادل سمارة قراءة مختلفة لاستحقاق أيلول، السياسي والمثقف: من الحياة مقاومة إلى مفاوضات، العامل الحاسم: الخطاب، الإنتاج أم التمويل، في مجلة **كنعان**، العدد ١٤٧، خريف ٢٠١١، ص ص٥٨-٨٤.

تُعيد هذه التحليلات إلى الذهن مسألة الاستشراق كما عالجها إدوارد سعيد بمعنى أن الاستشراق يُعيد خلق الشرق ذهنياً وثقافياً على الشاكلة التي يراه بها الاستشراق، وهذا لا ينطبق على الحالة الفلسطينية، إذا ما افترضنا أن الاستيطان الصهيوني استشراقياً في مستوى ما، لأن ما خُلق ليس على الشاكلة التي يريدها الاستيطان هذا فالمقاومة هي الضد والنقيض على الرغم من تورط قيادات في الاعتراف والتطبيع مع الكيان الصهيوني.

المقاومة قوة شعبية كامنة بمعنى أنها موجودة مسبقاً وبنيوياً تظهر وتعبِّر عن نفسها حين تتعرض للتحدي وهو ما تجسد في مواجهة المشروع الرأسمالي الغربي الصهيوني لاغتصاب فلسطين.

لكن فلسطينية الانتفاضة ليست دون البعدين العربي والدولي. فعلى المستوى العربي كانت الانتفاضة هي بداية الربيع العربي الحقيقي، ولذا تضافرت جهود مخابرات الأنظمة العربية كي لا تمتد الانتفاضة عروبياً وصبَّت جهدها عبر حكومات بلدانها للثرثرة عن دولة في الضفة والقطاع وهو ما ترتب عليه لاحقاً مؤتمري مدريد ثم أوسلو. كان الهدف تعليب الانتفاضة في صندوق دويلة في المحتل ١٩٦٧، سواء أُخذ هؤلاء بالوهم أو المصالح.

أما على الصعيد الدولي، فيكفي أن أشير ثانية هنا إلى لقاء وزير خارجية العدو الأمريكي جيمس بيكر عام ١٩٩١ أي خلال انتفاضة ١٩٨٧ وإثر إعادة أمريكا احتلال الكويت، مع ممثلي فصائل م.ت. ف لست متأكداً أن الجميع حضر، لكن ممن حضروا كان ممثلو فتح وحزب الشعب والجبهة الشعبية والديمقراطية" كما قال لي أحدهم بأن بيكر قال لهم: "هزمناكم في العراق وهنا سيحصل ما نريد"!

يفتح هذا على مسألة هامة وخطيرة بالمطلق وهي أن القُطْريين والإقليميين والطائفيين الفلسطينيين والعرب يعملون ليل نهار على تقويض العمق العربي سواء تجاه فلسطين أو تجاه كل بلد عربي وآخر، بينما العدو يتعامل معنا جميعاً كعرب مجتمعِيْن

ضمن استراتيجية استهداف لم تتوقف منذ القرن السابع عشر وحتى جحيم "الربيع العربي" فهل من يتعظ؟

قاد انفجار الانتفاضة إلى توليد طرف فلسطيني جديد في مقاومة الاحتلال هو حركة حماس متولدة عن جماعة الإخوان المسلمين وذلك عام ١٩٨٩. حتى اليوم، لم يحصل الجزم بأن هذا التوليد أتى:

- كمشاركة طبيعية في المقاومة. لكن المقاومة كانت منذ عقود ولم يشارك فيها لا الإخوان المسلمين ولا حزب التحرير الإسلامي.
- هل أتت حماس لمنافسة الوطنيين والعلمانيين واليسار طبعاً؟
- هل كان عملها منفردة مجرد امتداد لتاريخ م.ت.ف غير الجبهوي بمعنى جبهة وطنية؟
- هل كانت تنتظر حتى تعبت فصائل م.ت.ف فقفزت لتشغل الصورة؟

بغض النظر عن أي من هذه التساؤلات هو حامل الصح أو جميعها أو غيرها، إلا أن التساؤلات مشروعة.

ينقلنا هذا إلى الشق الثاني من قوى المقاومة، أي الشق المفروز من قوى الدين السياسي وخاصة حركة حماس المولودة إثر اشتعال انتفاضة ١٩٨٧. وبغض النظر عن أجندة حماس وخلفها الإخوان المسلمين، وبغض النظر عن كون جماعة الإخوان المسلمين على علاقة ما بالمركز الرأسمالي الغربي، سمها ما شئت، إلا أنها هناك، وبغض النظر عن موقف الجماعة المضاد للأمة والقومية العربية، ناهيك عن الشيوعية، فإن هناك حقائق ثلاث هامة:

- الأولى: أن حركة حماس وقبلها ومعها حركة الجهاد الإسلامي قامتا بمقاومة حقيقية ضد العدو الصهيوني وقدمتا الشهداء والجرحى والمعتلقين. وقد يكون زعمي صحيحاً، بأن قيادة حماس هي من التجار السلفيين غير قوميي

الاتجاه[1]، بينما في قواعدها خليط ممن هم متديني وقوميي/ وطنيي التوجه. ولكن يبقى الفيصل في قرار قواعدها بإطاعة التوجيهات الإخوانية (خالد مشعل وارتباطه بقطر وتركيا وغدره لسوريا) أم القناعات الوطنية.

- والثانية: أن قوى الدين السياسي الإسلامية وخاصة في الوطن العربي معادية للأمة والقومية العربية بخلاف هذه القوى في العالم تجاه أممها وقومياتها! وهذا ما كشفته الحرب الإمبريالية-الوهابية المعولمة ضد سوريا حيث ضحت حركة حماس باحتضان سوريا لها كحركة مقاومة فلسطينية ضد الكيان الصهيوني لصالح تنفيذ أجندة العدوان الهادفة إلى تدمير سوريا والسلطة العلمانية فيها لصالح مشروع إخواني للوطن العربي. ولا يقلل من خطورة هذا الموقف الأيديولوجي كون حسابات العدوان بما فيه حماس بأن النظام السوري ساقط لا محالة، لأن مسألة كون حماس حركة مقاومة ضد الكيان الصهيوني يُفترض أن تكون هي الأساس والأولوية وليست الأولوية إقامة خلافة إسلامية تتجاوز بل تعادي القومية العربية.

- والثالثة: أن استسلام قيادة م.ت.ف للحلول السياسية على وهميتها الواضحة ومغادرة الكفاح المسلح ثم دخول مطهر أوسلو أعطى حماس فرصة تصدُّر الساحة كبديل وليس كرافد جديد للمقاومة الفلسطينية عامة. ويكفي أن نذكر هنا ما قاله ياسر عرفات في باريس عن الميثاق الوطني الفلسطيني "كادوك-عتيق" وما قاله نائب أمين عام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين قيس أبو ليلى "كسرنا تابو التحرير الشامل". فهل هناك ذخيرة لمن أراد المنافسة أفضل من هذه؟.

ليس هذا مجال عرض تطور م.ت.ف ولا حركة حماس أو الجهاد الإسلامي، وإنما لقراءة المتغيرات التي أضافها هذا التيار على المقاومة الفلسطينية.

---

(1) See Adel Samara *Political Islam: Fundamentalism or National Struggle*. Al-Mashriq Publications 1995.

فهي من جهة مارست الكفاح المسلح كما كان دور م.ت.ف. وهذا أعطاها رصيداً تم أخذه من رصيد م.ت.ف نفسها. وهذا أدخلها على ساحة أخرى وهي الشغل الاجتماعي على مناهضة العلمانية الفلسطينية بأطروحات الدين السياسي. ويمكن رصد ما يلي:

- كما كان لِـ م.ت.ف، توفرت لحماس خاصة إمكانات مالية هائلة بدأت بتوفير مساعدات مالية لأنصارها بحيث يقيمون مشروعات صغيرة يتمكنون من خلالها من السيطرة على غرف التجارة على سبيل المثال. وهذا أمر مشروع لكنه مدعوم بالمال السياسي، وأعتقد أنه من شبكة الإخوان المسلمين عامة، ومن أنظمة الريع النفطي وخاصة قطر وكذلك من تركيا. وهذا يطرح نفس السؤال السابق المتعلق بتمويل م.ت. ف وخاصة حركة فتح سابقاً وتمويل قوى الدين السياسي لاحقاً، بمعنى: كيف تسمح الإمبريالية لتوابعها بتمويل مقاومة ضد الكيان الصهيوني؟ وإذا كان لأحد أن يستغرب وصف تبعية التوابع إلى هذا المدى من الحضيض، فإن هذه الأنظمة قد عرَّت نفسها على يد إدارة ترامب سواء من حيث الهرولة للاعتراف بالكيان الصهيوني ووقوفها ضد محور المقاومة، ودورها في تمويل الإرهاب التكفيري بالمال والإرهابيين، وختاماً بقيام ترامب بالذهاب إلى الرياض ليُخرج من جيوب هؤلاء ما تبقى، حيث نهب في إحدى جولات التقشيط ٥٠٠ مليار دولار من النظام السعودي وحده.

- وإذا كان تمويل م.ت.ف لبقرطتها وتهيئتها لمغادرة الكفاح المسلح وتوليد شرائح كمبرادورية وبيروقراطية وطفيلية وفاسدة، وهو ما حصل، فإن تمويل حماس قد تم استثماره:
  - لخلق شعبية لحركة يمينية دين/ سياسي
  - أخرجت نصف المجتمع من الشارع، أي المرأة ليتم اعتقاله في البيت

- توليد أجنحة جديدة من الرأسمالية سواء صغار وكبار التجار
- وقيادة تجْمَع بين خطاب رفض الكيان الصهيوني والمشاركة في كامل امتيازات أوسلو!
- والتخندق في جانب جماعة الإخوان المسلمين وخاصة في مركزها العثماني ومصرفها القطري وكليهما مرتبط مع الإمبريالية الأمريكية ومعترف ومتعامل مع الكيان الصهيوني.

يفتح هذا على ما أردناه من هذا البحث وهو أيلولة القوى والفصائل الفلسطينية وتحديداً الانتقال من الانتفاضة إلى اتفاقات أوسلو وتوابعها وصولاً إلى الصراع على الاستدوال بدل التحرير، وذلك بغض النظر تماماً عن مواصلة الجميع استخدام نفس خطاب المقاومة والعنتريات في تحرير فلسطين بينما كان جوهر أوسلو هو التطبيع مع الكيان الصهيوني.

أما وقد مضى على مؤتمر مدريد ١٩٩١ سبعة وعشرون عاماً وعلى اتفاق أوسلو ربع قرن، وثماني سنوات على "الربيع العربي التكفيري" فقد بات من الوضوح بمكان التخندق والاصطفاف، بمعنى أن أية علاقة لأي فريق فلسطيني بأوسلو تعني خروجه من محور المقاومة مهما علا خطابه وتزايدت رطانته.

وهذا ينطبق على حركة حماس وعلى الجبهة الشعبية كما ينطبق على فتح وبقية الفصائل، باستثناء الجهاد الإسلامي[1]. كلتا الحركتين فتح وحماس دخلتا انتخابات تحت الاحتلال وتنافستا على الوزارة ورئاسة سلطة الحكم الذاتي وتمولتا من المال المسموم سواء النفطي أو الغربي ودخلتا حرب المراكز السياسية أي الاستدوال وانتهتا إلى الانقسام والذي مع الزمن يأخذ شكل التقاسم: فتح في رام الله وحماس في غزة.

(١) ربما يكمن مأزق حركة الجهاد الإسلامي أنها في غزة تحديداً تعمل بشكل علني في مناخ سياسي بقيادة حماس التي هي شريكة في الاستفادة من منافع أوسلو! أما في الضفة الغربية فتعمل بشكل سري، وهذا هو الوضع الطبيعي.

وعليه، حيث دخلت الفصائل الفلسطينية معركة الاستدوال كمعركة سياسية تحت وجود الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، فهذا يعني بلا موارية أن هذه القوى لم تعد جزءاً من مشروع التحرير وتحديداً أنها اشتركت هي ومختلف الفصائل التي تقاطعت مع أوسلو في دفن انتفاضة ١٩٨٧.

إذن، فالانتفاضة بدأت عفوية لم يفجرها أي فصيل، ثم قادتها الفصائل، وربما لهذا لم تولد أحزاباً أو فصائل جديدة مما سمح لنفس الفصائل القديمة بامتطائها وفي النهاية دفنها والخروج من مشروع التحرير. وهذه السيرورة التراجعية هي التي حالت دون تبلور انتفاضة تنموية[١] وثقافية كمكونات لحرب الشعب طويلة الأمد. فهل سينجح محور المقاومة في حمل هذا المشعل؟

الانتفاضة وخسائر العدو:

كان طبيعياً أن تُلحِق الانتفاضة خسائراً باقتصاد العدو. ولكن، لم يكن هدف الانتفاضة فقط حرباً اقتصادية، بل استخدام وتعميم مقولة المقاطعة كجزء من موديل التنمية بالحماية الشعبية لإعادة بناء الاقتصاد المحلي تنموياً، وصولا إلى أعلى درجة من فك الارتباط باعتماد الحماية الشعبية خاصة وتحديداً. أي بكلام آخر، الانتفاضة ثورة تحرير وطني شعبي وليست مشروع مساومة واستدوال على جزء من أرض الشعب. هذا الموديل من حرب الشعب هو جزء أيضاً من شعار "الحياة مقاومة". وعليه، ليس الأمر تنافساً أو حرباً اقتصادية ضد اقتصاد العدو، بل مقاومة ودفاع ذاتي وهو يتضمن بالضرورة إلحاق أعلى ضرر ممكن باقتصاد العدو وتوقع مقاومة شعبية مديدة.

---

(١) لعل مسألة التنمية حاسمة في الفرز الأيديولوجي والطبقي والسياسي الفلسطيني من جهة وحاسم في كشف عدم الاختلاف تجاه التنمية بين اليمين واليسار الفلسطينيين. اليمين بلا منهج تنموي واليسار بالأنجزة وحتى بعض اليسار من يزعم بإمكانية تنمية تحت الاحتلال عبر الخطة الاقتصادية لسلطة الحكم الذاتي! انظر نقد ما كتبه أحمد قطامش حيث أثبتناه في: استلاب التموُّل واغتراب التنمية، قراءة نقدية لأدبيات في "تنمية" اقتصاد الأرض المحتلة ١٩٦٧، (نسخة موسعة) عادل سمارة.

https://kanaanonline.org/ebulletin-ar/wp-content/uploads/2015/05/ADEL-SAMARA-CRITIQUE-OF-DEVELOPMENT-PALESTINE.pdf

هناك في الحقيقة مسألتين لا بد من ذكرهما هنا:

- الأولى: أن الصراع مع الكيان الصهيوني الاشكنازي ليس مجرد صراع اقتصادي بمعنى تنافس أنظمة، وهذا لا ينفي أن أساس إيلاج الكيان في فلسطين هو من أجل مصالح الرأسمالية الغربية في الوطن العربي. إلا أن نضالنا الاقتصادي هو جزء من مشروع تحرير الوطن وليس المنافسة الاقتصادية مع اقتصاد العدو. وهنا تجدر الإشارة بأن الصراع الاقتصادي مع اقتصاد العدو هو صراع مع اقتصاد الرأسمالية الغربية بعمومها التي خلقت الكيان وتدعمه وصولاً إلى حمايته. وقد أصبح هذا النضال أيضاً ضد كامل اقتصاد وسياسات الثورة المضادة وخاصة جانبها الصهيوني العربي الذي يهرول للتطبيع سياسياً واقتصادياً وفي كل مستوى مع العدو.
- والثانية: وهي وجوب الانتباه إلى التضليل المقصود أو الساذج بأن هناك فرصة "للتنمية" التقليدية في المحتل ١٩٦٧ في ظل اتفاقات أوسلو كما تردد أدبيات الليبراليين/ات في سلطة الحكم الذاتي وبعض "اليساريين" الذين يرون ذلك، وخاصة من يرون حتى في السياسات الاقتصادية لسلطة الحكم الذاتي على أنها قادرة على تحقيق "التنمية" إذا ما طُبِّقت "كما يجب"[1]! وهذا يطرح السؤال التناقضي المركزي وهو: هل التنمية وحتى النمو تحت الاحتلال الاقتلاعي ممكنة حتى بمعزل عن الاستشهاد بتجربة ربع قرن!

جرى تصميم السياسة الاقتصادية للعدو بحيث يتم التقويض المستمر لاقتصاد المناطق المحتلة. ودون الدخول في التفاصيل، فقد كان أحد مفاصل هذه السياسة امتصاص قوة العمل المحلية للعمل في اقتصاد العدو من أجل:

١. تفريغ مواقع التشغيل المحلية كجزء من سياسة تقويض مواقع الإنتاج وذلك بإغراء العمال بأجور تفوق كثيراً متوسط الأجور المحلية، ولكنها تقل كثيراً عن أجور العمال حاملي جنسية الكيان!

(1) https://kanaanonline.org/ebulletin-ar/wp-content/uploads/2015/05/ADEL-SAMARA-CRITIQUE-OF-DEVELOPMENT-PALESTINE.pdf

٢. وامتصاص الشباب بعيداً عن المشاركة في النضال الوطني كخطوة احترازية من سلطة الكيان لمواجهة المقاومة.

بموجب هذه السياسة، جرى تركيز العمال الفلسطينيين في العمل الأسود، البناء، تنظيف الشوارع والبيوت، قطاف المحاصيل... الخ. وهذا "رفع" القطاعات الدنيا من العمالة الصهيونية إلى مشرفين على العمالة الفلسطينية، مما يعني على الأقل مراتبية طبقية[١] تقوم على أساس فوقية اليهودي أو حامل جنسية الكيان وحقق لاقتصاد العدو فائض قيمة عال جداً نظراً لفارق الأجور والخدمات بين العامل الفلسطيني والعامل من داخل الكيان الصهيوني. وعليه، فإن مبادرة العمال لمقاطعة العمل داخل اقتصاد العدو، وهو ما أسميته "الانسحاب إلى الداخل عمالياً" والذي ترتب عليه انسحاب العمال إلى الداخل، إلى السوق المحلية، استهلاكياً، وتبعته بالطبع مقاطعة/ الانسحاب إلى الداخل استهلاكياً من سوق العدو من قبل معظم شرائح أو "طبقات" المجتمع وهو ما ألحق أضراراً اقتصادية باقتصاد العدو طالت مختلف المشاريع هناك التي تنتج للتسويق داخل الأرض المحتلة ١٩٦٧ وهي بالطبع غالباً من البرجوازية ذات الأصول اليهودية الشرقية ومن الدرجة الدنيا صناعياً، أي إنتاج المواد الغذائية، والأثاث... الخ. كما ألحقت أضراراً بالعمالة اليهودية في المصانع ومواقع العمل الصهيونية التي تُنتج للتسويق في المحتل ١٩٦٧ ويُقدر عدد من كانت تشغلهم في حينه بـ ٧٥,٠٠٠ عامل.

لعل البُعد الأهم طالما نناقش الانتفاضة هو أن الانسحاب إلى الداخل استهلاكياً[٢]، وشُغلاً[٣]، يفترض أو يعني بالضرورة الذهاب إلى نشاطات محلية "تنموية"

---

(١) حينما أنهيت أطروحتي للماجستير في بريطانيا عرضتها على **Zed Books** للنشر، فأجابوني بأنها قابلة للنشر بشرط تحويل الفصل الخامس إلى تعاون بين العمال الفلسطينيين واليهود بدل كون العلاقة مراتبية أي العمال الفلسطينيون خاضعون لاستغلال طبقي وقومي. أي كان المطلب هو هدم جوهر الأطروحة القائم على عدم وجود تعاون ولا تحالف بين العمال من الطرفين. وطبعاً رفضت الاقتراح. اضطررت للهرب من بريطانيا بعد اغتيال ناجي العلي ووضعت أوراقي لدى الرفيق الإيرلندي توبي شلي حيث أرسلها إلى رام الله مع المحامية التروتسكية ليئا تسيمل، لكنني وجدت أن هذه الرسالة وأمور هامة أخرى قد فُقدت!

(٢) حسب جيروزالم بوست ١-٣-١٩٨٨ هبطت مبيعات المنتجات الصناعية في قطاعات معينة من اقتصاد الكيان في الشهر الثالث للانتفاضة بنسبة ٣٠ بالمئة.

(٣) حتى أواخر الشهر الثالث للانتفاضة وصلت نسبة العمال الفلسطينيين المقاطعين للعمل داخل الكيان إلى ٤٣ بالمئة (موشية كتساف، في جروزالم بوست ١-٣-١٩٨٨)، عن الحماية الشعبية، ص٩٠.

لإنتاج ما يمكن إنتاجه كبدائل للواردت من سوق العدو أو من الأسواق الصديقة للعدو والتي يُحظر على الفلسطينيين التواصل معها مباشرة إلا من خلال وسيط صهيوني.

وفي هذه المسألة بالتحديد يكمن فخٌّ آخر ضد اقتصاد المناطق المحتلة وهو الدور الذي لعبته شريحة الفئة الثانية من الكمبرادور المحلي[1] وهي الشريحة التي توسطت بين الاقتصادين والسوق الدولي تحت إشراف السياسات الصهيونية حيث تركز دور هذه الشريحة في تهريب/ واستمرار تسويق منتجات العدو إلى السوق المحلية مما لعب دوراً في إعاقة التنمية بالحماية الشعبية، أي ضرب الانتفاضة من الداخل المجتمعي.

في المستوى العسكري والأمني، فقد جنَّد الاحتلال منذ عدوان ١٩٦٧ عشرات آلاف الجنود والضباط والمخابرات والعملاء المحليين لضبط الوضع ومواجهة المقاومة في الأرض المحتلة. وهذه طبعاً فرص عمل لهؤلاء وكلفة على اقتصاد العدو. ولكن الانتفاضة غيرت المعادلة بحيث زادت عدد الجنود والمخابرات وحرس الحدود والشرطة الذين تم تجنيدهم لإخماد الانتفاضة مما كلف العدو الكثير.

وإذا كان كل هذا التجنيد قبل الانتفاضة قليل أو معدوم الكلفة طالما يتم استغلال بل احتلال سوق المناطق المحتلة بتبادل غير متكافىء تحت السلاح، فإن الانتفاضة قد كلفت العدو الكثير حيث:

- من جهة حصلت مقاطعة العمل والاستهلاك من أسواق العدو.
- ومن جهة ثانية تم تجنيد وتحريك أعداد ضخمة من قواته لقمع الانتفاضة.

لا تتوفر ولم تتوفر معطيات لأرقام خسائر العدو الاقتصادية جراء الانتفاضة، ولكن مما تم تقديره حينها نقتطف ما يلي:

- هبطت صادرات العدو إلى السوق المحلية من ٩٠٠ مليون دولار إلى ثلث هذا المبلغ. وتجدر الإشارة أن سد العجز الناجم عن هذه الواردات إلى

(١) مرت على الضفة الغربية المحتلة ثلاثة شرائح متتابعة من الكمبرادور، الأولى مرتبطة بالنظام الأردني قبل ١٩٦٧، والثانية مرتبطة بالحكم العسكري الصهيوني المباشر ما بين ١٩٦٧-١٩٩٣، والثالثة مرتبطة بسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية، وبالطبع تداخلت نفس الشرائح ببعضها.

الاقتصاد المحلي كان يتم من أجور العمال المحليين الذين يعملون في قطاعات اقتصاد العدو.

- في عام ١٩٨٨ وحده كانت كلفة تحريك جيش العدو ضد الانتفاضة هي ٨٠٠ مليون شيكل.
- وصلت خسائر قطاع السياحة الصهيوني عام ١٩٩٠ إلى ٥٣٠ مليون دولار.
- وخسر قطاع الزراعة وقطاف الزهور للتصدير من جراء توقف عمال قطف الزهور للتصدير الذين وصل عددهم إلى ١٥ ألف عامل من المحتل ١٩٦٧ يعملون في الالتقاط والتصنيف[١].

كما تضررت قطاعات أخرى كقطاع النسيج والبناء... الخ وهو الأمر الذي دفع العدو إلى استجلاب عمالة أجنبية[٢] للحلول محل العمالة الفلسطينية. كان الأمر صعباً على العدو حيث أن المقاطعة العمالية الفلسطينية لاقتصاده كانت فجأة، ولم يكن من السهولة بمكان ملىء هذه الشواغر لا من حيث سرعة الاستجلاب ولا من حيث كفاءة وتكيف العمالة الأجنبية مع طبيعة العمل ولا من حيث دفع أجورهم الأعلى من أجور العمال الفلسطينيين، ومن حيث توفير إقامة هؤلاء العمال حيث بدأ الحديث عن قلق صهيوني بأن هؤلاء العمال الأجانب قد يتحولون إلى جاليات أجنبية! وأين؟ في نظام عنصري حتى العظم يمارس عنصريته سواء بالقانون أو بالثقافة من اليهود الإشكناز ضد اليهود الشرقيين ومن اليهود البيض ضد اليهود السود... الخ. بينما كان العمال الفلسطينيين يعملون داخل الكيان ويعودون إلى منازلهم في المناطق المحتلة ١٩٦٧.

---

(١) الأرقام والمعلومات هذه مستقاة من كتاب الانتفاضة مبادرة شعبية: دراسة لأدوار القوى الاجتماعية، إعداد مجموعة من الباحثين، ١٩٩٠، دون دار نشر.

(٢) بدأ الاستجلاب بجلب ٤٥٠ عاملاً من جنوب لبنان، (جيروزالم بوست ١-٣-١٩٨٨).

لعل أهم منجزات الانتفاضة قبيل توقيفها في توقف الاستيطان واضطرار قوات العدو لحماية تنقل المستوطنين من المستوطنات المقامة في المحتل ١٩٦٧ إلى المحتل عام ١٩٤٨. وهذا التوقف هو الضربة الحقيقية للمشروع الصهيوني الذي يقوم أولاً وأخيراً على اغتصاب الأرض ومن ثم طرد/ إخلاء، إزاحة أهلها.

القسم الثاني

انتصارات مهزومة

محطات في صراع المرحلة الانتقالية

كما بيننا سابقاً، هي مرحلة انتقالية أسميتها باكراً مقرونة بالسياسات النيوليبرالية كدرجة أعلى من الإمبريالية، وهو أمر يختلف فيه كثيرون حيث يرون العولمة طوراً من الإمبريالية[1]، سِمَتُها الرئيسية على الصعيد الدولي بداية تفرُّد القطب الواحد الرأسمالي أي الولايات المتحدة، وإن كان ثلاثي التركيب (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان) بالعالم بعد أن تمكن من هزيمة القطب الاشتراكي، ولكن هذه القطبية المتفردة وُلدت مصابة بسلسلة أزمات اقتصادية كان لا بد لها أن تخلقها بيدها، أن تخلق نقيضها، حيث سمح التفرُّد لهذه القطبية بالهجوم الوحشي ليس على الصعيد العالمي بل الداخلي أيضاً، أي الجشع في تعظيم معدل الربح على حساب المكاسب التاريخية للطبقة العاملة وهو الربح الذي كدس لنخبتها المتضائلة عددياً، والمنتفخة ثراء تريليونات الدولارات التي تراكمت كأموال كسولة من جهة أو تم تشغيلها في المضاربات المعولمة من جهة ثانية في شكل المولنة أي التفاقم الهائل لرأس المال المالي وتوليد المال من المال مضارباتياً دون الاستثمار في قطاعات الإنتاج، ومراكمة تريليونات أصبح تشغيلها مأزقاً. وتخصيص جزر للأموال الهائلة الهاربة من الضرائب، فأي ملاذات!

وخلال تعمق هذه الأزمة الاقتصادية كان الزمن يصنع أحداثه ولعل أهمها:

- تنامي أقطاب أخرى بالمفهوم الرأسمالي طبعاً، مما أدى إلى تنافس/ تعدد قطبي دون أساس اقتصادي وأيديولوجي للتناقض على الأقل كما يبدو حتى اليوم. فالأقطاب البازغة وخاصة الصين وروسيا تقوم على نُظُمٍ اقتصادية رأسمالية بعلاقات إنتاج رأسمالية، وإن تفاوت دور وتدخل وحصة الدولة بين بعضها البعض، وهذا ينطبق إلى درجة أقل على بقية دول البريكس.

---

(1) Beyond De-Linking: Development by Popular Protection vs Development by State, 2005. Palestine Research and Publishing Foundation, P.O.Box 5025, Glendale, CA 91221, USA., and Al-Mashreq, Ramallah, 2005.

- تواصل ضعف دور ومن ثم حصة العمل مقابل رأس المال.
- تنامي حركات تحرر اجتماعي في المحيط ولكن دون وصولها هنا أو هناك إلى مرحلة تهديد بتغيير النظُم الرأسمالية المحيطية، التابعة.
- تهالك كثير من أنظمة حكم بلدان المحيط على التبعية للقطب المسيطر متبنية التصحيح الهيكلي أو الهجوم على الطبقات الشعبية مما زاد تحويل الثروة للمركز كفائض نقدي، ومع ذلك لم يتم توظيف هذا الهجوم في تدعيم دور الطبقة العاملة وقوى اليسار لتغيير تلك الأنظمة.
- توفر فائض قوة عمل رخيصة إضافية من بلدان القطب الاشتراكي المفكك مترافقاً مع انفتاح أسواقها بالطبع، وإن كانت تلك الأسواق أقل قدرة استهلاكية، لندرة السيولة، مقارنة بسيولة بلدان الريع النفطي في الوطن العربي.
- باختصار انتقال معظم بلدان الاشتراكية المحققة من محاولات فك الارتباط بالنظام الرأسمالي العالمي إلى الانخراط التابع الطوعي بلا شروط في حالة من السقوط المتهالك تحت أقدام ضواري رأس المال.

أوروبا الشرقية:

نصف ثورة نصف مضادة:

كيف كان لأنظمة تتبنى قدراً من الاشتراكية أن تتفكك هكذا حتى دون عنف طبقي مقاوِم؟ ألم تكن هناك طبقة، شريحة اجتماعية، حزباً، بعض الحزب، تقاوم هذا التفكك/ التفكيك الذي اتخذ شكلاً أقرب إلى التفكك الذاتي؟ كان لا بد من مقاومة لتجرُّع الهزيمة بشرف. هل كانت هذه الأنظمة متحللة من داخلها إلى هذا الحد؟ هل تم الشغل على تفكيكها على مدار عقود؟ وكيف يمكن لنظام أقيم من أجل الطبقة العاملة أن تنهض ضده هي نفسها؟ هل كان كل هذا جهلاً وانحطاط وعي طبقي؟ هل كان

بوسع إعلام الثورة المضادة اختراق الوعي الجمعي للطبقة العاملة؟ هل كان هناك جهل بجوهر الرأسمالية؟ وهل الجهل بذلك ناجم عن عدم مرور كل أو بعض تلكم البلدان بالمرحلة الرأسمالية؟ وهل كانت الجماهير منقطعة عن عسف رأس المال منذ المرحلة التجارية وحتى حين سقوط أو إسقاط هذه الجماهير للأنظمة العمالية في بلدانها؟ وكيف يمكن العودة إلى الكنيسة ولا سيما في أوروبا وتاريخ الكنيسة معروف من حيث دورها الرجعي وتحالفها مع الطبقة الإقطاعية ولاحقاً مع الرأسمالية في فترة التحول الذي لم يكتمل بسبب الثورة الاشتراكية ناهيك عن مذابح الطوائف بإشراف الكنيسة وهي المذابح التي شكَّلت المرجعية الرئيسية لمذابح القاعدة وداعش بل ومختلف أنظمة وقوى الدين السياسي في الوطن العربي[1]. فهل كان لا بد أن يكتمل؟ ألم يُلحظ دور الكنيسة بداية من دعمها لنقابة "تضامن" في بولندا؟ أم أن رسملة الدين في أوروبا الغربية والولايات المتحدة وتحول رجال الدين إلى الجزء الديني من المثقفين العضويين لرأس المال تمظهر بشكل أشد رجعية في أوروبا الشرقية وعلى شكل "دين سياسي"؟

ولكن/ هل كانت تلك الأنظمة اشتراكية أو ذات توجه حقيقي للاشتراكية؟ بالطبع لا، ولو كانت كذلك لما كان من يثور ضدها هم العمال. وحتى لو كان وعي العمال مشوهاً بينما النظام اشتراكي فهذه معضلة ما كانت لتنتج لو كان النظام اشتراكياً بالمعنى التطبيقي وليس بمجرد الرطانة. قد يجد المرء بعض الإجابة في ما آلت إليه أوروبا الشرقية خاصة بعد سقوط الأنظمة الاشتراكية. وليست هذه سوى بعض الأسئلة.

أورد لاحقاً بعض وقائع المشهد وضمنها مراجعتي لكتاب "الغدر أو خيانة الاشتراكية" عن آليات تفكك الاتحاد السوفييتي بما هو المعْلَم الرئيسي لهذا السقوط المأساوي. وهذه المراجعة تتضمن فيما تتضمن، الصدمة من عدم حصول مقاومة للثورة

(١) الطوائف والتطويف وأثر رأس المال في تجميدها وإخمادها دون استئصالها. ودور الحزبية في ذلك. وغياب هذه الآثار في الوطن العربي وكذب من يروا ماضي داعش في الوطن العربي بل في الغرب الأوروبي تحديداً وفي الاستيطان الأبيض في أمريكا. لاحظ أن الصراع في الوطن العربي كان في قمة الحكم وليس في القاعدة الشعبية سنة وشيعة سوى مؤخراً.

المضادة مع أن الشيوعيين كانوا في السلطة وعلماً بأن تخريب النظام بدأ من داخله من جهة، ولم تتولد من داخله أيضاً مقاومة ذات قيمة ودور.

التحولات في شرق أوروبا:

نُظر إلى التحولات في أوروبا الشرقية من ثلاث زوايا مختلفة:

- انحراف عن الاشتراكية (انظر أدناه)
- ثورة مضادة
- خليط بين الرأسمالية والاشتراكية (طريق ثالث) تقليد متأخر ومحتجز للاشتراكية الديمقراطية في أوروبا الغربية؟ ربما روسيا الاتحادية.

ولكن، بغض النظر عن أيها الصحيح، أو أن الصحيح هو تداخلها معاً، فإن مآل تلك المنطقة، باستثناء روسيا الاتحادية يبين بأن ما حصل من تغير كان عملياً، في المستويات السيادية والاقتصادية والإجتماعية والمعيشية، مثابة تراجع إلى الخلف وخاصة من حيث التبعية السياسية ودخول معظمها حلف الناتو العدواني وخاصة بولندا وتشيكيا والمجر وسلوفينيا بلغاريا ورومانيا مما أوصله حواف الاتحاد الروسي، ناهيك عن الانهيار الاقتصادي والتخلخل الاجتماعي[1] والتحول إلى سوق يستهلك منتجات الغرب ويصدر قوى عاملة رخيصة ونخاسة النساء[2]. لقد أصبحت تلك المنطقة ساحة

(١) "... وحيث هي من بين بلدان ما بعد الشيوعية، (رومانيا – ع.س) فقد استهدف/ مركز شورش النظام التعليمي خاصتها. ففي الفترة ما بين ١٩٩٠-١٩٩٤، كان صندوقه – وهو ربما أكبر صندوق تحوُّط في العالم – ع.س – مشغولاً في صياغة "كتب المناهج" – التي كُتبت من قِبل أعضاء في الصندوق بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم". **The Soros reign: a Romanian example-katehon.com**

(٢) "ذكر المراقب رعنان كاسبي الضابط في وحدة التحريات في الشرطة الإسرائيلية خلال اجتماع للجنة برلمانية حول الاتجار بالنساء، أن ٨٥٠ أجنبية كن يعملن كعاهرات أو في خدمات المرافقة تم إبعادهن من إسرائيل وإرسالهن إلى دولهن الأصلية. ... ومن بينها أوزبكستان ومولدافيا وبيلاروسيا وروسيا... وأبلغ دانييل ماروم رئيس دائرة المنظمات الدولية وحقوق الإنسان في وزارة الخارجية الإسرائيلية اللجنة البرلمانية عن الظروف القاسية التي تتعرض لها هؤلاء النساء"، جريدة القدس عن هآرتس. انظر عادل سمارة، **تأنيث المرأة بين الفهم والإلغاء**، منشورات دار الرواد، دمشق ومركز المشرق/ العامل، رام الله، ٢٠١١. باب البغاء.

خلفية لتمارس فيها الإمبريالية كافة أشكال الاستغلال والتخريب والتآمر على العالم بدرجة هائلة من حرية الفلتان وما تسمى الثورات البرتقالية، وفي كل هذا يكون للكيان الصهيوني دور[1].

حتى اليوم، ورغم إلحاق أوروبا الشرقية بالغربية، فإن مختلف الكتابات التي تحمل تسمية أوروبا، مقصود بها تطور أو التأريخ لتطور أوروبا الغربية والشمالية طبعاً وهذا أساس المراكزانية الأوروبية، ولا يُقصد بذلك أوروبا الشرقية التي بقيت متخلفة حتى حينه عن الغربية.

يمكننا التأريخ لتأخر أوروبا الشرقية عن الغربية بالعودة إلى القرون الثلاثة للرأسمالية الميركنتيلية (١٥٠٠ ــ ١٨٠٠). كان الحدث المفصلي في تبلور الرأسمالية كمرحلة تاريخية قطعت مع الإقطاع بعنف هو في نهاية القرن الثامن عشر مع حدوث الثورة الصناعية الإنجليزية التي اخترعت الصناعة الآلية، وكذلك قيام الثورة الفرنسية التي اخترعت السياسة الحديثة. لقد كان لافتاً ذلك التطور المتكافىء/ المتوازي نسبياً من حيث الزمن والمستوى Even Development بين بلدان أوروبا الغربية بعيداً عن أوروبا الشرقية وحتى الجنوبية. المهم أن القرن التاسع عشر حمل النقلة النوعية للتطور الرأسمالي هناك حيث فرض تراكم رأس المال شكله النهائي ليكون القانون الأساسي الذي يتحكم في التطور الاجتماعي. ومنذ البداية كان هذا الشكل من التراكم في الوقت ذاته، بناءً وهداماً. وقد توصل ماركس لهذه الملاحظة المبكرة التي تقول: التراكم يدمر الأساسين اللذين تقوم عليهما الثروة وهما الكائن الإنساني والطبيعة. ولعل هذا كان حافز ماركس الذي أنفق حياته في البحث والتنظير والنضال لتقويض هذا النظام.

وفي هذا السياق يجدر بنا استعادة مسألة الاستعمار الذي بنهب المستعمرات دفع التراكم الرأسمالي دفعات هائلة كانت نتيجتها الاستقطاب على الصعيد العالمي أي انفصام العالم إلى مركز متطور وإلى محيط متخلف وتابع. والاستعادة هنا تشتمل على نهب ثروات المحيط والذي أسماه الراحل أنور عبد الملك "فائض القيمة التاريخي"، أي

(١) بدأت في ٣ حزيران ٢٠١٨ مناورات عسكرية مشتركة في بولندا بين الناتو والجيش الصهيوني.

حساب تاريخ طويل من نهب وتحويل الثروات من المحيط إلى المركز. وهو ما لم ينتبه إليه أحد وكأن فائض القيمة لم يتحصل سوى على صعيد الدولة القومية الواحدة لصالح الطبقة الرأسمالية على حساب عمال البلد نفسه أو كأن النهب هو في هذه الفترة فقط.

وهنا يمكننا القول بأن النهب الأوروبي الغربي كان بعيداً إلى حد ما عن أوروبا الشرقية التي كانت تخضع لإمبراطوريات أعاقت تطورها إلى أن فككتها الحرب الإمبريالية/ الغربية الأولى. لقد دخلت الإمبراطورية النمساوية المجرية بعد الحرب العالمية الأولى مرحلة ترنح وضعف استمر حتى عام ١٩١٨ حيث قسمت بالكامل بين عدة دول: النمسا والمجر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وأجزاء صغيرة إلى إيطاليا وبولندا ورومانيا. فتمزقت الإمبراطورية بالمعنى الحرفي للكلمة. وكانت الإمبراطورية العثمانية قد بدأت تفقد سيطرتها على الأجزاء التي استعمرتها من أوروبا الشرقية قبل الحرب الأولى بزمن ممتد.

ظل إذن تطور أوروبا الشرقية متأخراً ولاحقاً لتطور أوروبا الغربية سواء في مرحلتي الإقطاع والرأسمالية وبقيت العلاقة فيما يشبه مركز / محيط. وكانت فترة النظام الاشتراكي هي التحرير النسبي لأوروبا الشرقية من التبعية للغرب الرأسمالي، ولكن سرعان ما عادت للتبعية بعد تفكك الكتلة الاشتراكية.

كتب كراوسز وناراي:

"... كشف مسار الأحداث بأنها "كثورة تصحيحية" – وهذا ما وصفه يورغن هابرماس بأنه ينقل الناس من تجربة فاشلة إلى عالم برجوزاي ديمقراطي. إن الموديل – الانتقالي– **Transitology** – حيث سادت الأدبيات التنموية في التسعينات والداعية لِـ "اللُحاق" "بالركب" التنموي لجماهير وسياسيي شرقي أوروبا وأن ذلك يوصل إلى اللحاق بمستويات الاستهلاك والازدهار الأوروبي الغربي حالما يتبنى جماعة اللحاق للمنطقة نماذج المؤسسات السياسية والرأسمالية الأوروبية الغربية. كان هذا، بالطبع، وهماً[1].

(1) Tamás Krausz and Róbert Nárai, Searching for Alternatives in Eastern Europe monthlyreview.org/2019/04/01/searching-for-alternatives-in-eastern-europe 1 April 2019.

ويجادل ثوماس كراوسز وروبرت ناراي:

"فشلت تجربة البرجوازية الديمقراطية لأنها لم تُبنى على برجوازية ديمقراطية... ففي المجر وبلدان أخرى من شرقي أوروبا، فإن أولئك الذين في السلطة قد تفهموا الحاجة لتبني أنظمة سلطوية التي بوسعها تجويف الشكل البرلماني ونظام الأحزاب السياسية"[1].

لكن السؤال الذي لم يتوقف التاريخ عن المجادلة ضده هو: هل البرجوازية ديمقراطية دائماً؟ أم أن ديمقراطيتها مرتبطة ومنوطة بعدم وجود معارضة قوية لها تهدد سيطرتها وليس فقط هيمنتها؟

"يمكن وصف شرق أوروبا الآن، بأنه في وضعية شبه محيط للنظام العالمي"، حالة وسطية ربما كما كانت دائماً!

وهذا يطرح السؤال، ما المقصود بالمحيط؟ قد يُفهم هذا التوصيف فقط في حال اعتبرنا المحيط درجات، أي أن تلك المنطقة شبه محيط مقارنة مع إفريقيا الصحراء كمحيط.

الآن أصبح من المسلم به أن تغيير نظام أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي كان كذلك لا ينفصل عن إعادة هيكلة النيوليبرالية للنظام الرأسمالي العالمي ومن الجديد أشكال وتحديات القوة الرأسمالية المتعددة الجنسيات.

لعل من اللافت أن تطور أوروبا الغربية كان إلى حد ما متوازياً متوازناً. فرغم الحروب الطاحنة بينها إلا أنها بقيت مفتوحة تجاه بعضها البعض من حيث تبادل تقنية التطور الصناعي وانتقالها/ عبورها بشكل متساوي/ متكافىء نسبياً إلى الثورة الصناعية، وإن كان هناك استثناء نسبي لجنوب أوروبا أي اليونان والبرتغال وإسبانيا حيث كان

(1) Tamás Krausz and Róbert Nárai, Searching for Alternatives in Eastern Europe monthlyreview.org/2019/04/01/searching-for-alternatives-in-eastern-europe 1 April 2019.

لحاقها بأوروبا الغربية أسرع من لحاق أوروبا الشرقية وإن لم تصل اللحاق المطلوب حتى في ظل عضويتها في الاتحاد الأوروبي[1]. أما شمال أوروبا فكان أسرع في اللُحاق بل وحافظ على تفرد معين عبر قيادة الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية لكن صمودها في هذا الاتجاه يتضاءل على ضوء الأزمة العامة للرأسمالية. وعليه، فإن المقولة التطورية التي تقول: "لا يابان بعد اليابان" هي جوهرياً "لا أوروبا ولا أي مكان بعد أوروبا الغربية". لذا كان البديل هو التطور الاشتراكي ونصف البديل هو طريق أوروبا الشمالية.

لقد قاد التطور المتأخر لأوروبا الشرقية سواء قبل الحقبة الاشتراكية أو بعدها إلى ديمومة لعنة التأخر على هذا الجزء من أوروبا.

قد نصل إلى بعضٍ من حل لغز تهافت هذا الجزء من أوروبا ودورانه في ذيول التبعية إذا لاحظنا أن هذا الجزء حمل موروث خضوعه لإمبراطوريات لم تنجز، أو تأخرت، العبور إلى الثورة الصناعية، أي العثمانية كاستعمار مباشر لجزء من هذه المنطقة وإمبراطورية هوهنزولرن وإمبراطورية آل رومانوف.

لذا كان يمكن القول بأن خضوع أوروبا الشرقية لهذه الإمبراطوريات لعب دوراً أساسياً في تخلفها الذي بقي كموروث حتى بعد أن انتهت وتفككت تلكم الإمبراطوريات إثر الحرب العالمية/ الإمبريالية الأولى.

كما أشرنا أعلاه، على الرغم من صغر القارة الأوروبية إلا أن التفاوت في تطور جهاتها واضح، وخاصة الفارق بين الجهة الغربية والشرقية ناهيك عن أن شمالها وجنوبها أيضاً أفضل وأسبق تطوراً من شرقها.

لم يكن التطور محتجزاً بين أجزاء أوروبا الغربية رغم الحروب الطاحنة فيما بيها. وليست لدينا الإجابة إن كان سبب انغلاق أوروبا الشرقية عن التطور الغربي

(١) كان أحد شروط انضمام إسبانيا بعد فرانكو إلى الاتحاد الأوروبي أن تعترف بالكيان الصهيوني، ولكن، إذا كانت تركيا قد اعترفت باكراً بهذا الكيان، فهل رفض ضمها بعيداً عن دور هام لقوى الدين السياسي في أوروبا وفي تركيا على حد سواء؟

الملاصق لها هو غير تقاسمها بين الإمبراطوريات الثلاثة التي لم تتحطم إلا بعد الحرب الإمبريالية العالمية الأولى. ولكن يمكن القول أيضاً، بأن هذه المنطقة ليست كتلة متجانسة قومياً بالطبع، بل هي متشظية كبقايا الأمم وأكثر علماً بأن التشظي يعيق التطور أكثر من حالة التشكيلات الكبيرة.

وقد تضيء على هذا الأمر المقولة الدارجة: "لا يابان بعد اليابان" بمعنى أن أوروبا ومستعمراتها الرأسمالية البيضاء لم يُفلت من دورها/ إستراتيجيتها في احتجازها تطور العالم سوى اليابان. بهذا المعنى، تكون الإمبراطوريات الثلاثة قد خدمت المركزانية الأوروبية الغربية في تخلف الشرق الأوروبي.

دخول اليابان تحت حكم آل ميجي إلى الرأسمالية بعيداً أو بأقل إعاقة من الغرب الرأسمالي ربما كان المحاولة الأولى/ المبكرة في "الاعتماد على الذات" التي طورتها مدرسة التبعية **Dependency School** و"فك الارتباط" **De-linking** التي طرحها المرتحل سمير أمين[1].

قد يتفهم المرء وجود عوامل، أي قوى داخلية في أوروبا الشرقية لعبت دوراً في تأصُّل تخلفها إذا ما نظرنا إلى الفترة ما بين الحربين الإمبرياليتين العالميتين والتي يُطلق عليها فترة تراخي القبضة الإمبريالية والتي انتهزتها بلدان مثل المكسيك والأرجنتين والبرازيل وتشيلي وأسست لنهضة صناعية متقدمة نسبياً. وذلك كي نلاحظ أن هذا لم يحصل في أوروبا الشرقية الملاصقة لأوروبا الغربية باستثناء تشيكوسلوفاكيا (لاحقاً انقسمت إلى تشيك/ وسلوفاك!)، كما لم يحصل تطور في الوطن العربي مع فارق أن الاستعمار العثماني سلَّم الوطن العربي للاستعمار الإنجلو – فرنسي تسليماً بالمفتاح[2].

---

(١) انظر عادل سمارة كتاب 2005 ,.**De-linking**، مصدر سبق ذكره.

(٢) نقصد بهذا أن الاستعمار العثماني الذي تواصل على الوطن العربي لأربعة قرون قد خرج مهزوماً من هذا الوطن بعد أن أهلك الحرث والنسل مما جعل سيطرة الاستعمار الغربي "سهلاً". ومع ذلك تزعم قوى الدين السياسي بأن العرب "خانوا" الخلافة الإسلامية العثمانية! هذا وكأن الاستعمار العثماني كان مبرَّرا فقط لأنه استعمار بثوب إسلامي! علماً بأن الدين ليس صاحب الدور الأساس في أنظمة الحكم والعلاقات الاقتصادية بين المجتمعات بل الأساس هو الاقتصاد محدداً في المصالح الاقتصادية. هذا إضافة إلى أن الإسلام، نقلاً عن الرسول، يحصر الخلافة في قريش، أي في العرب.

كانت الحالة الفريدة لمحاولة التطور من خارج الحالة الأوروبية هي مصر محمد علي ولكن تحالف الاستعمار الرأسمالي الغربي (بريطانيا وفرنسا) مع الاستعمار العثماني حينها أدى إلى تدمير تلك التجربة.

لذا، توقع البلاشفة، أو شبه تأكدوا، بناء على تحليل ماركس، بأن الثورة سوف تأخذ مجراها في المانيا المتطورة صناعياً، والقريبة من روسيا حيث الوجود الموضوعي والذاتي للبروليتاريا وحزبها الشيوعي، ولم يراهنوا على أوروبا الشرقية اللصيقة أيضاً بالاتحاد السوفييتي. وحيث تأخرت الثورة في ألمانيا واتضح أنها لم تحصل في حينه، دخل السوفييت في جدل حاد ومفصلي فيما يخص الثورة في بلد واحد أم تواصل الثورة وديمومتها طبقاً لمركزية الديمومة في أطروحات ماركس والتي التقطها تروتسكي إلى درجة وصفها، من قبل أنصاره على الأقل، بأنها من عنديات تروتسكي نفسه.

وهنا، نجد عبثاً في المسألة، فالثورة بالنسبة لماركس، بل ونظراً لطبيعة الثورات هي دائمة أساساً ارتكازاً على قوانين الديالكتيك. وغير الدائم هم جماعات أو أحزاب أو قادة من الثوريين. أي أن الثورة مسألة حدث موضوعي متفاعل يخبو ويتأجج لكن قانونه العام هو الديمومة، وما يعيق ذلك هو العامل الذاتي إما عجزاً منه وإما انحرافاً بمعنى أن انحصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد ليس اختياراً.

وبقي الجدل تجاه الاشتراكية في بلد واحد حتى اليوم. لا بل هناك ومنذ عدة عقود، أي قبيل تفكك الاتحاد السوفييتي، استعادة للخطاب الإصلاحي في الماركسية بل في الشيوعية عموماً، بدءاً بالحنين إلى كارل كاوتسكي وما فوق/ بعد الإمبريالية وصولاً إلى الثورة الدائمة بطبعتها التروتسكية... الخ. وكأن هذا التيار يأسف على حصول الثورة البلشفية ويرى في انتصارها وبناء الاتحاد السوفييتي خطيئة كان يجب أن لا تحصل وكان يجب الذهاب في الاتجاه الليبرالي الاندماجي في الغرب الرأسمالي. أو الذهاب بالثورة إلى مغامرات دفع الثورة إلى أوروبا الغربية بالقوة التي لم يكن بوسع الاتحاد السوفييتي تنفيذها، هذا إذا كان تصدير الثروة هو أمر مشروع. لقد كتب لينين بوضوح بأن المشكلة في تأخر أو عجز الشيوعيين وخاصة في ألمانيا، وهو ما عايشه ستالين

بوضوح ولعقود وبقي الأمر معلّقاً حتى الحرب العالمية/ الإمبريالية الثانية والتي تولدت عنها "اشتراكية" أوروبا الشرقية. وهي تجربة تؤكد أن عدم نضوج القوى الشيوعية يولد "اجهاضاً" يعيش مؤقتاً لا ثورة حقيقية. واصل رافضو الاشتراكية في بلد واحد نقد الاتحاد السوفييتي بأنه "خان" الثورة الاشتراكية، ومع ذلك لم ينظروا إلى دوره في تحرير أوروبا الشرقية ودعمه قيام أنظمة الاشتراكية هناك على تجاوز للاشتراكية في بلد واحد حيث نُظر إلى دوره كدور مهيمن!

ربما كان تحرير شرق أوروبا تحريراً سوفييتياً أكثر مما هو تحرر ذاتي، وهو منسجم مع كونها حالة محيطية، على الأقل من حيث مستوى ووتيرة تطورها الصناعي خاصة والاقتصادي عامة، في مختلف المراحل وقد يكون ذلك أساسي في بقاء عدم تجذر تطورها. وربما لهذا كان ضرب المركز السوفييتي من خلال محيطه الأقرب أي أوروبا الشرقية. وهذا التفسير إن صح، هو أقرب إلى تفسير سمير أمين لنمط الإنتاج المختلف عن الإقطاع الأوروبي الذي تفكك من مركزه. طبعاً قصد سمير أمين نمط الإنتاج الخراجي، وما نقصده هنا هو تشابه موقع التفكك وليس سحب النمط الخراجي على شرق أوروبا.

يمكن وصف أوروبا الشرقية بأنها "المحيط" اللصيق بالاتحاد السوفييتي، فقد شكلت المرحلة الثانية من تفكيك الكتلة الاشتراكية بعد انفكاك محيط الاتحاد السوفييتي الأبعد في آسيا وإفريقيا ومنها بلدان من الوطن العربي طبعاً حيث حافظت تلكم البلدان على علاقات سياسية وربما تسليحية مع الاتحاد السوفييتي، لكنها انخرطت في السوق الرأسمالية وكانت متاجرتها وخاصة وارداتها هي بشكل أساسي مع أوروبا الغربية[1]. ما نقصده هنا أن تفكك المركز الاشتراكي بدأ من أطرافه البعيدة فالمباشرة وصولاً إلى القلب.

(١) انظر عادل سمارة، البريسترويكا والعلاقات العربية السوفييتية: النظام العالمي يعيد إنتاج نفسه، منشورات مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، فلسطين المحتلة ١٩٤٨، ١٩٩١، ص ص١٠١-١١٣.

لم تتمكن أوروبا الشرقية من استثمار تطورين هامين في العالم في فترة ما بين الحربين:

- انتصار الثورة البلشفية، حتى وإن انحصرت في الاتحاد السوفييتي
- وتراخي القبضة الإمبريالية بين حربيها العالميتين.

وبقيت صدمة أو دفعة التطور محتجزة مؤجلة إلى حين انتصار الاتحاد السوفييتي على النازية، الانتصار الذي حققته دولة متهمة بأنها دولة "الاشتراكية في بلد واحد".

إثر انتهاء الحرب الثانية كانت أوروبا الشرقية قد أصبحت ضمن المعسكر السوفييتي أي أصبحت محيطه اللصيق لقرابة خمسة عقود من الزمن. وهذا يطرح السؤال بمعنى: هل كانت علاقة الاتحاد السوفييتي بأوروبا الشرقية قائمة على تجاوز الاشتراكية في بلد واحد، حيث هكذا يُفترض، أم أن أوروبا الشرقية كانت مجرد محيط للاتحاد السوفييتي؟ لدى التروتسكيين فإن تلكم البلدان كانت مجرد محيط.

هل كان لأوروبا الشرقية دورها في انحطاط الثورة أعلى من دورها في الثورة نفسها؟ هذا ما يفيد به تدهور الثورة على صعيد عالمي. وهو تدهور يختلف عليه الثوريين في العالم حيث ينسبه البعض إلى فترة قيادة ستالين في الاتحاد السوفييتي، وينسبه البعض إلى ما بعد ستالين بدءاً من نيكيتا خروتشوف. ولكن رغم الجدل الحاد فيما يخص ستالين، إلا أن فترته كانت فترة الصعود المشوب بالقمع الذي كما يبدو كان مبرراً، ولم يكن هائلاً كما يكذب الغرب البرجوازي والمتساقطين من الحركة الشيوعية كمعظم التروتسكيين. وربما لخَّص ونستون تشرشل فترة ستالين بـ: **"ستالين هو الذي نقل الاتحاد السوفييتي من المحراث الخشبي إلى العصر النووي"**.

ولكن، من بوسعه الزعم أن القمع كان في الشرق فقط؟ يكفي أن الولايات المتحدة "رمز" الحريات لا يقل عدد السجناء فيها عن مليوني شخص ليسوا جميعاً من المجرمين واللصوص فهي السلطة التي خلقت تنويعاً هائلاً من القمع السياسي المغطى ناهيك عن تخصيص السود باضطهاد متعدد. هذا إن لم نذكر حروبها على صعيد معولم ضد تطور مختلف الأمم!

لعل تدهور الثورة العالمية الذي في جزء منه سببه بل عنوانه الاتحاد السوفييتي بغض النظر عن الخلاف على ستالين أم ما بعده، ولكن الجزء أو السبب الآخر هو تدهور محيط الاتحاد السوفييتي بمستوييه البعيد واللصيق.

أرغب هنا بإثارة نقطة ليست لدي المراجع لحسمها وهي: أيهما كان صراع طبقي في أوروبا الشرقية؟ التحاق هذه المنطقة بالاتحاد السوفييتي لتكون جزءاً من الكتلة الشرقية الاشتراكية، أم الردة والسقوط مع نهاية ثمانينات القرن العشرين؟ أم هل كانت هذه المنطقة في حالة المجرور وليس الجارُّ على الدوام، أي وراء السوفييت بعد الحرب الثانية ووراء الغرب الرأسمالي بعد تفكك الاتحاد السوفييتي؟

لا تحمل هذه التساؤلات غمطاً أو استهانة بنضالات الشعوب والقوى الثورية هناك، ولكن يبقى السؤال المعلق هو: مدى أصالة دخول هذه المنطقة في المسار الاشتراكي، ومدى كون التحاقها بالغرب وخاصة الأطلسي هو خيار شعبي، وإن حصل فهل هو بوعي سياسي طبقي!

قد تساعد على الإجابة أو التفهُّم على الأقل قراءة ما آلت إليه تلكم المنطقة. فهل تم نقل التكنولوجيا الغربية الرأسمالية إلى أوروبا الشرقية كما حصل في الصين مثلاً؟ وهل تم اتباع "الديمقراطية" الغربية في تلكم البلدان؟ وهل كان العدوان الأطلسي على يوغسلافيا بهدف "دمقرطتها" أم تصفية نظام كان يحاول صد الغرق والبقاء خارج عباءة الغرب الرأسمالي؟

وقد يساعد على الإجابة أيضاً، تحول الجمهوريات ذات الأكثرية أو الأقلية المسلمة (البوسنة والهرسك) المنفصلة/ المفصولة عن يوغسلافيا وغيرها إلى ميادين للاختراق الغربي المخابراتي والفكر الوهابي والتدريب على بل والتحول إلى ميادين "للثورات" البرتقالية؟ وتسهيل نشاطات الإرهاب الصهيوني وخاصة الموساد[1]. هذا إلى جانب تحول جمهوريات البلطيق إلى مجرد محميات أمريكية وعودة بولندا لتكون

(١) أوضح الأمثلة على تواطؤ هذه الأنظمة الهشة تمكين الموساد الصهيوني من اغتيال المناضل الفلسطيني عمر النايف داخل سفارة م.ت.ف في العاصمة البلغارية.

العدو التاريخي/ القاعدة ضد روسيا سواء القيصرية أو الشيوعية أو الرأسمالية الحالية حيث تشكل تهديداً مباشراً للاتحاد الروسي بسلاح أمريكي. أشرنا إلى بعض هذا أعلاه، وسنكمل لاحقاً في هذا الباب.

حسب تقرير الصحفي ماكس بلومنثال بأن أمريكا أقامت في معسكر كأنفاس في بلغراد معهد أينشتاين بإشراف جين شارب لتدريب غوايدو وأمثاله ضد فنزويلا.

وهذه الدول وخاصة بلغاريا أصبحت بائعة السلاح للإرهاب سواء في سوريا أو العراق أو فنزويلا.

يمكن القول بأن هذه المنطقة انتقلت/ تحولت أيضاً إلى أسواق للشركات الغربية سواء بتفكيك بنيتها الصناعية، كما أشرنا آنفاً، أو كأسواق التهام السلع أو أسواق توفير مخزون عمالة رخيصة تُطلب عند اللزوم؟

هذا ناهيك عن تحويل كثير من العمالة النسائية الشابة إلى قوافل فراشات الليل[1].

أما التغطية على كل هذا الخراب فكان باستخدام ملاية رأسمالية خبيثة أُطلق عليها "نهاية الأيديولوجيا". لكن حقيقة الأمر هي سيطرة أيديولوجيا السوق والاسترقاق.

وكان أكثر من روج لهذا الشعار هم الليبراليون بما هم الخدم المهذبين لرأس المال في المركز والأدوات التابعة في المحيط. كانت معزوفتهم الرئيسية هي سقوط "التوتاليتارية" كما يسمونها حيث خلطوا بين الفاشية والأنظمة القومية الاشتراكية وبين ما أسموها هم والتروتسك "الستالينية" ولم تنجُ منهم الماوية أيضاً. ربما ينتظر العالم منهم اليوم استنباط تسمية لائقة بالنظام الإرهابي الأمريكي الذي يكرر سُعار النازية ضد كافة الأمم حتى الصديقة لأمريكا أي أوروبا فما بالك بتوابعها من الأنظمة العربية وخاصة النفطية.

---

(١) انظر عادل سمارة، تأنيث المرأة بين الفهم والإلغاء، منشورات دار الرواد، بيروت، توزيع دار النمير، دمشق، ٢٠١١، الفصل الرابع.

وقائع/ شواهد:

يتم استخدام فترة قيادة ستالين في الاتحاد السوفييتي كمنصة للهجوم على مجمل التجربة وهو هجوم يتصف بالمبالغات والتشويه البرجوازي الغربي في حربه ضد الاشتراكية وضمن هذا التشويه كثيراً ما تم استخدام الكثير من المزاعم، رغم تضمنها بعض الحقائق، عن فترة ستالين خاصة. هذا من جهة ومن جهة ثانية غض الطرف نسبياً عن دور خروتشوف في التأسيس لتصفية الدولة الاشتراكية السوفييتية.

نقرأ مثلا: "... من بين ١٩٦٦ مندوباً إلى المؤتمر السابع عشر للحزب ذلك أن المنتصرون ١١٠٨ كانت قد تمت تصفيتهم. وكذلك ٩٨ من بين ١٣٩ من اللجنة المركزية تم انتخابهم في ذلك المؤتمر. لقد تم تأكيد هذه الأرقام من قبل خروتشوف في حديثه "السري" الذي قدمه يوم ٢٤ شباط ١٩٥٦. تم نشر النص الإنجليزي في حزيران من قبل الإدارة الأمريكية"[١].

وحول المبالغة في تدهور الاقتصاد السوفييتي كتب دانييل سنجر: "... إن التقدم الاجتماعي للاقتصاد السوفييتي كان في تراجع، وكان مشهد الحفز التمهيني متدنياً، كما يحتشد في المصانع والمكاتب شباباً يشعرون بأنهم حصلوا على وظائف أقل من كفاءاتهم وبعيدة عن توقعاتهم"[٢].

لكن بالمقابل، فإن الفترة السابقة على فترة خروتشوف، أي فترة ستالين كانت هي الفترة التي وصل تطور الاتحاد السوفييتي فيها إلى مستوى تطور الغرب الرأسمالي كما كتب تشارلز بتلهايم في كتابه ***التحول العظيم إلى الاشتراكية***.

وفيما يخص دور المدراء كشريحة متنفذة ليست اشتراكية التوجه نقرأ:

"... ومن ناحية أخرى، فإن الحكام الحقيقيين، هم الذين يديرون المصانع، يستغلون العمال، ويعيشون على الفائض، وفي السابق لم يكن بوسعهم امتلاك تلك

(1) See anti-Stalinist Campagin and International Commission (New York: Columbia University Press, 1956). P.23.
(2) Ibid.

الأمـلاك أو نقلـها لأولادهـم. وفي جميـع أوروبـا الشـرقية، مهمـا كانـت الرشـوة، (الكوبونات، الحصص الحرة، لعدد من الأسهم الحرة)، فإن العمال لم يُطلب مـنهم أخـذ شيء لهم"[1].

لعل المفارقة أن هذه الشـريحة تغوَّلـت في فـترة خروتشـوف الـتي، كمـا أشـرنا، أسست لتفكك الاتحاد السوفييتي. ومن المهم الإشارة إلى أن تغوُّل المـدراء هـو ظـاهرة في المركز الرأسمالي الغربي بشـكل لافـت كمـا اتضـح ذلـك إثـر الأزمـة الـتي بـدأت، ولم تتوقف عام ٢٠٠٨. فـالتنظير في نقـد البيروقراطيـة بـدأ غالبـاً ضـد تجـذرها في الغـرب الرأسمالي.

"... هذه النخبة الحاصلة على امتيازات، وطبعاً بمن فيهم الرفاق، وهم المشرفون الأساسيون في الحزب من المكتب السياسي فما دون إلى المستوى المحلي. ويتضـمن أيضـاً الـ نومنكلاتورا، ذلك بالقول، إن النـاس الـذين لـديهم وظـائف كافيـة تمكـنهم مـن أن يطلبوا موافقة الحـزب رسميـاً. إنهـا تُمـدَّد إلى جميـع المـدراء، إلى الشخصـيات العليـا في الدولة وفي الإدارات المحلية، إلى جهـاز القسـر (انقـلاب الضـباط في الجـيش والبـوليس) وإلى من يقوموا بالدعاية"[2] (ص٣٣).

يرد سنجر على إطراء المدراء بعد تفكك هذه الأنظمة:

"... لوصف مدراء المصانع كمدافعين عن ملكية الدولـة هـو مثابـة مبالغـة، لـذا وصْفهم بالمعتدين هو أكثر دقة. إن طموحهم هو إدارة المصانع التي أداروها كرأسمـاليين بدل أن كانوا مدراء ممثلين للحزب، إن لزم بعد فترة انتقاليـة للدولـة الرأسماليـة. ولهـذا السبب تحديداً، فإنهم لم يريدوا كسـر الملكيـة وأن تبـاع رخيصـة للأجانـب. لقـد اعتمـد الصدميون (مؤيدو العـلاج بالصـدمة) علـى الاعتصـار المـالي كـي يحـوزوا علـى تلـك الأملاك بمساعدة المضاربين الأجانب والغشاشين المحليين، (وفي أحسـن الأحـوال، لا بـد من إضافة دور المافيا الروسية التي لاحقاً، تواجدت في الطرفين)"[3].

---

(1) See, Daniel Singer, Whose Millennium? Theits or Ours, Monthly Review Press, New York, 1999: p. 31.
(2) Singer, p. 33.
(3) Ibid, p. 36.

مع سقوط الأنظمة الحاكمة هناك وتغلُّب القوى ذات التوجه الرأسمالي وفي علاقتها بالغرب الرأسمالي فقد تبنت وصفات الاقتصادين البرجوازيين ييجور كيدار وجفري شاخس المسماة "العلاج بالصدمة" وهي التي لم يكن لها لتنجح، بل لم يُقصَد نجاحها أصلاً، طالما أن البنية الاقتصادية نفسها لم تكن رأسمالية جاهزة مما أدى إلى حالة من الإهلاك الاقتصادي.

"... كان القائد المبكر للفترة الأخيرة، المسماة "العلاج بالصدمة"، ييجور كيدار، هو إن كان بوسع المرء وصفه، الجيل الثالث من الارستقراط الشيوعي. فالصدميون (مؤيدو العلاج بالصدمة) بمعنى ما، يمثلون النقود المضاربات، بينما المضادين لهم يدورون حول المدراء الذين تخندقوا في مصانعهم. كان الصراع بين الذين يريدون الأخذ، وأولئك الذين يحوزون ويمسكون بما يحوزون. (ص٣٥)

وهكذا، فإن مقتضيات الالتزام بالعلاج بالصدمة قادت إلى: "... في دراسة **OECD** أو إي سي دي، لمزاد الكوبونات أشارت بأن: "القيمة السوقية للمستخدَم في الشركات الصناعية الأمريكية هي ١٠٠,٠٠٠ دولاراً. بينما في الشركات الروسية المناظرة لها وصلت القيمة السوقية للمستخدم الواحد إلى ١٠٠ دولار. فالفارق هو ١٠٠ ضعف[١].

وعلى هذا ترتبت بالضرورة أعمال السرقة: "... أحد الأمثلة الصادمة كان أن ١٧٠ مليون دولار قد دفعت من قبل اونكيسميانك، المملوك من قبل فلاديمير بوتانين، الأكثر ارتباطاً بـ شنباوس، من أجل ٣٨ بالمئة كحصة في نورسلسك نيكل، التي تنتج ٢٠ بالمئة من النيكل أو الكوبالت و٤٢ بالمئة من البلاتونيوم، بربح قدره حوالي ٧٠٠ مليون دولار في السنة السابقة على التحويل[٢].

بينما كانت النخبة الحزبية شبه مخفي ثرائها إلا أن النخبة الغنية تتفاخر علانية بالليموزين بينما المتقاعدين شبه جوعى، وإذا كانت المافيا محدودة وسرية ها هي أصبحت مُركَّبة.

---

(1) OECD, Mass Privatization: An Initial Assessment (Paris: OECD, 1995), 171.

(2) See Business Central Europe, February 1996.

لعل المفارقة الكبرى بأن هذا التورط والهرولة من مجتمعات أوروبا الشرقية باتجاه الرأسمالية على النمط الغربي القائم لم تعرف أو لم تحاول أن تعرف مدى الفساد الملازم للرأسمالية في الغرب نفسه، ناهيك عن دمويته. لقد غاب عنها نقد ماركس للرأسمال حيث كتب ماركس: "لقد جاء رأس المال إلى العالم يقطر دماً وقذارة من مختلف مساماته، من رأسه إلى أخمص قدميه[1]". (تابع أدناه)

ولا تنحصر بل لا تبدأ دموية رأس المال من دوره الاستعماري، بل تبدأ من داخل مجتمع الدولة القومية الواحدة عبر الاستغلال الطبقي البرجوازي للطبقة العاملة. هذا الاستغلال وما يولده من فساد، وسن قوانين في خدمة القطاع الخاص... الخ هي نفسها مثابة حرب طبقية على أو ضد الطبقات الشعبية. ولعل أفضل صورة عن ذلك ما كتبه إنجلز مبكراً عن أحوال العمال في مانشستر ببريطانيا.

تقف الولايات المتحدة على قمة دموية رأس المال بدوريه:

- نهب العالم، دورها في السيطرة العسكرية والهيمنة الاقتصادية وتطبيق سياسات الحمائية دائماً، ورفعها إلى أقصى درجات التحدي بالحرب التجارية التي تديرها إدارة ترامب حالياً أي عام ٢٠١٨.
- ودموية الاستغلال الداخلي والفساد عبر تهرب وتسهيل تهرب الشركات الكبرى من الضريبة حيث تصل نسبة تهربها إلى ٢٥ بالمئة مما يجب أن تدفعه وإلقاء عبء الدفع الضريبي على المواطنين، أي من الحيتان إلى الصغار كما كتب الاقتصادي الأمريكي بول كروجمان، (٤ أكتوبر ٢٠١٨) مقالاً عن تربية ومسيرة الفساد والتهرب الضريبي في حياة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب وربط ذلك بالتهرب الضريبي للأكثر ثراء في المجتمع الأمريكي بينما يقع العبء الضريبي على الصغار[2].

---

(1) Karl Marx, Capital, vol. 1 (London: Lawernce and Wishart, 1970), p.760.

(2) By Paul Krugman Opinion Columnist, Oct. 4, 2018
A version of this article appears in print on Oct. 5, 2018, on Page A29 of the New York edition with the headline: Trump and The Aristocracy Of Fraud

بكلام موجز، هذا هو النموذج البرَّاق الذي أُخذت بـه جماهير أوروبـا الشـرقية فانتقلـت إلى جحـيم الاسـتغلال والتبعيـة والتفكيـك المجتمعـي وانتعـاش قـوى الـدين السياسي.

لعبت قوى الدين السياسي دورها في تضليل الجماهير ضعيفة الـوعي السياسـي الطبقي إذ جرَّها المثقفون العضويون لرأس المال في بولندا وخاصة، مـن رجـال الكنيسـة وعلى رأسهم البابا حيث غدت الكنيسة المأوى والحامي لمنظمة/ نقابة تضامن:

"... أدار نظام ريجان سـباق التسـلح والـذي تم توجيهـه بهـدف إفـلاس الاتحـاد السوفييتي الذي انخرط فيه برغبته. وفي أوروبا الشرقية وتحديـداً بولنـدا، لعـب الفاتيكـان دوراً حاسمـاً دعاويـاً ومادياً حيـث صـب ملايـين الـدولارات الأمريكيـة عـبر وكالـة المخابرات الأمريكية **CIA**، لصالح منظمة تضامن. لقد صب المضـارب البليـونير جـورج شـورش ملايـين الـدولارات في أوروبـا الشـرقية لتجنيـد مثقفـي التشـيك، والهنغـاريين والبولنـديين الـذين أصـبحوا لاحقـاً مؤيـدين غيـورين لصـالح سياسـات الرأسماليـة والناتو"[1]. (انظر المجر لاحقاً).

كما لعب الدور نفسه الأجانـب الـذين يقـدمون أمـوالاً. لعـل هـذه هـي حـال الانخطاط الطبقي العمالي، انخطاط حقيقي. وبدعم كل هؤلاء واستسلامها لهم، انتقلـت تضامن من محاولة المشاركة إلى التفرد.

لاحقاً تغيرت قيادة تضامن من ١٩٨٠ عما بعدها عام ١٩٩٠. الكنيسة لم يكـن لها الدور الحاسم في تحول تضامن حين تسـلمت الحكـم، بـل المنظمـات العالميـة الممثلـة لمصالح الأعمال الكبرى، ذلك لأن تضامن تلقت أموالاً مـن الخـارج مـن الغـرب منـذ بدايتها وحتى من اتحادات العمال الغربيين، والبعض من أنظمة رسمية مثل أمريكا، فقـد أنفقت **CIA** ٥٠ مليون دولار"[2].

---

(1) See James Petras & Henry Veltmeyer, Globalization Unmasked: Imperialism in the 21st Century, Zed Boos, 2001. P. 47.

(٢) انظر حول العلاقة بين الفاتيكان وإدارة ريغان وخاصة أجهزتها السرية حـول بولنـدا: **Carl Bernstein & Marco Politi , *His Holiness* (New York: Doubleday).**

"... كان من الصعب على تضامن الادعاء بأنها كانت ضد العلاج بالصدمة منذ البداية، وحيث أو منذ خطة بلسيروفتز لم يكن قد تم تصميمها ضد معارضيها. كان أفضل ما يمكن النقاش به أن هذا البرنامج كان قد تم تسريبه إلى الحركة من قبل عناصر غريبة. إنهم ليسوا بابوات جيدين ولا مسيحيين جيدين، هم تماس. ولكي نضعها بوضوح، يهوداً. وهناك عوامل لا قدرة للقيادة السوفييتيّة على التأثير فيها، مثل المناخ ومواسم القمح السيّئة في السبعينيّات التي دفعت بالقيادة السوفييتيّة إلى التنازل من أجل الحصول على قمح مستورد (كان الاتحاد السوفييتي يستمرّ في تصدير القمح إلى دول شيوعيّة واشتراكيّة من باب التضامن الأممي فيما كان هو يحتاج لها). والشعب في تلك الدول الاشتراكيّة كان عرضة لدعاية غربيّة مكثّفة أثّرت فيه كثيراً، فيما لم تكن الدعاية السوفييتيّة على نفس المستوى من المهارة، من التضليل والكذب. كان رونالد ريغان يقول إن علينا أن نصوّر لمواطني الدول الاشتراكيّة الحياة في أميركا حيث يملك كل مواطن منزلاً مع حديقة وبركة سباحة. (أنا أستاذ في جامعة أميركيّة ولا أملك ثمن منزل مع بركة سباحة، كما أن ملايين الأمريكيّين لا يملكون ثمن منزل وهناك ملايين لا يمتلكون تأميناً صحيّاً... نال فاونسا جائزة نوبل (مصادفة؟) وسقط النظام في ١٩٨٩. لكن الشعب ضاق ذرعاً بفاونسا بعد سنوات حكمه. آخر مرّة ترشّح في ٢٠٠٠ لم ينلْ إلا ١.٠١٪ من الأصوات. لكن بولندا بقيت على سكّة الرجعيّة التي أرادتها أمريكا مع أن عدداً وافراً من سكان دول أوروبا الشرقيّة بات ينظر بحنين إلى سنوات الشيوعيّة. إن الكتاب الصادر حديثاً، «***العمل السرّي: ريغان و«سي آي إي» ونضال الحرب الباردة في بولندا***» لمؤلّفه (الرجعي) سيث جونز، يميط اللثام عن الكثير من ملابسات وخفايا الحرب. ولكن، بعد الهزيمة، لا يمكن رتقها في بضع سنوات.

"... كان المثقفون أكثر بروزاً في المجموعة – **Meritocracy** التي هي ذات جدارة ذاتية. ففي الفترة الأولى، أي الجلاسنوست، لعب المثقفون دوراً تقدمياً، حيث دفعوا إلى الأمام حدود الحريات. وحينما وصلت الأمور إلى البريسترويكا الاقتصادية، حاربت هذه المجموعة من أجل مصالحها. وبالمصطلحات المادية، فقد عملت بشكل جيد في ظل

النظام السابق، لكنها تأملت بأن تعمل بشكل أفضل كي تحوز على امتيازات أكبر وحصة من السلطة الجديدة"[1].

ألبانيا:

تشكل ألبانيا نموذجاً على تفكيك وإفقار المجتمع إثر سقوط أنظمة الاشتراكية المحققة واستشراء الفساد، فقد خسر المواطنون بليون دولار في ثلاثة أيام عام ١٩٩٧ حين انفجرت الفقاعة لما تسمى البرامج الهرمية، وفقد المواطنون مدخراتهم. هذا إلى جانب السرقات الرسمية لصالح وبالنيابة عن صندوق النقد الدولي واتباع سياسة التقشف، وهو ما حصل في معظم الكتلة الشرقية وخاصة في رومانيا، انهيار صندوق كاريتاس حيث فقد ٤ ملايين روماني أكثر من مليار دولار من مدخراتهم.

تعمل هذه البرامج الهرمية، حيث يقرر فريق من الطبقة الحاكمة الجديدة في الشرق "الأغنياء الجدد" ونمط الشيوعيين القدامى النمنكلاتورا الذين تحولوا إلى رأسماليين إقامة صناديق تعد بأن تقدم عائداً بنسبة ٣٠-١٠٠ بالمئة شهرياً على النقود المستثمرة لفترة من الوقت. لقد دفع المدراء لفترة معينة. وتذهب هذه الأموال من الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية إلى الغرب.

كتبت فايننشال تايمز ٢٩-١-١٩٩٧ إثر انهيار هذه الصناديق:

"... كانت تعتبر ألبانيا أحد نماذج النجاح في أوروبا الشرقية، وبأنها التلميذ النموذج لصندوق النقد الدولي، وذلك من خلال تطبيق الخصخصة وتسجيل أعلى معدل نمو وأقل معدل تضخم في المنطقة".

عندما هاج الشعب وسقط النظام الاشتراكي تم نهب وسلب كل شيء صناعي، وجردت البلاد من الأموال المنقولة في المشاريع الصناعية أو مزارع الدولة. وحتى هذا اليوم فإن أحشاء وهياكل مصانع ومزارع الدولة مبعثرة في الأراضي الألبانية من أقصاها إلى أقصاها"[2].

---

(1) Singer, p. 34.

(٢) مجلة كنعان، العدد ٨٥، نيسان ١٩٩٧، ص٦٧.

يبلغ عدد سكانها ٣,٣ مليون يعيشون على تحويلات ثلاثة أرباع مليون عامل يعملون في المهجر. وهم قرابة نصف قوة العمل ٤٠٠ ألف منهم تعمل في اليونان وألمانيا وإيطاليا وأمريكا. معظم أموال المشاريع الهرمية للأسر التي يعمل أبناؤها في الخارج أي تمت استعادة الأموال للغرب؟

للمفارقة، فإن الرئيس صالح باريشة هو المشرف على الصناديق في ألبانيا! ويعزو باريشة الفشل لعدم خبرة الشعب في اقتصاد السوق.

كوسوفو:

"... يشهد من يتجول في مقاطعة كوسوفو الصربية التي يحتلها الناتو هلاكاً تاماً، دولة فاشلة بكل المعايير. إنها قاعدة لتهريب المخدرات إلى المافيا الألبانية، كما أنها تنزف آلاف الناس سنوياً الذين يهربون إلى وسط وغرب أوروبا للنجاة من الدمار الاجتماعي. تقوم داعش والوهابية عموماً بانتهاكات هناك. وهناك خوف حقيقي بأن يتحول كيان كوسوفو إلى مركز أوروبي للمجاهدين، وخاصة بسبب الدعم الكامل من المشرفين الأمريكيين في معسكر بوندستيل (وهو نفسه الذي يشرف على نفس قوات كامونوف الإرهابية). كما لا يمكن لأحد التنبؤ كيف ستؤول جارتها الجبل الأسود[1].

بدورها، خصخصت قوات الاحتلال (باسم الأمم المتحدة) كافة شركات القطاع العام، في كوسوفو، الخاضع لإدارة الإحتلال مباشرة، وأهم هذه الشركات، مُجمّع "فيرونيكلي" للتعدين، وينتج نحو ١٢ ألف طن من النيكل، وهو من أغْلى المعادن، في الأسواق العالمية، كما تمت خصخصة الأراضي التي كانت تمتلكها دولة يوغسلافيا الإتحادية.

وردت العديد من البيانات والأرقام في الصحيفة الأمريكية "نيويورك تايمز"، والبريطانية "غارديان" والفرنسية "لوموند"، طيلة فترة الحرب، إضافة إلى بعض المقالات

(1) Russia and China to Liberate Balkans from Unipolar Influence, By Andrew Korybko, Global Research, February 16, 2016, Oriental Review 15 February 2016.

والدراسات التي صدرت سنة ٢٠٠٩، بعد عشر سنوات من العدوان بالإضافة إلى شريط وثائقي من إخراج "هارولد بِنْتر"، بثّته شبكة "بي بي سي" سنة ١٩٩٩.

المجر:

يركز الكاتبان ثوماس كراوسز وروبرت ناراي في قراءتهما للحالة المجرية على أطروحة لوكاتش بوجوب توازي ديمقراطية الإنتاج والاستهلاك في بناء الاشتراكية، لكنهما يستدركان ويكملان القول بـ:

"... إن تلامذة لوكاتش، مثل **János Kis** أو **György Bence**، الذين كانوا ملتزمين في البداية بمشروعه إلا أنهم في الثمانينيات من القرن الماضي، وتحت لواء الليبرالية أصبحوا المدافعين الرئيسيين عن استعادة الرأسمالية. لقد انتهوا للاعتقاد بأن الديمقراطية والرأسمالية مترادفتين"[1].

يبدو أن هؤلاء التلامذة قد أدركوا لاحقاً بأنهم لم يدركوا سابقاً، بأن الرأسمالية لا تفرز سوى ديمقراطيتها التي لا تعطي أي خيار لمن يتبنى الرأسمالية غير خيار ديمقراطية على مقاس رأس المال.

وفي وصفهما للنظام في المجر:

"... يلتزم النظام بدفع الديون المستحقة كما هو مقرر، ويعطي إعفاءات ضريبية واسعة النطاق للشركات متعددة الجنسيات. لا تعرف أغلبية السكان عن هذا لأن معظم وسائل الإعلام يسيطر عليها **Orbán**. ما يجب أن تفهمه الناس، بأن نظام أوربان هو تجسيد لليمين الشعبوي الجديد المتطرف، وبأنه يتمكن من تنفيذ سياسات نيوليبرالية تقييدية تحت لواء حملات أيديولوجية ضد العولمة تشدد على الدفاع عن القيم المسيحية الأوروبية المزعومة... لقد غدا واضحاً اليوم بأن التغيرات في أوروبا الشرقية والنظام السوفييتي كان لا يمكن فصله عن إعادة الهيكلة النيوليبرالية للنظام الرأسمالي العالمي وعن أشكال التحديات التي تفرضها القوة الرأسمالية للشركات متعددة الجنسية.

---

(1) Tamás Krausz and Róbert Nárai, Searching for Alternatives in Eastern Europe Monthly Review.org/2019/04/01/searching-for-alternatives-in-eastern-europe 1 April 2019.

كانت الأهداف الرئيسية للدولة في بداية الفترة الاشتراكية هي القضاء على البرجوازية المحلية وإلغاء الملكية الخاصة. كان غير قانوني تداول ممتلكات الدولة. وكانت المتاجرة بأملاك الدولة ممنوعة. لكن النظام الجديد يعمل في الاتجاه المعاكس. فبينما كانت المعارضة الديمقراطية في عام ١٩٨٧ لا تزال تتحدث عن "الملكية المختلطة" ولكن بحلول عام ١٩٩٠، دعمت جميع القوى السياسية الرئيسية سياسات الخصخصة على نطاق واسع.

إن الحقبة الأولى، التي كان يهيمن عليها التحالف الاشتراكي الليبرالي هي التي أسست للجيل الجديد من الرأسماليين المحليين. في البداية، قدمت فيدسز **Fidesz**، نفسها كناقد لأمراض الخصخصة، ولكن سرعان ما اتضح بأنهم يريدون فقط إنشاء برجوازية خاصة بهم.

لقد واصلوا خصخصة الخدمات المجتمعية والأراضي وغيرها من أنواع الممتلكات لصالح برجوازية جديدة، خلقتها الحكومة نفسها... وكنتيجة لذلك، فإنهم أعادوا تركيب نظام التوزيع وعمقوا عدم المساواة الاجتماعية – الثقافية في المجتمع. ويمكن قول الشيء نفسه عن المنطقة المكونة من أوكرانيا، ولاتفيا، وبلغاريا، وبيلاروسيا ورومانيا"[1].

ربما يشكل المقتطف التالي أفظع وأوضح صورة لوحشية النظام الرأسمالي العالمي وبالطبع مراتبيته. ألمانيا تنتقي السوريين المؤهلين، وتترك غير المؤهلين كي تلتهمهم المجر المتخلفة مقارنة بألمانيا. المؤهلون المجريون وغير المجريين من شرق أوروبا يهربون إلى ألمانيا وغرب أوروبا عموماً، وبريطانيا تطرد العمالة المتدفقة من أوروبا الشرقية إلى درجة أن تدفق هؤلاء العمال هو من دوافع خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. في النهاية، الغرب والوهابية وقوى الدين السياسي تدمر الوطن العربي وتأخذ قوة العمل الماهرة والعادية إلى العبودية في الغرب. فيصبح البلد المتطور سيداً على عمالنا المهرة والبلد شبه المحيطي سيداً على عمالنا غير المهرة، وتبقى أنظمة الحكم

(1) Tamás Krausz and Róbert Nárai, Searching for Alternatives in Eastern Europe Monthly Review.org/2019/04/01/searching-for-alternatives-in-eastern-europe 1 April 2019.

العربية تابعة للغرب رفيعه ووضيعه، ويبقى كثير من مثقفينا متخارجين متغربنين! وفي كل هذه التشابكات تبقى قوة العمل هي التي تحمل كل هذا الاستغلال والوحشية والاحتقار، معظمه على عمالنا وأقله على العمالة الغربية.

"... من المشكوك فيه أن أوربان سيواصل منع المهاجرين من دخول المجر آخذاً في الاعتبار بأن ١٠ بالمئة من شباب الطبقة العاملة قد غادروا البلاد في فترة قصيرة جداً. إن رأس المال بحاجة إلى قوة عمل رخيصة وبالتالي إلى لاجئين. وهذا بدوره سوف يقلص سعر قوة العمل. يعتقد كثيرون أن الليبراليين والاشتراكيين هم الذين يجلبون المهاجرين، ولكن في الحقيقة، فإن الرأسمالية هي التي تقتلع البشر داخل وخارج أوروبا، وبأن الحروب الدموية التي تقوم بها الولايات المتحدة والناتو هي التي تنتج اللاجئين"[1].

روسيا:

إضافة لما أشرنا فيه أعلاه عن روسيا الاتحادية، إلا أنها تشكل الحالة النموذجية والكبرى لتجربة أوروبا الشرقية.

يمكن اعتبار رحيل ستالين وتنصيب خروتشوف مثابة بداية انحطاط الاتحاد السوفييتي وخاصة في المستوى الاقتصادي. ويمكن القول بأن السلطة هناك قد تورطت في رفاه الريع إثر الانفجار الهائل لأسعار النفط بعد عام ١٩٧٣حيث ساد تيار نمط اللااستثمار في الاتحاد السوفييتي والذي بدأ منذ السبعينات، حيث اتسع التوجه الريعي وامتد إلى أن وصل الحال عام ١٩٩٠ إلى تحول البنية الصناعية الأساسية السوفييتية إلى مجرد كومة من الخردة حيث ضربت هذه السياسة أيضاً قطاعي النقل والطاقة وضعفت صناعة الأغذية فازداد الاستيراد وخاصة الحبوب والحبوب اللازمة للغذاء وهذه تتطلب مزيداً من تصدير الطاقة لدفع ثمنها، واستيرادها ودفع ثمنها، ولكن أين؟ في بلد يُفترض أنه أكبر منتج افتراضي للقمح في العالم. وبلد اشتراكي من أولويات سياساته إنتاج الحاجات الأساسية للمجتمع. بل هو بلد كما كتب تشارلز بتلهايم في كتابه "***التحول إلى الاشتراكية***" بأن تلك الفترة تحديداً وحدها الذي اقترب فيها تطور الاتحاد السوفييتي من الغرب المتقدم.

(1) Tamás Krausz and Róbert Nárai, Searching for Alternatives in Eastern Europe Monthly Review.org/2019/04/01/searching-for-alternatives-in-eastern-europe 1 April 2019.

عشية تفكك الاتحاد السوفييتي، حاول رئيس الوزراء حينها فلنتين بافلوف تطبيق سياسة البرنامج السريع لفرض الاستثمارات في الصناعة والبنية الأساسية والزراعة وتطبيق تكنولوجيا جديدة لتحقيق الانتعاش. لكن تغلب عليه فريق آخر بالتسليم لصندوق النقد الدولي الذي انتهى بالدولة العظمى إلى كارثة[١].

أحد أشد أوجه الشبه بين مآل حال فنزويلا اليوم ومآل حال الاتحاد السوفييتي كما ورد أعلاه، كانت سياسة النفط مقابل القمح. حيث اعتقد الكثيرون من القادة السوفييت بأن سعر النفط سيبقى عالياً إلى الأبد. ويبدو أنهم لم يكونوا قد قرأوا تقييم جمال عبد الناصر للمملكة السعودية بأنها العدو الأخطر ضد الأمة العربية. وهذا يمكن سحبه على كونها الأخطر على مختلف النظم في العالم الثالث كما نرى حالياً.

فما أن حل عام ١٩٨٦ وانهارت أسعار النفط تيقنت موسكو أن من يقرر أسعار السلع العالمية ومنها النفط هي واشنطن ولندن وآبار النفط السعودية. وهكذا انهارت متاجرة وموازين المدفوعات السوفييتية... كان الانهيار يسري سريعاً، فقد كان محصول القمح لعام ١٩٩١ هو ١٥٤.٧ مليون طن بينما كان عام ١٩٩٠ هو ٢١١ مليون طن.

وهنا من المفيد التذكير بتجربة الأزمة الاقتصادية في جنوب شرق آسيا وتفاخر المضاربين الكبار بما حققوه: "... قبيل أسبوع واحد على انفجار الأزمة في جنوب شرق آسيا ١٩٩٧، زار جورج شورش كوالالامبور وتفاخر بأن صندوقه ربح ٢.٥ مليون دولار من أزمة تايلاند"[٢].

هذه الأزمة التي وقف وراءها المضاربون مثل جورج شورش وأمثاله الذين حولوا عملات بلدان جنوب شرق آسيا إلى حطام، ولكن هذه الصناديق نفسها تعرضت لانهيار بسبب الفوضى الاقتصادية التي ساعدت على حصولها[٣].

---

(١) انظر، فصلية "كنعان" العدد ٩٣، تشرين ثان ١٩٩٨، ص ص١١٣-١١٥.

(2) Janashakti vol -7 no.2 January 1999, p. 31.

(٣) فصلية "كنعان" العدد ٩٤ كانون ثان ١٩٩٩ ص ١١٨-١٩

كتبت التايمز اللندنية:

"... لعل أسوأ الضربات التي أصابت هؤلاء حتى الآن، أن شورش نفسه الذي تبارز مع رئيس وزراء ماليزيا محاضر محمد الذي اتهم شورش بتدمير عملات وقيم الأسهم فيما تسمى النمور الآسيوية... وأن شورش نفسه تلقى ضربة عندما عجزت روسيا عن الإيفاء بديونها في أعقاب انهيار وعجز سوق السندات الروسية في ١٧ آب ١٩٩٨"[١].

وحده رئيس وزراء ماليزيا حينها محاضر محمد، هو نفسه الذي عاد مؤخراً للمنصب نفسه، كان قد رفض إملاءات أوغاد صندوق النقد الدولي عام ١٩٩٧ ونجا ببلده من الأزمة التي حاقت بدول جنوب شرق آسيا. وبالمناسبة، فهو يصر اليوم على اعتماد الذهب وحتى صك عملة ذهبية إسلامية خارجاً على سيطرة الدولار وحتى بريتون وودز وصولاً من الناحية السياسية إلى رفض دخول وفد رياضي صهيوني إلى بلاده وسحب قوات بلاده التي تساهم في العدوان على اليمن.

يشكل كتاب "الاشتراكية المغدورة: ما وراء انهيار الاتحاد السوفييتي"[٢] أفضل شاهد على آلية خراب الكتلة الاشتراكية، والتالي مراجعة لهذا الكتاب وجدنا من المفيد تثبيتها في متن هذا العمل.

لعل هذا العمل من أكمل الدراسات في تفكك الاتحاد السوفييتي كتجربة اشتراكية رائدة في التاريخ الحديث. ودراسة كهذه ذات قيمة عالية ليس فقط لأهمية التجربة السوفييتية في الاشتراكية بل كذلك لأن الاشتراكية تغدو راهنية يوماً بعد آخر

---

(١) التايمز ٢٨ أكتوبر ١٩٩٨.

(٢) كنعان النشرة الإلكترونية **Kana'aan – The e-Bulletin** السنة السابعة عشر، العدد ٤٤٦٤، ١٦ أيّار (مايو) ٢٠١٧. قراءة في كتاب "الاشتراكية المغدورة: ما وراء انهيار الاتحاد السوفييتي"

عادل سمارة: **Socialism Betrayed :Behind the Collapse of the Soviet Union 1917-1991By Roger Keeran & Thomas Kenny, Universe USA 2004 and 2010, 580 pages.**

على ضوء توحش الرأسمالية الاحتكارية وانتقالها المتواصل، وإن لم يكن النهائي من الإنتاج إلى المضاربة وتحصيل القيمة الزائدة ريعياً على الصُعُد المحلية وعلى الصعيد العالمي، وتآكل حقبة العولمة الرأسمالية واستفحال الأزمة الجارية للنظام الرأسمالي العالمي بأكمله، وتمكُّن الثورة المضادة من معظم تجربة "اشتراكية القرن الواحد والعشرين" في أمريكا الجنوبية، وبالمقابل صمود بلدان شيوعية صغيرة ككوبا وكوريا الشمالية رغم كل ما حصل وبقاء شيوعيين على قناعاتهم رغم تهاوي أنظمة وأحزاب ومثقفين شيوعيين سابقاً، وأخيراً وليس آخراً مخاطر لجوء الرأسمالية إلى توظيف أوسع ومباشر لأنظمة وقوى الدين السياسي بعد أن كانت ترعاها عن بعد واعتماد هذه القوى كجيش أمريكي ثالث بدءاً من الوطن العربي وامتداداً إلى الصعيد العالمي.

ليست هذه العجالة عرضاً للكتاب فموضوعه وعنوانه يغنيان عن العرض، بل هي ملاحظات تتناول بعض ما ورد في ثناياه وبعض ما كان يجب أن يرِد ويوضَح. فلا يغني عن هذا الكتاب شيئاً سوى قراءته.

وردت في الكتاب بعض المقارنات مع دول/ تجارب اشتراكية أخرى وفي عدة مواضع منه، ولكن تلك المقارنات كانت محدودة، علماً بأن التوسع فيها كان سيغني الكتاب للإضاءة على التجربة نفسها سواء لإنصافها أو نقدها، وكل ذلك يصب في تقييم التجارب الاشتراكية عموماً.

وإذا صح أن يُنسب فشل تجربة بحجم ومدى التجربة السوفييتية لأشخاص سواء بوخارين وخروتشوف وجورباتشوف كل في مرحلة من مراحل تطور وصراع الاتحاد السوفييتي، فإن دور جورباتشوف هو الأخطر. وإذا ما تقيدنا بعنوان الكتاب "الاشتراكية المغدورة/ خيانة الاشتراكية"، فإن جورباتشوف هو الأجدر بنسب الخيانة إليه. لكن الكتاب بقي متردداً، بل ميالاً إلى عدم القطع بأن دور جورباتشوف كان خائناً أو تحول مع مجريات تورطه إلى الخيانة ومن ثم الإصرار عليها حتى النهاية، مما أبقى القطع بموقفه معلقاً لما بعد نهاية الكتاب. والطريف أن عنوان الكتاب ومجرياته تؤشر إلى وجود خيانة لكن لم تتم الإشارة إلى أي شخص أو فئة أو طرف بأنه كان خائناً.

لا حاجة للتوضيح بأن الكاتبين متعاطفان مع الشيوعية ومع التجربة السوفييتية خاصة. وهذا ما يغري بالتوقع بأنهما لم يقطعا بشأن جورباتشوف لا نفياً ولا إيجاباً رغم أن شبح الخيانة يغطي الكتاب من العنوان إلى الخاتمة.

صحيح أن إصدار تهمة الخيانة ليست عملاً علمياً وحتى أكاديمياً رصيناً، ولكن الوقائع بمجموعها وكما عرضها الكتاب تنضح بذلك، مما يجعل وجوب التحديد عملاً ثورياً.

ربما سبب عدم القطع والاكتفاء بالإيحاء عائد إلى تحفظ الكاتبين عن تأكيد أن عميلاً تمكن من الاختراق والوصول إلى قيادة دولة اشتراكية عظمى مما يقلل من قيمة التجربة. وربما السبب تعاطف مع معارضي جورباتشوف الشيوعيين من باب أنهم لم يتوقعوا أهدافه مسبقاً أو باكراً ، الذين كما ذكر الكاتبان، لم يفهموا باكراً ما أراده جورباتشوف؟ وإن كان ذلك كذلك، فهو لا شك كشف عن حقيقة مُرة وهي التراخي رغم أن الدولة السوفييتية كانت طوال عقودها السبعة في حلبة صراعات ومقاومة للعدو الرأسمالي لم تتوقف. وهذا يذكرنا بحرص كاسترو الأمني خلال حرب الغوار حيث كان الشك قائماً بحق كل من يخرج من مكان الغواريين سواء في مهمة أم لا، أي أن الحذر والشك الإيجابي لا غنى عنهما أثناء خوض معارك تاريخية مديدة.

وربما كان سبب عدم اعتبار جورباتشوف خائناً، هو حرص الكاتبان وطبعاً من قابلاهما من الشيوعيين السوفييت على إخفاء خلل في بنية النظام السياسي والتي تعني، إن صح تقديرنا، بأن السلطة البيروقراطية كانت مستفحلة إلى الحد الذي جعل الأمين العام للحزب كأعلى مسؤول تنفيذي في الدولة فوق النقد والشك أو أن سطوته قادت معارضيه إلى اللجوء لعدم الاكتراث بل ربما إلى حماية كلٍّ لرأسه، وقد ينسحب هذا على مختلف المراتب! وضمن غض الطرف هذا بالطبع، درءاً لتهمة الشمولية، فطالما جرى نقد التجربة الاشتراكية بعدم الديمقراطية على الطريقة الشكلانية الغربية الرأسمالية. وهذا ما رد عليه الكاتبان في أكثر من موضع بأن الديمقراطية الاقتصادية في التجربة السوفييتية كانت متقدمة على الديمقراطية الشكلانية الغربية.

وهذا يقود إلى طرح التساؤل: هل كان جورباتشوف مخادعاً ومناوراً بمهارة أم أن المشكلة في وهن القيادات الشيوعية؟

في تعداد عوامل الفشل، وهي لا شك متعددة وليست مجرد خيانة فرد، ينسب الكاتبان فشل التجربة السوفييتية إلى الخلفية الفلاحية للبلد. وهذا يعني أن الفلاحين ليسوا مناسبين للاشتراكية. وإذا صح تقديرنا أو تفسيرنا للمقصود بالخلفية الفلاحية للبلد، فهو يعني ما يلي:

- الاستمرار في مقولة ماركس بعدم ثورية و/ أو اشتراكية الفلاحين، وهي مسألة أثبتت تجارب أخرى عدم دقتها، أو انطباقها فقط على المرحلة التي عاشها ماركس نفسه.
- تأثُّر الكاتبان باللوثة التروتسكية ضد الفلاحين.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن هذا التفسير من الكاتبين يبين أن خللاً ما في التجربة الاشتراكية السوفييتية هو الإبقاء على "التراث" الفلاحي رغم سبعة عقود على التجربة الاشتراكية، وربما عدم تقليص الفجوة بين الريف والمدينة؟

ورغم أن لنا نقاشاً على دقة زعم الكاتبين بأن الصين الحالية اشتراكية، إلا أن خلفيتها الفلاحية لم تحل دون بقاء نسبي للاشتراكية هناك. هذا إذا لم نُشر إلى أن كوبا أيضاً هي من خلفية فلاحية، أي لم تكن لا الصين ولا كوبا بلداناً صناعية قبل الثورة الاشتراكية. ويصح القول على كوريا الشمالية التي هي أصلاً فقيرة زراعياً مما دفعها للتركيز على التطور الصناعي.

من اللافت أن الكاتبين لم يركزا، لا نقداً ولا إيجاباً، على أهمية ودور التعبئة الفكرية بالاشتراكية في المجتمع ككل والحزب خاصة، علماً بأن هذه المسألة أساسية في البلدان الاشتراكية في مواجهة الفكر والإعلام والغزو الرأسمالي من جهة، وكذلك الخلفية الفلاحية التي أشار إليها الكاتبين. أو باختصار الصراع الفكري بين النظريتين الكبريين في العالم المعاصر.

من جانبنا، ربما كان هذا القصور هو من أهم عوامل خلخلة الانتماء الحزبي الشيوعي وبالتالي ضعف مقاومة بل مواجهة الانحراف وليس فقط التحريفية.

تفيد التجربة الكوبية بأن التربية الاشتراكية هي أساسية في صمود كوبا في بطن الوحش الأمريكي. هذا ناهيك عن أن من صمد كشيوعي بعد تفكك الاتحاد السوفييتي ومحيطه هم الأكثر وعياً وعمقاً في النظرية الماركسية – اللينينية، وهذا بحد ذاته نفي لتعميم الكاتبين المضاد لثورية أو شيوعية المثقفين.

وهذا ينقلنا إلى تركيز الكاتبين كثيراً على أن المثقفين كانوا ضد الاشتراكية أو ضد الدولة السوفييتية من مدخل الديمقراطية الاجتماعية واقتصاد السوق.

إشكالية هذه النقطة كبيرة جداً، وكأنها تقول بأن مطلق مثقفين هم ضد الاشتراكية! فمثلاً، لم نجد ملاحظات تقول بأن قطاعاً كبيراً من المثقفين هم ضد الاشتراكية ومبهورون بالاستهلاكية الغربية الرأسمالية، أو أن قطاعاً من المثقفين هم شيوعيون وقد تصدوا للتحريفيين لكنهم لم يكونوا بمستوى المهمة.

هناك إشارات في اكثر من موضع إلى ليجاتشييف كقيادي ضد التحريفية، ولكن ليس كمثقف أو قيادي لمثقفين. صحيح أن في المثقفين إشكالية الروح الحلقية كما أسماها لينين، وقابلية الانحراف والنخبوية، ولكن هذا لا يمكن تعميمه على جميع المثقفين، وإلا ضاع تراث المثقف الثوري والنقدي والمثقف المشتبك بالطبع.

بل يمكن للثورة المضادة أن تزعم بأنها وحدها التي لها مثقفيها وبأن هذه الفئة النخبة لا تليق سوى بالثورة المضادة وبأن الاشتراكية ليست جذابة سوى للبسطاء. هذا مع أن الماركسية – اللينينية تركز على الثقافة والثورة الثقافية من لينين وحتى ماوتسي تونغ. بكلام آخر، وكأن المثقفين والفلاحين هم بالمطلق ضد الاشتراكية!

بل إن هذه الإشكالية في الكتاب تبين وكأن الشيوعيين عموماً لا عمقاً ثقافياً لهم. وبالطبع، فإن هذا خطير على مستقبل الاشتراكية والإبداع والابتكار النظري.

تناول الكاتبان الوضع الداخلي في الاتحاد السوفييتي بالتحليل الموسع، وهذه من أهم إنجازات الكتاب. ولكن يُلاحظ القارىء بأن هناك تقليل من دور الخارج أي

العدو بل الثورة المضادة التي كانت تحارب الاتحاد السوفييتي باستمرار وبالتالي ينعكس على تقليل دورها في إفشال التجربة رغم إشارات في الكتاب لدور الإمبريالية الأمريكية في الحصار ومشكلة أفغانستان... الخ.

والغريب أن الكتاب يخلو من أية إشارة إلى دور أنظمة الدين السياسي العربية وخاصة السعودية في التلاعب بأسعار النفط في السوق العالمية حيث لعبت دائماً، وخاصة في ثمانينات القرن العشرين دور "المنتج المرجَح" مما ساهم بشكل رئيسي في خسائر مالية هائلة للاتحاد السوفييتي، وتقوم بذلك اليوم ضد روسيا الاتحادية وفنزويلا وإيران والجزائر، ناهيك عن دورها المتواصل في خدمة الثورة المضادة على صعيد عالمي بما في ذلك في دول الكتلة الشرقية قبيل تفكك أنظمتها الاشتراكية وحتى الوقت الراهن.

تم التركيز على دور الإمبريالية في شيطنة "ستالين" باستخدامها مصطلح "الستالينية" الذي كما أعتقد يعود لتروتسكي، كما تمت الإشارة إلى دور خروتشوف في ذلك، ولكن ربما كان يجب الإضاءة أكثر على هذه المسألة التي لم تتوقف بعد الإمبريالية عن استخدامها والمبالغة فيها، بل تستخدمها ضد الثورة الثقافية في الصين متهمة ماو تسي تونغ قبل وخلال تلك الثورة بقتل أعدادٍ هائلة، كما تُستخدم اليوم ضد الجمهوريات العربية وقادتها من مدخل التغطية على ودعم أنظمة الدين السياسي العربية وقروسطيتها.

لعل مسألة ستالين بالغة الأهمية لأنها ترتبط بالعدوان الرأسمالي الإمبريالي ضد الدولة السوفييتية من لحظة الثورة إلى البناء وحتى السقوط، أي لم يتم التركيز بما يكفي على أن السوفييت وجد في اشتباك دائم مع النظام العالمي وخاصة الغزو الإمبريالي ومن ثم الحصار، وانتقال الاتحاد السوفييتي سواء بالتخطيط أو التجربة إلى أهمية فك الارتباط بالسوق العالمية، وهو الأمر الذي أعاده جورباتشوف بشكل خاص.

بينما تعرَّض الكتاب إلى ضعف المحيط الأقرب للاتحاد السوفييتي أي شرق أوروبا وكونها عبئاً عليه إلى حد ما، ومن ثم تأثير تفككها السريع على الاتحاد السوفييتي

نفسه، إلا أن الكتاب لم يتعرض للمحيط الأبعد للاتحاد السوفييتي وتأثير تفككه أو تحوله الانخراطي في السوق العالمية، مصر (الانفتاح الاقتصادي)[1]، سوريا، العراق. وتركز تبادل هذه الدول الاقتصادي مع الغرب الرأسمالي وكثير من البلدان في آسيا وإفريقيا وهو ما أثر على قدرة الاتحاد السوفييتي نفسه وبالطبع تبع ذلك تفكك محيطه الأقرب. وتكمن أهمية تناول المحيطَيْن لتبيان أن المركز الرأسمالي كان يقاتل الاتحاد السوفييتي بإمكاناته وبما ينهبه أو يحصل عليه بالتبادل اللامتكافئ مع المحيط بينما كان الاتحاد السوفييتي يعتمد على إمكاناته فقط.

لا شك أن القارىء كان يود بعض المقارنات مع التحولات في الصين نحو السوق والانفتاح الاقتصادي ومزاوجة السوق بالخطة نقداً للتحريفية في الصين لا سيما وأن الكتاب صدر بعد سنوات مديدة على أخذ القيادة الصينية هذا الطريق.

إلى جانب تأثير تفكك المحيطَيْن الأبعد والأقرب للاتحاد السوفييتي، كان من المهم الإشارة إلى تبعية العديد من الأحزاب الشيوعية والعمالية في العالم للاتحاد السوفييتي مما أعمى معظمها عن ملاحظة الانحراف ونقده في حينه وهو ما كان سيدعم التيار الشيوعي في الاتحاد السوفييتي نفسه في صراعه مع الانحراف. والغريب، أن ما تمت الإشارة إليه في هذا السياق هو تحريفية الشيوعية الأوروبية.

فالأحزاب الشيوعية التي حلت نفسها بناء على "إرشادات" خروتشوف وتبني "طريق التطور اللارأسمالي"... الخ، لعبت دوراً ولو غير مباشر، في إمعان التحريفية السوفييتية في طريقها التصفوي وطبعاً هي هُزمت في مواقعها.

ما كان يجدر ذكره بوضوح هو النقد الجريء الذي وجهه تشي جيفارا إلى

---

(١) انظر عادل سمارة، البريسترويكا، حرب الخليج والعلاقات العربية-السوفييتية:النظام العالمي يعيد إنتاج نفسه، ١٩٩١، ص ص ١٠١-١٠٨، منشورات مركز إحياء التراث العربي-الطيبة ١٩٩١ وانظر:

Adel Ssmara, The USSR From Revolution to Collapse, in The Collapse of the Soviet Union, Causes and Lessons, Internationaç Communist Seminar Brussels – Belgium, 1998 p.p. 223-236.

التجربة السوفييتية عام ١٩٦٥: "... لا يمكن أن تبقى الاشتراكية دون تغيير في الضمير يجترح موقفاً أخوياً جديداً نحو الإنسانية... إننا نؤمن بأن، مساعدة البلدان النامية لا بد أن يتم التعاطي معه بهذه الروح ولا لزوم لأي حديث زائد مثل تطوير التجارة من أجل المنافع المتبادلة والقائمة على الأسعار الجامدة على حساب البلدان المتخلفة، بناء على قانون القيمة والعلاقات الدولية للتبادل اللامتكافىء، الناجمة عن قانون القيمة"[١].

وهذا يفتح على اهمال مسألة هامة في قراءة التجربة السوفييتية وهي حدود بقاء واعتماد ومن ثم تجاوز قانون القيمة في الدولة الاشتراكية. مع أنها قضية محورية بها يمكن قياس مدى توجه الدولة الاشتراكية نحو الاشتراكية فعلاً من خلال قطع شوط في تجاوز وإلغاء قانون القيمة. بل لعل اهمال خروتشوف لوجوب تجاوز قانون القيمة هو ما يميز دور ستالين ويؤكد انحراف جورباتشوف.

إن تركيز الكتاب على دور خروتشوف في الانحراف المؤسس وهو ما ارتكز عليه جورباتشوف هو قراءة دقيقة. ولكنها قراءة يعوزها التركيز على مقومات أخرى للانحراف منها:

- تركيز خروتشوف على دور المدراء
- تبني نظرية إفزي ليبرمان[٢] في اعتماد الحوافز المادية في الاقتصاد والاستفادة من نظام الأرباح ومعدلات الفائدة، وصولاً إلى رفض الاتحاد السوفييتي، في البداية، تمويل السد العالي" في مصر حيث قال خروتشوف: "... ينبغي لنا أن نتأكد إذا ما كان تمويل السد العالي مربحاً أم لا..."[٣].

ورغم الإشارة إلى الانحراف المبكر في بولندا سواء بتأثير اختراق الطبقة العاملة

---

(1) Guevara, C 1965, *A Common Aspiration: The Overthrough of Imperialism Unites Cuba with Africa and Asia*, Bertrand Russel Peace Foundation, Notingham.

(٢) سمارة، ١٩٩١.

(3) Kidron Michael, 1972, In Documents submitted to UNCTAD Pakistan's Trade with Eastern Block Countries, New York: Prager.

بنقابة تضامن ودور رأس الفاتيكان والإعلام الغربي المعادي، لكن لم يتم التركيز على دور التيارات التروتسكية في الهجوم على الاتحاد السوفييتي، سواء عبر انخراط بعض قيادات هذا التيار في المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، وهجومه على مساعدة الاتحاد السوفييتي للحزب الاشتراكي في أفغانستان، ودعمهم لمنظمة تضامن في بولندا إلى حد انبهار الاقتصادي الكبير آرنست ماندل بها[١].

بقي أن نقول بأن الكتاب من عنوانه "الاشتراكية المغدورة/ أو غُدر بالاشتراكية/ أو خيانة الاشتراكية" لكننا لم نفهم منه تحديداً من هو/ هم الخونة! هل هو فرد، حزب، طبقة، فريق محلي، أعداء خارجيين، أم من كثير من هؤلاء[٢].

وهكذا آلت هذه المنطقة الرجراجة من العالم لتكون مرتعاً لتخريب العالم باستخدام الثورة المضادة بقيادة الإمبريالية الأمريكية. فهي المخزن الهائل من الأسلحة التي تم تهريبها إلى سوريا إلى أيدي المعارضة العميلة ضد الدولة السورية، وبالطبع كان الإنفاق من أنظمة الخليج النفطية جميعها وخاصة السعوية وقطر والإمارات طبقاً للتعليمات الأمريكية. ولم يكن بوسع هؤلاء إيصال صفقات التخريب إلى الإرهابيين لولا تعاون الأردن ولبنان وخاصة تركيا كدول حدودية من سوريا.

تتكرر التجربة والدور ضد فنزويلا كما كتب بيبي إسكوبار:

"نحن لدينا معلومات أن الولايات المتحدة وشركائها في الناتو يرتبون تحويل وتسليم كميات كبيرة من الأسلحة للمعارضة الفنزويلية والتي سيؤتى بها من بلدان أوروبا الشرقية"[٣].

---

(١) انظر عادل سمارة، ظلال يهو-صهيو-ترتوتسكية في المحافظية الجديدة، منشورات مركز المشرق العامل للدراسات الثقافية والتنموية ٢٠١٤، ص ص ٦٨-٧٤

(٢) على سبيل المقارنة، شاركت مجموعة من الشيوعيين بمقالات عالجت نفس الموضوع في كتاب:

The Collapse of the Soviet Union, Causes and Lessons, **International Communist Seminar Brussels – Belgium, 1998** ومنهم **Ludo Martene, Nina Andreyeva, James Klugmann, Armando Lowanag, Ismael Rinashe, Vijay Sibgh.** وآخرون

(3) Kashmir, Korea, Venezuela, Iran: hot, cold, hybrid war
Pepe Escobar (cross-posted with the Asia Times by special agreement with the author)

يتبع هذا السؤال: من الذي يدفع غير قطر والسعودية والإمارات والكويت؟ لذا لا تُجزِّؤوا الأعداء فالثورة المضادة معسكر واحد.

ويبدو أن الثورة المضادة تستهدف الجزائر اليوم، (أثناء كتابة هذه السطور)، حيث كتبت لينا كنوش الثلاثاء ١٦ نيسان ٢٠١٩ خطر «الثورات الملونة» في الجزائر: تساؤلات عن «رموز» الحراك الشعبي، محذرة من منظمات الأنجزة: "...فإن أحمد بن سعدة، مؤلف «أرابيسك – تحقيق عن دور الولايات المتحدة في الانتفاضات العربية»، يرى أنه في حالة الاحتجاجات في الجزائر، يُلجأ حالياً إلى «دليل عمل نظري ومنهجي ومنظم». وبحسب بن سعدة، فقد أجرى المركز الصربي «كانفاس» وخبراء في التواصل الاجتماعي دورات تدريبية فيما يسمى «الرابطة العربية للإنترنت... »، أُسّس مركز «كانفاس» كوريث لحركة «أوتبور» الصربية، السبّاقة إلى اعتماد النضال اللاعنفي الذي أطلق الانتفاضة على حكومة ميلوزيفيتش وأطاحها عام ٢٠٠٠"[١].

وطالما يعنينا فهم هذا الغرض الأمر، فإن التغيرات الثورية حيث تأخذ مسارها أمام أعيننا فإنها تُعلِّمنا درساً واضحاً: بأن المجتمعات المعقدة عاجزة عن إعادة إنتاج نفسها إن لم تغادر منطق اقتصاد يضبِّط نفسه عبر سيطرة السوق... لقد قدم لنا كلاوس أوفيه تعليقاً ساخراً/ مفارقاً على الطريقة التي اتبعها الإجماع السائد بشأن الأهداف الاجتماعية والسياسية حينما كتبنا: "وطالما أن وضع أنظمة الاشتراكية المحققة يتزايد اليأس منه ويتزايد احتضاره، فإننا سوف نغدو "شيوعيين" طالما أننا عاجزون في النهاية عن التخلص من اهتمامنا بالشأن العام وترعبنا التطورات الكارثية المحتملة لمجتمع معولم"[٢].

وهكذا، توصلنا مجريات الأحداث والواقع الجديد لهذا الجزء من العالم في حقبة العولمة إلى أن انتصارات الثورة المضادة في أوروبا الشرقية بل وفي مختلف الدول الاشتراكية التي انهارت أنظمتها، بأن هذه الانهيارات هي انتصارات مؤقتة وهزائم على

---

(1) https://www.al-akhbar.com/Morocco/269409

(٢) ما الذي تعنيه الاشتراكية اليوم؟ الثورة لاستعادة التعافي والحاجة لتفكير جديد

(in *After the Fall*, ed by Robin Blackborn, Verso, 1991. P.40)

المدى التاريخي، لأن العالم يذهب في التحليل الأخير حيث الضرورة التاريخية في الصعود الديالكتيكي لحركة التاريخ.

الموجة القومية الثالثة تصنيع إمبريالي:

وبالليبرالية الجديدة والعولمة... ورثت الثانية

بداية، هذا الباب يستكمل جوهرياً الباب السابق لأن شرق أوروبا هو أحد مسارح موجة القومية الثالثة وأكثرها مثاراً للجدل.

ليست المصطلحات في السياسة بلا معنى، طالما هي وصف أحداث وحالات وأوضاع، طالما هي تأريخ للأحداث في أُطر لغوية تشرحها وتعبِّر عنها بهذا المستوى البلاغي الحار أو ذاك. وفي غالب، إن لم نقل مطلق الحالات، يجري التأريخ على لسان وبخطوط أيدي المنتصرين، لحظة الانتصار وما بعده أي خلال استقرار نظامهم. ويتلو ذلك بالطبع ترسيخ لغته ناقلاً العلاقة بين المنتصر والمهزوم من السيطرة إلى الهيمنة التي في الغالب تؤذي وتُخضِع أكثر مما فعلت السيطرة حين انتصار طرف وهزيمة آخر. لكن السياق الزمني اللاحق لا بد أن يبين إن كان الحدث في صالح البشرية أم ضدها، وذلك عبر قوانين الديالكتيك التي هي في التحليل الأخير تؤكد الصعود البشري. فتاريخ البشرية يؤكد غَلَبة المنحى التطوري.

في هذا السياق تبلورت لغة الغرب المركزاني الأوروبي ولاحقاً الأورو-أمريكي، فأُعطت أسماء وتوصيفات لمختلف الأحداث، حتى السابق منها على عصر رأس المال، أسماء وتوصيفات كما رآها وقرَّر الغرب أن تُصبح مؤكدة لكينونته ونافية لكينونة بقية العالم بكل تعددها وخواصها. وليس الاستشراق سوى أحد تجليات تصنيع تاريخ للتاريخ.

الموجات القومية

أحد هذه المصطلحات ما كرسه خطاب الغرب بتسمية القرن التاسع عشر

بـ "عصر القوميات" في توصيف للثورات التي حصلت في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر مترافقة مع الثورة الصناعية حيث تبلورت أكثر ورسمياً حدود وسيادات الدول القومية في أوروبا الغربية خاصة.

ليس موضوعنا طبيعة تلك الثورات القائمة على الثورة الصناعية التي أنجزتها أوروبا الغربية بشكل متناسب/ متوازٍ تقريباً، وإنما يرتكز نقدنا على تعميم تلك التسمية المحدودة جغرافياً على سائر العالم. وأي عالم؟ بقية العالم أو معظمه الذي كان كلما تقدمت أوروبا الغربية خاصة كلما تم اقتحامه واستعماره ونهبه بمطلق الوحشية. ومع ذلك يتم تعميم التسمية على الضحايا ويتم تدريس هذه التسمية المعممة في كثير من بلدان المحيط مما يخلق حالة من التعمية التثقيفية لتواريخ هذه الأمم بطيها لصالح تأريخ تم تصنيعه غربياً، فترى الأجيال الجديدة أنها في عصر القوميات الأوروبي! بينما هي تحت سقف الاستغلال والتخلف والتبعية. وهذا نمط من الاستعمار الثقافي وهو شديد الخطر، فاستيراد السلع حتى المعمرة التي لا تعيش أكثر من عشر سنوات أقل خطراً من استيراد ثقافة لأن الثقافة تعيش قروناً أو يزيد. فليس أقدم ولا أطول عمراً من الثقافة/ الفكر/ النظريات سوى العمل فالإنتاج.

كانت موجة القومية الأولى، أو الأوروبية إذن نتاج الثورة الصناعية وتجاوز أوروبا مرحلة التراكم البدائي/ الأولي الذي نهب وكرَّس آليات نهب المحيط. وبالتطور الصناعي تجاوز الإنتاج في هذه البلدان حدود السوق القومية التي حرصت الدول السيادية الجديدة على تثبيتها والصراع كل من أجل حدوده، أو ما يفترض أنها حدوده.

في هذا القرن أي التاسع عشر، تقاطع في أوروبا رأس المال إدماج الجشع بالتقنية بتوظيف التطور الصناعي من أجل النهب الخارجي والاستغلال المحلي فكان لتوظيف الثورة الصناعية نتائج تحقيق:

- التفوق التسليحي
- التفوق الإنتاجي بما يزيد عن حاجة الدولة القومية

- التوسع الاستعماري عبر الغزو العسكري لبيع المنتجات ونهب الخامات ولاحقاً تصدير رأس المال وصولاً إلى تصدير رأس المال العامل الإنتاجي الذي حوَّل الصين إلى ورشة أمريكية وتركيا إلى ورشة أوروبية... الخ. وأبقى تقريباً على كامل العالم سوقاً مفتوحة أو ما أرى أنه قطاع عام رأسمالي معولم[1] تحكمه الشركات ويتم فيه طغيان نهب الريع وتوجه رأس المال من الإنتاج إلى المضاربات، ويحكمه اليوم ديكتاتور تدعمه قطاعات شعبية عنصرية ورأس المال بتسمية الأبيض مستخدماً اللون والعرق والدين وكل ما فاض به خياله ليصبح النهب والفتك والعسف مبرراً حتى من الله.

الموجة الأولى تخلق نقيضها الموجة الثانية:

لو كان لنا تسمية قرن بقرن الاستعمار لكانت الفترة بين ١٨٥٠-١٩٥٠ هي عصر الاستعمار بجدارة. وهذا لا يعني أن الاستعمار بدأ مع هذا القرن حصراً كما لم ينته به أبداً. فعلى الأقل بدأ الاستعمار الرأسمالي الأوروبي تحديداً مع مرحلة الرأسمالية الميركنتيلية سواء في فترة سيطرة الاستعمارين الإسباني والبرتغالي الممتد على مدار القرون الثلاثة للمرحلة المركانتيلية (١٥٠٠-١٨٠٠) أو إثر هزيمته على يد القوى الاستعمارية الطالعة آنذاك وخاصة بريطانيا، ولا نبالغ إن قلنا لم يتوقف، وإن تعثر أحياناً وهُزم أحياناً أخرى، ولكن الروح الشريرة للغرب الاستعماري القائمة على النهب والاستغلال/ المصالح المادية، لم تُقتل بعد. ويكفي أن نُشير إلى إرسال فرنسا وبريطانيا[2] اليوم ٢٠١٨ قوات ضد سوريا في ذيل قوات العدو الأمريكي في محاولة

(١) نوقش مصطلح قطاع رأسمالي عام معولم في موضع سابق.

(٢) أما والاستعمارين الفرنسي والبريطاني وقد هرما كشعوب أيضاً، لكن العدوانية والجشع للنهب والعيش على ريع من الغير لم يتوقف، لذا أشبه دورهما الآن في محاولات تجديد دورهما ولو كاستعمار تابع بما كتبه أمير الشعراء العرب أحمد شوقي: رأيت على صخرة عقرباً... وقد جعلت ضربها ديدنا. فقلت لها إنها صخرة...وطبعك من طبعها ألينا. فقالت صدقت ولكنني...أريدُ أعرِّفها من أنا.

لاستعادة ماضٍ استعماري دموي ولكن بعد أن تهالكت أنياب هذه الإمبرياليات المتهالكة، وإن تدريجياً.

كان القرن السابع عشر حاسماً في صعود الرأسمالية وما رافقه من صعود لـ لندن ومن ثم نيويورك. بينما رافق ذلك إهلاك إسبانيا وهولندا لبعضهما البعض مما فسح المجال لبريطانيا حيث بدأت حقبة سيطرتها الإمبراطورية. لكن هذا لم يلغِ أبداً حصة لمختلف بلدان أوروبا الغربية في استعمار أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا. أي حمل القرن السابع عشر المشروع الاستعماري الأوروبي الغربي المعولم وخاصة بريطانيا وهولندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا.

وبالطبع ترافقت مع هذا الاستعمار تنظيرات عنصرية تضفي عليه دوراً تقدمياً لإخراج المستعمرات "من الظلمات إلى النور"!. وهي تنظيرات قامت على عنصرية طاغية إلى حد إصابة ماركس نفسه بلوثتها رغم إنجازه العظيم ضد رأس المال من حينة وإلى عصور مقبلة. أخذت الحماسة الرجل إلى حد تخيُّل أن الاستعمار البريطاني سينقل الهند إلى "الحضارة"، حتى ولو بقسوة ضد الإنسان، ناهيك عما كتبه هو وإنجلز عن الجزائر[1].

ولكن، لم تكن هذه قناعة شعوب المستعمرات التي قاومت قدر جهدها وواصلت المقاومة لتحقق انتصارات على امتداد الأرض وخاصة منذ أربعينات وخمسينات وصولاً لسبعينات القرن العشرين، وهذا ما أسميناه الموجة القومية الثانية والتي امتدت تقديراً من أربعينات وحتى نهاية سبعينات القرن العشرين.

الموجة الثانية سياسية وطنية دون تبلور طبقي وإنتاجي (لذلك انكفأت). لقد ترافق مع نجاحها وجود القطبية الاشتراكية مما حماها من الغزو الاستعماري مجدداً، لكن أنظمتها ذهبت لتثبيت نفسها/ مصالحها إلى تحويل الدولة إلى دولة أمنية. وعليه، قاد

(١) انظر عادل سمارة:

Terrorist Orientalism in a State Form .Using Marxism, Christianity and Islam to Dismantle Arab Homeland .Adel Samara, Kana'an – The e-Bulletin Volume XV – Issues 3781- 3782. 24 March 2015

تفكك الكتلة الاشتراكية إلى وقوف هذه البلدان عارية أمام عدوان لا يتردد في اقتحامها.

هي إذن ثورة الموجة القومية الثانية/ المستعمرات ضد الموجة القومية الأولى/ الاستعمار على يد حركات التحرر الوطني وخاصة في آسيا وإفريقيا حيث كانت ثورات أمريكا الجنوبية سابقة على ثورات آسيا وإفريقيا.

قادت هذه الموجة قوى محلية في بلدان المحيط وهي خليط شعبوي في معظم الحالات قادته غالباً شرائح من البرجوازية الصغيرة وقاعدته الطبقات الشعبية وخاصة الفلاحين الفقراء. كانت هذه الثورات محفوزة بالانتماء والأيديولوجيا القومية كحافز ضد الاستعمار. وقد ركزت بالطبع على الثقافة واللغة والتاريخ المحلي في كل بلد. واعتمدت الكفاح المسلح في معظم الحالات وهو كلما كان أشد، كلما واجهه الاستعمار بوحشية أعلى، ولعل أوضح الأمثلة وحشية الاستعمار الفرنسي في فيتنام والجزائر ثم أمريكا في فيتنام لاحقاً.

لا ننسى في هذا السياق أن انفلات اليابان من الاحتجاز الأوروبي الغربي للتطور لم يمنعها من التحول إلى استعمار لا يقل وحشية عن الأخريات، وهذا الأمر الذي امتد في دور اليابان حتى اليوم، لتحجز لنفسها المقعد الثالث في الثلاثي الإمبريالي إلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

ليس هناك من اتفاق بعد، إن كان سبب ما آلت إليه هذه البلدان بعد الاستقلال السياسي أو بعد الاستعمار، إن حصل حقاً، هو:

- الانحراف المصلحي الطبقي للأنظمة الحاكمة في هذه البلدان، بعيداً عن التنمية المحلية وفك الارتباط، راجعة إلى أو مجددة لعلاقات التبعية للاستعمار، بتحولها إلى كمبرادور بدل التنمية، بالاعتماد على الذات وصولاً إلى فك الارتباط (سمير أمين)، منخرطة بشكل تابع في السوق الدولية نفسها.

- أو أن هذه الأنظمة ورثت بلاداً مرهقة هالكة اقتصادياً لم يكن بوسعها إلا الارتباط مجدداً بعدوها الذي أعاد صياغة تحكمه بها بطرق جديدة، طالما أن القيادات الجديدة ليست ذات منظور تنموي لإنجاز الاستقلال الاقتصادي مكتفية بالاستقلال السياسي الشكلي والمظهري والذي أهم جوانبه الخطيرة تركيز الإنفاق على بنية وأمن وجيش السلطة، وليس على إنتاج الحاجات الأساسية للمجتمع. أي لم تخلق لنفسها إطار الدعم الشعبي بل استبدلته بجزام أمني!.
- أو أن كلاً من الكتلة الشرقية وقيادات كتلة عدم الانحياز، التي ضمت معظم بلدان الموجة القومية الثانية، لم تتمكنا من خلق ترابط بينهما في مواجهة الغرب الرأسمالي، سواء لضعف الكتلة الشرقية اقتصادياً، ووصول التحريفية الخروتشيفية إلى السلطة في الاتحاد السوفييتي، أو لأن قيادات دول عدم الانحياز هذه، ونقصد ذات التوجه القومي التحرري وبعضها الاشتراكي (شو إن لاي، نهرو، ناصر، تيتو، سوكارنو... الخ) لم تكن قادرة على القطع مع الاستعمار ولم تكن ناضجة التوجه الفكري الاشتراكي، وصاحبها فساد قاد إلى تحولها من برجوازية إنتاجية مفترضة إلى استسهال دور الكمبرادور مسلحاً بأجهزة قمع هي الأجهزة الدولانية الأكثر ارتباطاً بالإمبريالية.

على أن ما حصل هو ذوبان نتائج هذه الموجة القومية، مما أبقى معظم بلدانها ملحقاً بالسوق العالمية وبالتالي، ونظراً لعدم إنجاز تنمية حقيقية زراعية وصناعية، بقيت سوقاً للغرب الرأسمالي، ومصدراً للمواد الخام المطلوبة للغرب والتي يتزايد تذبذب سوقها وتغير مبدأ الطلب عليها طبقاً لحاجة الغرب المتبدلة، أو بناء على سياساته التدميرية لهذا النظام أو ذاك، بل تحول معظمها إلى مستورد للمنتجات الغربية الصناعية وحتى الزراعية. أي بكلام آخر، عادت لتقوية الرأسمالية العالمية والخضوع لنفس ظروف فترة كونها مستعمرات لكن هذه المرَّة بقبول إن لم نقل توسلات الطبقات الكمبرادورية الحاكمة في تلك البلدان.

وعليه، فإذا كانت هذه الكتلة وسطية، فإن تراجع الاتحاد السوفييتي نفسه إلى الوسطية قد ساعد كثيرين من هذه الكتلة، والتي كان العديد من دولها بمثابة المحيط الخارجي للاتحاد السوفييتي، إلى تجديد ارتباطها التابع للمركز الرأسمالي الأمر الذي همَّش القمة السياسية لصالح طبقة رأس المال الكمبرادوري والطفيلي، والذي انتهى أخيراً إلى تبعية للمركز باسم الوطنية والقومية، أي بدون السيطرة أو العصا الاستعمارية السابقة، حيث تحولت القيادات "المناضلة" إلى عصىً على شعبها وخدمة للعدو، وصولاً إلى تحالفها المبلور في القطاع العام الرأسمالي المعولم. لقد وجد الغرب الرأسمالي الاستعماري نفسه أمام تبعية "وطنية" لأنها ممهورة بخاتم حكام هذه البلدان نفسها تماماً كما وجد الغرب نفسه، لاحقاً، أمام تبعية قوى وأنظمة الدين السياسي العربية والإسلامية ممهورة بطابع القداسة الدينية بل حتى الربانية.

وقد تكون ظاهرة الخليج العربي، مجلس التعاون الخليجي، حالة خاصة جداً في هذا السياق بمعنى أنها لم "تستقل" بنضال قومي، بل لم يكن هذا التوجه مطروحاً لدى حكامها قطعاً بما هي أنظمة تنصيب إمبريالي. فقد حصلت على أكثر أشكال الاستقلال شكلانية، ولكنها أخضعت نفسها لأكثر أشكال التخادم غير المتوازن مع المركز الإمبريالي. فهي بعكس غيرها من الدول "المستقلة" حديثاً ذات الإمكانيات الشحيحة. وعليه، لم تكن الفوائض المالية النفطية سوى ريعاً تم تكريسه لأدوار تابعة وخطيرة وعدوانية من هذه الكيانات ضد الوطن العربي بأكمله بل على صعيد عالمي.

لم تكن هذه الكيانات بحاجة للعب هذا الدور إذا ما قرأنا وضعها على ضوء إمكانياتها، ولكن إذا قرأناه على ضوء كون أنظمتها تنصيب إمبريالي، وكونها ترى في القومية العربية الوحدوية خطراً على عروشها، وعلى ضوء تشرُّبها لقناعة أنه لولا الاستعمار لما كانت ولا كان النفط، لفهمنا لماذا اصطفت أنظمة هذه الكيانات سراً سابقاً وعلانية لاحقاً اصطفافاً مضاداً للقومية العربية ولعبت دور أداة تمول كافة قوى الإرهاب على صعيد عالمي. هي أنظمة تقاتل الإنسانية نيابة عن الإمبريالية وخدمة لها. وتكون من نتائج ذلك الكراهية العالمية للعرب والمسلمين، فأي دور لهؤلاء!

تجلت ردَّة بلدان الموجة القومية الثانية في تبلور "تحالف" معولم بين رأسمالية المركز وكمبرادور المحيط متخذاً:

- سياسياً: تكوين طبقة رسمية معولمة رأسها البرجوازية الغربية تقودها الشركات الكبرى وذيلها كمبرادور المحيط.
- اقتصادياً: تحويل اقتصاد العالم إلى قطاع عام رأسمالي معولم لصالح رأس المال تكون حصة برجوازية المحيط منه هي اقتصاد التساقط. والمفارقة أن تفكك الكتلة الاشتراكية جعلت هذا القطاع معولما تماماً[1]. وبالتالي سياسياً واقتصادياً وثقافياً يمكن الحديث عن طبقة رأسمالية معولمة.
- وتحكمت بهذا التحالف المؤسسات المالية والإدارية الثلاث الكبرى المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية. لكن هذا الثلاثي هو في الحقيقة في خدمة سلطة معولمة شكلية وأخرى فعلية. والشكلية هي السلطات السياسية/ الطبقة المعولمة المزدوجة، بينما الفعلية هي قاعدتها أو بنيتها التحتية مالياً وإدارياً أي الشركات الكبرى. وللمفارقة يرأس هذه الشركات الكبرى رأس افتراضي واحد هو دونالد ترامب/ و! الذي أصبح بعد عام على رئاسته مثابة المدير العام لشركة عالمية، يعاقب هنا وهناك ويقاطع هنا وهناك... الخ، بل ويدير حرباً تجارية على صعيد عالمي.
- على أن تفسير هذا العسف الأمريكي بقيادة ترامب/ ومرده أساساً السر العسكري التسليحي الذي عززه في بداية الخمسينات الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور، الجنرال سابقاً[2]، الذي تنبَّه إلى إمكانية بروز دول تنافس

(١) قد يكون أفضل شاهد على هذا ما تقوم به إدارة الولايات المتحدة الحالية، إدارة ترامب من فرض عقوبات تجارية تقريباً على كل العالم وخاصة شركاء أمريكا بما هي رأس سيطرة هذا القطاع العام الرأسمالي المعولم.

(٢) ربما بنى أيزنهاور عقيدته في التفوق التسليحي المطلق على حقيقتين، قيام أوروبا المسلحة جيداً بتدمير الدول التي كانت سابقة لها في التطور الاقتصادي الصين والهند، أي اعتماد القوة دخولاً إلى الاقتصاد، ثم خروج أمريكا الأقوى بعد الحرب الإمبريالية العالمية الثانية.

الولايات المتحدة اقتصادياً بالإنتاج المدني، فاتجه لإقامة المجمع الصناعي الحربي الأمريكي، لتبقى أمريكا متفوقة عسكرياً مما يضمن ويحمي ويفرض مصالحها الاقتصادية، أي استعمارها للعالم. لذا، فالحرب الاقتصادية التي تشنها إدارة ترامب/ و حتى على حلفائها الأوروبيين ترتكز على كون أمريكا هي القوة والقيادة لحلف شمال الأطلسي الذي هو حلف غزو مختلف بقاع العالم، ويرتكز على أن تمويل هذا الحلف يعتمد بنسبة ٩٠ بالمئة على أمريكا. وهنا تبرز حاجة أوروبا واليابان لأمريكا على صعيد خارجي، مما يمنعهما من مشاكسة قرارات ترامب العدوانية. فالرجل مدير شركة هي القطاع الرأسمالي المعولم، ويعرف عن ماذا يتحدث.

- يمكننا الاستنتاج بأن حلف شمال الأطلسي كأنه بشكل ما، امتدادٌ لمشروع مارشال لإعادة إيقاف اقتصاد أوروبا الغربية على قدميه كي لا تتجه شرقاً، وبأن تحمُّل الولايات المتحدة للعبء المالي لهذا الحلف هو مثابة مساعدات عسكرية على نمط مارشال الاقتصادي لصالح أوروبا الغربية التي لم تعد قادرة على القتال العدواني بمفردها على صعيد معولم[1].

بقي أن نشير هنا، إذا كانت أوروبا الغربية لم تحتجز التبادل التكنولوجي فيما بينها، مما قاد إلى تطور متكافىء نسبياً، كما نفترض، لكنها وقد وصلت كل واحدة منها تقريباً إلى إنتاج ما يفوق طاقة السوق المحلية، أو كما قال ماركس "تدني القدرة الاستهلاكية **Under-Consumptionism**" الناجمة، أساساً وليس فقط، عن تصاعد القدرة الإنتاجية وتجاوزها لطاقة السوق القومي على الاستيعاب، فقد واصلت حروبها المصلحية البينية سواء داخل جغرافيتها أو خارجها حتى نهاية الحرب الإمبريالية العالمية

(١) لعل الاستثناء فيما يخص قدرة دول أوروبا الغربية على شن عدوان هنا وهناك هو من جهة الأمر الأمريكي لها، ومن جهة ثانية اختيار حالات معينة بشن عدوان محدود وباشتراك مع دول أخرى. هذا ما حصل مؤخراً بمشاركة فرنسية للعدوان ضد اليمن إلى جانب العدوان السعودي الإماراتي حيث تشارك فرنسا في نزع ألغام إعاقة العدوان، كما أرسلت فرنسا قوات رمزية ضد سوريا مساعدة للكرد الصهاينة، هذا ناهيك عن مشاركة مختلف دول الناتو تحت مظلة أمريكا في تدمير ليبيا وإسقاط نظام الرئيس القذافي.

الثانية كي تسلم القيادة بعدها للولايات المتحدة وتنحني لتلك القيادة حتى حينه ذاهبة إلى "سلام" اقتصادي فيما بينها أي الاتحاد الأوروبي.

لعل إشكالية الاتحاد الأوروبي اليوم ثلاثية:

الأولى: التهديد الداخلي بتفكك هذا الاتحاد بعد خروج بريطانيا شبه المؤكد من هذا الاتحاد، وزيادة سيطرة ألمانيا عليه، وهو ما اتضح في قمع اليونان بشروط مجحفة، وزيادة الضغط الشعبي في كثير من أعضائه للخروج من هذا الاتحاد.

والثانية: الصعود الواضح للفاشية أو الشعبوية لتخفيف الوقع إلى السلطة كما في إيطاليا خاصة وتقوية هذه التيارات في العديد من دول هذا الاتحاد.

والثالثة: الهجمة العقوباتية الأمريكية بقيادة ترامب/ و والتي يُفترض/ ربما أن تؤدي إلى تماسك هذا الاتحاد أو بعضه، أي الرأسماليات الأوروبية.

لقد اختتمت موجة القومية الثانية مرحلتها بأزمة مزدوجة في المركز والمحيط مما نقلها إلى وضعية الانتصارات المهزومة.

فيما يخص المركز الإمبريالي، لدينا مشكلة قوى التفجير الداخلي التي تدفع للتفكك، خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وأزمة اليونان وإسبانيا والبرتغال، وذهاب إيطاليا باتجاه شعبوي. هذا من جهة، والحرب الاقتصادية الأمريكية كونها امتداداً للأزمة الاقتصادية الممولنة منذ عام ٢٠٠٨، مما يوجب التماسك الأوروبي الداخلي من جهة ثانية، وحاجة البرجوازيات الغربية لحلف الأطلسي العدواني سواء على صعيد عالمي أو ضد روسيا خاصة من جهة أخرى. وهذا يبين تناقض طبقي على الصعيد الأوروبي حيث الرأسماليات رغم العقوبات الأمريكية هي لصالح بقاء الاتحاد الأوروبي والعلاقة مع أمريكا، مقابل الضغط الشعبي الذي لا تمثله الشركات ولا تمثله، إلى حد ما، مصالح أوروبا المحمية بحلف الأطلسي على صعيد عالمي!

أما على صعيد المحيط، فأزمته أكثر شدة، كامتداد لأزمة المركز إلى جانب التزام هذه البلدان بعدم اعتماد سياسات حمائية بأوامر من الثلاثي المزدوج: الثلاثي السياسي

الطبقي الرأسمالي "الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان"، والثلاثي الاقتصادي المالي التجاري أي المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية. في هذا المناخ ذهب المركز لتخليق الموجة القومية الثالثة.

الموجة القومية الثالثة:

إذا كانت الموجة القومية الأولى هي التعبير عن الصعود البرجوازي في أوروبا الغربية مرتكزاً على محرك الثورة الصناعية وفيض الإنتاج الذي يدفع بالضرورة إلى البحث عن أسواق نظراً لعجز السوق المحلي لكل بلد عن استيعاب منتجاته وهو ما أسماه ماركس **Under Consumptionism**، وحاجته للمواد الخام غير المتوفرة لديه، وتنافس كل بلد مع الأخريات على الأسواق ومواقع الثروة، ولاحقاً تصدير رأس المال... الخ، وكانت الموجة الثانية هي بزخم الوعي القومي في المحيط وعسف الاستعمار طبعاً، فإن الموجة الثالثة مختلفة المنبت بشكل خاص. فالموجتان الأولى والثانية هما من دينامية ذاتية لهذا البلد أو ذاك، نبت محلي بغض النظر عن المآلات بينما الموجة الثالثة هي تصنيع خارجي ووليد سفاح للامتداد الطبقي للموجة الأولى الرأسمالية في حقبة العولمة. لذا اتخذت شكلاً تآمرياً رجعياً وخطيراً. بقول آخر، كانت الموجة القومية الأولى ثورة رأس المال محلياً، والاندفاع النهبوي والاستغلالي عالمياً، وكانت الموجة الثانية ثورة الشعوب ومن ثم تواطؤ/ خيانة البرجوازية المحلية التي تحولت إلى كمبرادور وطفيلية، فإن الثالثة هي صناعة الثورة المضادة، أي هي أدنى وأحط أشكال التحالف بين شرائح برجوازية كمبرادورية وطفيلية في المحيط وبين رأسمالية المركز. وهي التعبير التطبيقي لإحدى أهم سمات العولمة أي إلغاء السيادة القومية لبلدان المحيط لصالح سيادات شكلية وتابعة بالمطلق والمفتوح لحراك رأس المال الشركاتي خاصة، وبالطبع مع حصر السيادة القومية في المركز الإمبريالي وصولاً إلى أعلى درجة من تطبيق السياسات الحمائية. وكل هذا قائم على انتقال الإمبريالية إلى حقبة العولمة بأسسها: التصحيح الهيكلي، الخصخصة، النيوليبرالية، عدم التضبيط، تحرير التجارة الدولية... الخ.

والنيوليبرالية كتنظير فلسفي اقتصادي للعولمة رافقها خطاب وشغل على تغيير

الدور الطبقي للعمل في مواجهة رأس المال. وهذه أخطر فرق الهجوم ضد الثورة. نتحدث عما يسمى مجتمع ما بعد الصناعي، والهدف منه الوصول إلى ما بعد الثورة أي إلى تأبيد الرأسمالية/ السوق. وهنا كان التركيز على انتهاء دور الطبقة العاملة في الثورة، طرح قريب أو نسخة أخرى من أطروحة هربرت ماركوزة، حيث رأى الثورية في البروليتاريا الرثة.

يركز هذا التنظير على أن مجتمع الصناعة والاقتصاد الجديد بما هو مجتمع الأوتوميشنن وتكنولوجيا المعلومات قد خلق، أو خُلقت على هامشه طبقة عمال الخدمات التي لا ينطبق عليها كلُ من تعريف الطبقة العاملة من حيث شروط تعريف البروليتاري كطبقة عاملة صناعية خاصة، ولا كطبقة صاحبة مصلحة مباشرة/ مُلحَّة في الثورة، مما يُبهِّت دور هذه الطبقة في الثورة . ذلك لأن عمال الخدمات، أو "طبقة" عمال الخدمات هي مؤقتة، تشغيل جزئي تحت الطلب/ عند الطلب، غير رسمية، بلا عقود عمل رسمية، بلا تأمين وضمانات كافية... الخ. هذه الطبقة تعمل في خدمة طبقة متماسكة تراتبية مهيمنة هي البرجوازية وخاصة في نخبة الشركات الكبرى العابرة للقوميات. بكلام آخر، جموع هائلة العدد تحت الاستغلال، شديدة التفكك (حتى حينه على الأقل) يتم تشغيلها من بنية متحكمة منظمة ومبلورة تقريباً في طبقة معولمة.

أمام الإجهاز البرجوازي في المركز على نضال ومكاسب الطبقات الشعبية، أو إلى جانب ذلك تم التوجه، ولا سيما بعد تفكك الكتلة الاشتراكية إلى إعادة استعمار المحيط الذي غادر إيجابيات الموجة القومية الثانية متهافتاً إلى مرحلة البيدق/ للرُخ. وهنا كانت وصفة اللاسيادة على صعيد عالمي لتجريد هذه البلدان من بقايا محاولات الاستقلال ولتبقى مختلف بلدان المحيط فاتحة أسواقها للريح.

على قاعدة اللاسيادة، تم استيلاد/ استعادة وإحياء نزعات إثنية وطائفية ومذهبية أكثر مما هي قومية، ترفع شعاراتها شرائح من الكمبرادور من جهة، ومثقفي الطابور السادس الثقافي للتنظير لها من جهة ثانية، وتوكيل أجهزة/ منظمات الأنجزة للتسويق التنفيذي. وكل هذا بمقادير تافهة من التمويل.

أما تنفيذياً، فهي بهدف تفتيت مختلف الدول التي لم تنضوِ تحت عباءة الإمبريالية

الأمريكية والثلاثي الغربي عامة حيث أن الدويلات أو الكيانات الصغيرة تابعة وضعيفة ومعتمدة على حماية الغرب ولكن الأهم أنها تفتح أسواقها بالمطلق. هذا إضافة إلى أن كل كيان جديد في بلد كان واحداً يصبح في حالة حرب مع جاره مما يجعل الجميع في حاجة ملحة للغرب من جهة وأداة تسهيل دور القطاع العام الرأسمالي المعولم من جهة ثانية والذي في نهاية النهايات يخدم الدور المعولم للشركات الكبرى التي وإن بدأ دورها في الظهور في بداية سبعينات القرن العشرين كما كتب عنها ستيفن هايمر، فإنها وصلت قمة سيطرتها مع حقبة العولمة التي يمكن التأريخ لها بنهايات القرن العشرين. وهي سيطرة محاطة بخطاب وإطراء أيديولوجي بليغ يلخص دور هذه الشركات.

"... إن الرجال الذين يديرون الشركات المعولمة هم الأولون في التاريخ الكفؤين من حيث التنظيم، وحيازة التكنولوجيا، النقود، وأيديولوجيا تمكنهم بجدارة من العمل على إدارة العالم كوحدة اقتصادية متكاملة... إن ما يطلبونه جوهرياً هو حق تجاوز الدولة القومية وعملية تحويلها[1].

بهذا المعنى فإن الشركات هي التي التهمت سيادة الدول. ولكن هل كل الدول؟ بالطبع لا، رغم أكاذيب أنظمة المركز وخاصة الولايات المتحدة.

وهذا يؤكد طبيعة أو جوهر الموجة "القومية" الثالثة حيث تدير ذلك السياسة الأمريكية سياسات هذه الكيانات الجديدة الخالية من السيادة مما يسمح للشركات بالحركة الحرة فيها نافية أي دور حقيقي للسيادة ما خلا سطوة القمع المحلي.

"... إن الحدود السياسية للدول القومية هي ضيقة جداً وقاصرة عن تعريف أفق وأنشطة الأعمال العصرية... وعلى العموم فإن هذه الشركات التي أنجزت رؤية معولمة لعملياتها تميل إلى التعامل مع عالم ليس فقط السلع بل كل عوامل الإنتاج بحيث يمكن أن تحول وتتنقل بمنتهى الحرية"[2].

---

(1) Richard J. Barnet and Ronald E. Muller,Global Reach: The Power of the Multi-national Corporations (New York: Simon and Schuster, 1974), pp. 13, 15-16, as cited in Howard M. Wachtel, The money Mandarins: The Making of Supra-national Economic Order (Armonk, N.Y.: M.E. Sharpe, 1990), p.6.

(2) " Cosmocorp: The Importance of Being Stayeless," Columbia Journal of World Business 2, no. 6 (November-Decemberc1967), as quoted in Jeff Frieden, "The Trilateral Commission: Economics and Politics in the 1970s, in Holy Sklar (ed), Trilateralism: The Trilateral Commission and Elite Planning for World Managemant (Boston: South End Press, 1980), pp. 63-64.

لا مكان للولاء لا للمكان ولا للجماعة (أي/ بل للشركة)

لم يكن القطاع العام الرأسمالي المعولم وليد حقبة العولمة وهزيمة العمل لصالح رأس المال، بل هو من صلب الجشع والسيطرة الرأسمالية.

في المذكرة رقم **E-B34** الصادرة عن مجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة موجهة إلى رئيس الإدارة الأمريكية في ٢٤ تموز ١٩٤١ تم تلخيص أو إجمال فكرة "**The Grand Area**" "بأن الحد الأدنى لها هو معظم ما ليس ضمن سيطرة ألمانيا، أي نصف الكرة الغربي المملكة المتحدة وبقايا الكومنولث وشرق الانديز الهولندي والصين واليابان".

ماذا نسمي هذا غير أنه تحويل العالم إلى قطاع عام، للشركات طبعاً. من هنا نفهم لماذا تم استهداف الدول التي لم تكن مستسلمة تماماً للانخراط في السوق العالمية أي سوق سيطرة الشركات، الاتحاد السوفييتي السابق، يوغسلافيا، العراق، سوريا ، ليبيا، اليمن... الخ.

هذا إلى جانب حفاظ الثورة المضادة في حقبة العولمة على الكيانات الشبيهة بالتي يتم تصنيعها في الموجة القومية الثالثة مثل قطر، والإمارات العربية المتحدة والبحرين، وأريتريا... الخ ولا سيما دورها حيث تستخدم كرأس حربة ضد أي نظام تقدمي.

وطبقاً لدور وممارسات دويلات هذه الموجة، يمكننا الاستنتاج بأن الكيان الصهيوني هو مثلها الأعلى، وقد يكون محرك مواقفها السياسية وبالطبع عبر دوره في استراتيجية الثورة المضادة.

تخليق هذه الموجة "القومية" يفرض التساؤل: ترى هل وجود قطب أو قطبيات أخرى يمكن أن يلجم هذا التخليق ودوره؟

بالمعنى العام الإجابة نعم حتى رغم أن القطبيات الأخريات رأسمالية أو على الطريق تدريجياً إلى الرسملة. فتخليق هذه الموجة ترافق مع انتقال الرأسمالية من الإمبريالية إلى العولمة، وتفكك الكتلة الاشتراكية مما أعطى رأس المال فرصة الإجهاز

على بقية السوق العالمية. وهذا يفتح على تساؤلات حول مدى تمكُّن القطبيات الصاعدة أي روسيا والصين، ومدى جديتها في مواجهة الغرب الرأسمالي، وحدود تلاقي مصالح الطرفين، وأين يمكن أن يتخاصما... الخ، مما يقود بلا موارية إلى وجوب أن تعتمد كل أمة على نفسها أولاً دون أن تركن كثيراً لأي دعم خارجي في عالم رأس المال حيث التحالفات بينما محور الثورة المضادة هو أكثر انسجاماً بضغط مصالحه وتوازن علاقاته التي مضى عليها الزمن الكافي للتبلور.

إن الحري بالانسجام الداخلي والتماسك هي الأمم والشعوب التي تتعرض للاستغلال والتفتيت وحتى للاحتلال المباشر أو بالإنابة من قبل الثورة المضادة لأنها تقاتل أو تقاوم من أجل البقاء ودفاعاً عن حقوق جلية.

إن ما يبعث الأمل بإمكانية لجم الثورة المضادة وأدواتها من طراز الموجة القومية الثالثة هو الصعود السريع للعولمة ووصولها سريعاً أيضاً إلى مأزقها ولا سيما الانهيار الاقتصادي المالي منذ عام ٢٠٠٨ والذي لم يتم تجاوزه بعد.

ويكون السؤال: هل حقبة العولمة هي الأخيرة للرأسمالية؟ أم أن العمل أو الثورة ليسا مهيئين بعد! وخاصة على ضوء ضعف القوى التقدمية في المركز، وانتهازية ما يسمى المجتمع المدني في تواطئه مع استغلال رأس المال للمحيط سواء بالتبادل اللامتكافىء أو حتى شن حروب استعمارية عسكرية مباشرة أو بالإنابة ضد المحيط الذي فعلت فيه حقبة العولمة عبر أداتها الموجة القومية الثالثة فعلها حيث حلت الطائفية والمذهب بقيادة قوى الدين السياسي محل الطبقة والهويات المتصاغرة محل الهويات الكبرى ومحل السرديات الكبرى. أي حلول من يستدعي الاستعمار محل من يجب أن يقاومه.

انتهى عصر الأحكام القطعية وتحويل التنبؤ العلمي إلى تأكيدات ستأخذ مجراها على الأرض. ولكن بالمقابل، فإن القيمة في مواصلة المقاومة المعولمة، وهي السيرورة التي تتحول إلى حدث وطوبى لمن يكن جاهزاً لالتقاط مفاتيح الحدث والمرحلة التي يأخذ مجراه فيها، وحينها يكون التحول والتغيير تاريخياً إلى الأمام.

استخلاص مقارن:

الحدث في الأرض صنع بشري يأتي في أغلب حالاته صدفة وفجأة ودون إنذار. أمّا ما ليس فجأة فهو تفاعل الإنسان معه سواء الجماهير عموماً هذه الطبقة أو تلك أو هذا الحزب أو ذاك، هذا المفكر أو غيره. لذا، ما وصل إليه الفكر البشري ليس سوى قراءة للواقع ومحاولات لاستقراء القادم أو رسم طريق لما هو آت، أو كما يجب أن يكون. هكذا يجب أن نقرأ أطروحات مفكري الثورات وقادتها مثلاً، ماركس في الشيوعية، ولينين في الثورة الاشتراكية، وستالين في تثبيت الدولة السوفييتية وماوتسي تونغ في ثورة الاشتراكية ذات الدور الكبير للفلاحين والمضمون القومي التحرري، وفرانز فانون في العنف الثوري، وسمير أمين في فك الارتباط، وكاسترو في اشتراكية الدولة الواحدة في فك الوحش وتشي جيفارا في أممية المقاتل والجزائر في إذلال دولة عظمى واقتلاع كيان استيطاني والقافلة تطول.

من هنا وجوب وفائدة الإضاءة على تجارب الثورات في العالم بمعزل عن مآلاتها المباشرة أو غير المباشرة وخاصة على ضوء الشبه بين بدايات القرنين العشرين والحادي والعشرين حيث أُفتتحا بصعود قوى اشتراكية، بغض النظر عن انتصارها في الأول وانتهائها بهزيمة بعد سبعة عقود وتراجعها في الثاني حيث لا ندري مآلات التراجع الجاري حالياً، لأن العبرة هي أن البشرية لن تتوقف عن النضال من أجل الاشتراكية مهما كانت الظروف مجافيةً. هذا ما كان وراء قراءة الأحداث في هذا الكتاب وهي ليست سوى نماذج مما حدث في هذا العالم.

مع نهاية هذا الكتاب، نحاول تكثيف الدروس المستفادة من العرض الموزع بين تجربة وأخرى، حيث تعرضنا له والإشارة إلى تقاطعات مختلف أو بعض التجارب التي عولجت في متن الكتاب.

ربما مظلومية الثورة الثقافية مقارنة مع كميونة باريس والثورة الطلابية ١٩٦٨ والانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ أنها وحدها التي لم يتوقف الخلاف حولها حيث الانقسام

تجاهها شديد الحِدَّة، فريق ضدها بالمطلق وفريق مُفعم بحبها بينما الأحداث الثلاثة الأخرى كان الجدل تجاهها أقل بين من هو معها ومن هو ضدها.

كانت كميونة باريس أول حرب غوار المدن قامت بها البروليتاريا ضد دولتين عظميين تحالفت ضدها برجوازيتيهما رغم كونهما في حالة حرب. ولكن إذا لم يكن هناك ما يوجب تحالف البرجوازيتين الألمانية والفرنسية رغم حربهما فإن أحد شعارات الكميونة توجب على البرجوازيتين التحالف حيث يقول بيانها الأول: "يجب إغلاق باب الحروب والغزو". كيف لا، والكميونة حين ثارت كانت ثورتها متزامة مع التوسع والغزو الاستعماري ودخول الرأسمالية مرحلة الإمبريالية.

مشكلة المثقف:

رغم الاندغام الخطير بين الإعلام والثقافة بل احتلال الإعلام مساحات واسعة من الثقافة واحتوائه أعداداً كبيرة من المثقفين، تبقى للمثقف الثوري المشتبك مساحة للفعل، مساحة للمقاومة والثورة. ذلك لأن المثقف المشتبك هو حالة حضور وليس مجرد حالة وجود، لا يكتفي بمقولة ديكارت "أنا أفكر، إذن أنا موجود". فالحضور هو الفعل المشتبك. والحضور هو حالة انتقال المثقف من فرادته، كما يتوهم بعض المثقفين، بل فرديته إلى توسطه بين الذات والمجموع وصولاً إلى انخراط الذات في المجموع أي من ذاتوية الفرد إلى مجموعية الأفراد، الناس، الطبقة. في هذا المناخ تتحقق الذاتية العليا ليكون الفرد زهرة بين مائة زهرة متفتحة.

ربما هي اليوم ظاهرة معولمة تتمظهر في لوم المثقف، والتساؤل: أين المثقفين، أين دورهم؟ ما موقفهم؟. والسؤال عن المثقف أو مسائلته مسألة مزدوجة:

- هي إما حرص على الوعي الجمعي واستغاثة ولو نقدية بالمثقف.
- أو طعناً في الثقافة عموماً وإخضاع الثقافة لأجهزة الإعلام التي تسيطر عليها الرجعية والبرجوازية المعولمة.

لكن في الحالتين هناك تحميل المثقف ما ليس ذنبه. فالمثقف ليس صاحب القرار السياسي. وحتى المثقف العضوي للسلطة الطبقية الحاكمة ليس صاحب القرار، وإن كان خادماً لها. هو مُستخدَم وليس مُستخدِماً. وهذا لا يعفيه من خطيئته قط، ولكن إلقاء اللوم عليه هو إعفاء للسياسي من تسلطه وانحرافه وحتى خيانته وفي التحليل الأخير تنظيف/ تلميع السياسي وبقاء الوضع القائم.

قادت سيطرة الإعلام واستخدام مثقفي الأنظمة والمصلحة والارتزاق إلى التغطية على القمع والطمس الذي يتعرض له المثقف المشتبك، ونقصد به الوطني الثوري النقدي والشيوعي/ العروبي أولاً والأممي أخيراً. هذه الفئة تحديداً هي التي تتم التغطية على طرحها وبشكل مقصود من أجهزة الإعلام بتنوعاتها.

وفي هذا السياق أصبح دور وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة المثقفين للتعبير عن آرائهم، ولكن في الوقت نفسه ضد الثورة لأنها تُشغل الجميع في علنية عنكبوتية لا تُثمر فعلاً أو تعيق التثمير ثورياً بمعنى أن الثورة تحتاج بل تشترط العمل السري وليس تقديم الشخص طواعية كل ما يود أن يعمله بعلنية لا حدود لها. وفي النهاية تعتمد حدود العلنية سلباً أو إيجاباً طبقاً لظروف كل بلد.

وعليه، يكون الأمر، من الذي يستخدم/ يمتطي الآخر، المثقف، وكل إنسان بدرجة أو أخرى، في مجال أو أخر، مثقفاً أم وسيلة التواصل الاجتماعي التي تقودها لا شك أجهزة مخابراتية معولمة ومضادة للثورة.

عَوْدٌ إلى مثقفي البحث هذا، للإضاءة على الفئة منهم المضادة للثورة كما ورد في الكتاب نفسه. فليس الكتاب في المثقفين والثقافة عموماً. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن ما حصل من تطور وربما احتلال تكنولوجي للإعلام لا ينطبق على الفترات الزمنية لموضوعات الكتاب لكنه لا ينفي أهمية قراءة دور المثقف كلٌ في زمانه.

في تجربة كميونة باريس دعم المثقفون غير المناضلين بشكل عام قصر فرساي، وأغلبهم عمل علامات فارقة كما يقول باديو (ص١٣٢ من باديو هايبوثيسس – أي

الفرضية الشيوعية) **BADIOU HYPOTHESIS VERSO, 2015** – وستكون كل إشارة برقم صفحة في هذا الفصل مقصود بها نفس هذا الكتاب). وهذا يؤكد، قبل فترة أطروحة غرامشي عن المثقف العضوي، أن كل مثقف هو مثقف عضوي لطبقة أي سلطة طبقية ما. وربما لأن البرجوازية لديها السلطة والمال وفرص التعليم وإعادة التثقيف، كانت مُبكِّرة في تجنيد مثقفيها العضويين قبل الطبقة العاملة. ومن هنا كانوا، كما يبدو، جاهزين للقتال الفكري لصالحها. وهذا لا يعني غياب مثقفي الطبقة العاملة. لكن المهم هو التخندق المباشر لمثقف البرجوازية في خدمتها.

بين كميونة باريس والثورة الثقافية في الصين ١٩٦٥ مائة عام من الزمان حفلت بتطورات كبيرة بمن فيها التطور الثقافي والفكري النظري. وهو قرن الصراع الأشد بين الثورة والثورة المضادة سواء صراع الأفكار والنظريات والتخندق والقوى. وكانت الغلبة فيه لرأس المال على العمل على صعيد عالمي. لكن هذا الانتصار لرأس المال لا ينفي حقيقتين أساسيتين:

الأولى: أنه القرن الأول في التاريخ الذي جرى فيه التضاد والصراع بين الاشتراكية والرأسمالية، بين الفكر والأنظمة السياسية والاستراتيجيات لكليهما، بين الاشتراكية الوليدة ورأسمالية بدأت قبل عدة قرون بل بين اشتراكية تلغي الملكية الخاصة التي يعود تاريخ سيطرتها إلى عدة ألفيات.

والثانية: أن هزيمة العمل لا تعني نهاية الصراع، بل تكرر وسيتكرر الاشتباك.

هزيمة العمل هي الغلبة التي كشفت عن تخندق طرائقيو رأس المال في قيادة الحزب الشيوعي الصيني. ومن الطرافة بمكان أن ما قاله ماو تسي تونغ أن هذا التخندق كان أعمق في الاتحاد السوفييتي حينها، لكن لم يقم أحد هناك من قيادات الحزب/ الدولة بكشف أو تحدي ذلك.

ما أن هُزمت الثورة الثقافية ورحل ماو تسي تونغ الذي كان دوره قد رحل قبل رحيل جسده كما يبدو من تحليل باديو منذ عام ١٩٦٧–١٩٦٨ وبقي ظله، حتى

فُتح الطريق لرقص الشياطين وأقصد خاصة هنا في الإعلام والثقافة. بوسع القارىء العودة لما ورد عن الثورة الثقافية وكيف وقف الإعلام الرسمي الصيني مع العدوان الأمريكي ضد العراق وكيف تم الترويج للكيان الصهيوني، والأمر نفسه فيما يخص مثقفين. مُدهش هذا الانحطاط لصالح بلدين يشكلان المثال الأشد قبحاً للثورة المضادة. فليس هناك من إنسان ذي موقف ووعي إنساني يمكن أن يدافع، فما بالك يَروِّج للولايات المتحدة والكيان الصهيوني.

في تجربة ثورة أيار ١٩٦٨ تكرر دور المثقف العضوي لرأس المال، ومثقف الطابور السادس بشكل أكثر وضوحاً من الثورة الثقافية من حيث صراع الأجنحة في الحزب الشيوعي الصيني، ولكن بشكل مشابه لما كتبه مثقفون بعد رحيل ماو تسي تونغ. لقد تشابه السقوط والاستخذاء في الحالتين بل تشابهت الردة والندم وصولاً إلى الخيانة.

"لقد أيقظت حكومة ميتران مختلف الأرواح الشريرة في اليسار وأساساً بإفساد جزء من أو شقفة من البرجوازية الصغيرة بدعوتها إلى التقرب من السلطة، (حتى دولوز قبل دعوة على العشاء مع الرئيس) ومنح رصيداً "لمؤسساتها" التي كانت تتوق إليها. "السياسة الثقافوية" كانت الاسم الجيد لهذا النظام من الأوهام، كما يقول باديو ص١٢.

لا يختلف موقف دولوز في الانطواء تحت جناح السلطة البرجوازية الفرنسية عن موقف أدورنو الذي حينما بدأ تمرد الطلبة تحول إلى مخبر للشرطة! لم يتخيل أدورنو أنه كان بما كتب يُفجر نبعاً فارتعب حين تفجر ذلك النبع.

أما كوهين بنديت: فقال بعد الهزيمة وبعد أن احتوته ماكينة الاتحاد الأوروبي كمؤسسة طبقية برجوازية حاولت خلق "أممية رأس المال" "إنس أيار ١٩٦٨، فقد أصبح الآن سياسياً عادياً. إننا نعيش في عالم مختلف، تغيرت الحالة تماماً، وبوسعنا تذكر السنوات الجيدة من حياتنا بشعور داخلي واضح. ما من شيء حدث حينها له أي فعل حقيقي علينا. نوستالجيا وفولكلور... إننا نتذكر ١٩٦٨ لأن البطل الحقيقي لـ ١٩٦٨ هو أنها كسرت قيود الرأسمالية النيوليبرالية". ص٣٣ من باديو.

جميل، ولكن بنديت عاد وقيد نفسه بتلك القيود.

ولكي نحتفل بـ ١٩٦٨ كما يدعونا أندريه جلوكسمان بـأن نحتفـل بالنيوليبراليـة الغربية بأن الجيش الأمريكي يدافع بشجاعة عن البرابرة. ص٣٤ من باديو.

Daniel Singer, *WHOSE MILLENNIUM? THEIRS OR OURS*. MR 1999.

ما قاله جلوكسمان عن الجيش الأمريكي، كرره بنفس الكلمات تحديداً مثقفـون صينيون أثناء العدوان الأمريكي ضد العراق. إن الهبوط إلى هذا المستوى الذليل لصـالح الإمبريالية لربما تعفف عنه قادة أو حكام من الأنظمة العربية التابعة للمركز الرأسمـالي! حقاً، فطالما كل شيء نسبي وكل شيء متحول، فإن السـقوط لا قـاع لـه والتحـول سـلباً يشتمل على ابتكارات سلبية بلا حدود لها ولا قاعٍ.

لم يكن مختلفاً حال مثقفين من الاتحاد السوفييتي خلال وبعد تفككه كما تفكـك بقية أنظمة الاشتراكية المحققة في أوروبا الشرقية ومثقفين وأحزاباً شـيوعية في العديـد مـن بلدان العالم حيث هرول الكثير منهم إلى مواقع وقوى وأنظمة الـدين السياسـي فـتغيرت أسماء الأحزاب وتغيرت تنظيرات المثقفين. وهؤلاء في حقيقة الأمر مهـدوا كـثيراً لمقولـة فوكوياما التي تورط بها عن نهاية التاريخ.

لكن خطورة هذه الارتدادات تجسيداً عملياً ميدانياً على الأرض بل علـى الـدم كانت في الوطن العربي. فمـن جهـة، قـادت هزيمـة حزيـران ١٩٦٧ إلى خـروج معظـم الأنظمة العربية من الحرب مع الكيان الصهيوني بمعنى النضال لتحرير فلسطين، وأصبح الشعار هو إزالة آثار عدوان ١٩٦٧. لكن الأخطر من هذا كان تماهي أحـزاب مـع هـذا التوجه إضافة إلى استخذاء معظم القوى القوميـة والشـيوعية متراجعـة عـن أطروحاتهـا الثورية سواء بـ:

- تخفيض سقفها النضالي.
- أو تحولها إلى ماكينات للهجوم على الأنظمة الجمهورية التي وإن كانـت قـد خفَّضت سقفها إلى إزالة آثار العدوان فـإن بعضـها بقـي رافضـاً الاعـتراف بالكيان الصهيوني والتطبيع معه.

- أو الصمت والخروج من الميدان.

وهي بهذا فتحت الطريق لأنظمة وقوى الدين السياسي التي اشتغلت ماكينتها بوقودين معاً:

- الوقود الثقافي السلفي والتكفيري والمرتبط بالهجمة الثقافية الأمريكية خاصة
- والوقود المالي وخاصة إثر طفرة أسعار النفط سواء ١٩٧٣ ولاحقاً في الثمانينات.

كان تتويج هذا التراجع الرهيب في هجوم الثورة المضادة تحت شعار ما يسمى "الربيع العربي" وانضواء الكثير من المثقفين الناصريين والشيوعيين واليساريين في صفوف الثورة المضادة هذه[١].

ولا شك كان لمثقفين فلسطينيين نصيبهم الكبير في هذه الردَّة، بل شكلوا حالة ابتكار سلبي فارق. تجلى ذلك في مستويين أساسيين:

الأول: تحول المثقفون هؤلاء من التنظير للكفاح المسلَّح وغابة البنادق وتحرير كل شبر من فلسطين والتنظير بأن "من يخرج "على قيادة م.ت.ف أو ما تسمى "الشرعية، يخرج عن الإنسانية" كما زعم محمود درويش، والتغني بانتفاضة ١٩٨٧ إلى مبرِّرين لاتفاقات أوسلو التي اعترفت بموجبها م.ت.ف بأن المحتل عام ١٩٤٨ هي أرض للكيان الصهيوني وبالتالي تحول هؤلاء المثقفون كما تحولت ورغبت قيادة م.ت.ف إلى الزعم بانتهاء مرحلة التحرير والانتقال إلى الاستدوال! فبعد مؤتمر مدريد ١٩٩١ وهزيمة العراق وإخراجه من الكويت لإعادة احتلالها بجيوش الولايات المتحدة والغرب وبعض العرب، انخرط هؤلاء في لقاءات ومؤتمرات تطبيعية مع مثقفين صهاينة، منها مؤتمر غرناطة الذي حضره شمعون بيرس مع ملك إسبانيا وحضره من الفلسطينيين عزمي

(١) نذكر على سبيل المثال لا الحصر، برهان غليون، صادق جلال العظم، سلامه كيلة، عزمي بشارة، فواز طرابلسي، العفيف الأخضر، حسن عبد العظيم، حمدين صباحي... الخ.

بشارة ومن سوريا أدونيس وغيرهما طبعاً. وما أن تم توقيع اتفاقات أوسلو حتى تحول هؤلاء المثقفين إلى دُعاة للتطبيع والاعتراف بالكيان والتوقف عن مقاطعة الكيان الصهيوني وإنهاء الانتفاضة وبدأ الحديث عن ما يسمى سلام الشجعان... الخ[1].

الحزب:

لا يقل الجدل حول دور الحزب أو الحركة السياسية في التجارب التي تعرض لها الكتاب عن الجدل حول دور المثقف. بل إن النقد على دور الحزب هو أعلى مشروعية من النقد ضد المثقفين سواء فرادى أو كفئة نظراً لما يُفترض أن يمثله الحزب وماذا يهدف وما يقوم به سلباً أو إيجاباً، تقدمياً أم لصالح الثورة المضادة. فمهام الحزب وواجباته أكبر من مهام الأفراد وحتى الفئات، لأن الحزب هو بالضرورة ممثل طبقة وأحياناً تحالف طبقات وفئات. هو حامل مشروع اجتماعي اقتصادي سياسي... الخ.

عانت تجربة الكميونة من عدم تبلور قوى الكميونة في أحزاب بالمعنى اللينيني مثلاً، حيث شكل غياب هذا النمط الحزبي نقطة ضعف في بنيتها. كانت القوى الأبرز فيها هي البلانكية والأنارخية، وهما قوتان ثوريتان ولكنهما لا تشكلان النموذج الأنسب للثورة بمعنى كل من التكتيك المناسب والانتظام الميداني حيث لم تكن ولم تعد تكفي البؤرة الانقلابية ولا الاندفاعة الميدانية الحماسية والجرأة.

يختلف الأمر في الثورة الثقافية حيث لم تكن المشكلة في غياب الحزب الناضج أو المكتمل إن صح التعبير، بل في الوجود الثقيل للحزب، في كون الحزب قد أصبح سلطة، اندغم في السلطة/ الدولة أو اندغمت فيه، فأصبح كما استنتج ماو تسي تونغ معيقاً للثورة بدل أن كان قائداً لها في فترة التحرير وسِنِيْن الاستقلال الأولى. وعليه،

(١) انظر عادل سمارة، مثقفون في خدمة الآخر، منشورات مركز المشرق/ العامل للدراسات الثقافية والتنموية، رام الله، ٢٠٠٣. وعادل سمارة ظلال يهو-صهيو تروتسكية في المحافظية الجديدة. منشورات مركز المشرق/ العامل للدراسات الثقافية والتنموية، رام الله، ٢٠١٥.

صار لا بد من الثورة على الحزب أو تثوير الحزب بدل أن كان الأمر في الكميونة هو البحث عن الحزب المتبلور ليقود التجربة.

في ثورة ١٩٦٨ كان الأمر مزيجاً بين جوانب الفشل أو التقصير في كل من الكميونة والثورة الثقافية. كان الحزب بل الأحزاب موجودة. لكنها لم تكن أحزاب الثورة، بل كان موقفها ضد الثورة كما فعل الحزب الشيوعي، بل والكثير من المثقفين ايضاً. وإذا افترضنا أن الحزب الشيوعي كان لينيني البنية والتكتيك، وهو عملياً لم يكن حينها، فإن قوى ثورة ١٩٦٨ كانت رافضة للحزبية هذه ربما بناء على أو ردِة فعل على تجربة التغوُّل البيروقراطي في تجارب الأحزاب الشيوعية عامة والتي في السلطة خاصة.

وحيث بقي الحزب الشيوعي الصيني في السلطة بل احتكرها بتلاؤمه مع التوجه التحريفي الوسطي لقيادته بعد هزيمة الخط الماوي. أما الحزب الشيوعي السوفييتي فتحول إثر تفكك الاتحاد السوفييتي إلى الحزب الشيوعي لروسيا وصار نضاله من أجل الإمساك بالسلطة في روسيا الرأسمالية عبر الطريق البرلماني في هذه المرحلة على الأقل.

رفضت ثورة ١٩٦٨ الطريق اللينيني في الحزبية، لكنها عجزت عن بلورة حزبها أو أحزابها الخاصة أو الملائمة للضرورة التي أفرزتها الثورة نفسها كحدث. وقد تكون مساهمتها في وضع المسألة الحزبية قيد نقاش أوسع كمسألة بحد ذاتها. ولكن مثلبتها كانت في عودة السيطرة البرلمانية للواجهة وتحول الصراع على البرلمان نفسه، مما أعاد الأحزاب اليمينية والتحريفية إلى الواجهة مجدداً.

الحزب والدولة/ نقاش ألان باديو:

لقد ناقش باديو مطولاً إشكالية الحزب/ الدولة نقاشاً نود التوسع فيه هنا.

"وصل ماو إلى عدم إمكانية تطوير إبداع سياسي في ظل الحزب – دولة، وجادل بأن اختلاف المواقف لا يحل بالعنف ولا بالشكلية الرسمية البيروقراطية ولكن بالتحرك السياسي الشعبي الجماعي". أي اختيار طريق الشعب كما كان يؤكد دائماً.

في نقده للنموذج اللينيني للحزب جادل باديو:

"... إن الشيء الثالث اللافت أنها (أي ثورة أيار ١٩٦٨ – ع.س) لم تأخذ بالحسبان الشيء الذي يبرهن بأنه مفتاح مختلف الأمور. إن الحدِّية الصرامة اللينينية المتقادمة تتركز حول سؤال الحزب، حيث يواصل استثناء أو إلحاق السياسة بالانحراف الدولاني. لعله واضح بأن مسألة المنظمة، وهي الشيء الوحيد الذي بوسعه جمع كل من السياسة والوحدة العملية بين المجموعات المختلفة المتناقضة، كان في الحقيقة درساً هاماً لأيار ١٩٦٨. لم تحل الحركة نفسها أياً من المشاكل التي يمكن أن تبرز بالمعنى التاريخي. ولكنني في المساق كنت كتبت حينه، بأن **SYNTAGM** الحزب الماركسي–اللينيني بوسعه أن يعمل كمفتاح لكل شيء".

لكن هذا فهم أو انطباع باديو عن الحزب اللينيني أكثر مما هو فهم لينين للحزب، بمعنى أن باديو ارتكز على التطبيقات الفاشلة أو المنحرفة عن الفهم اللينيني للحزب. فالحزب ليس شرطاً أن يراه لينين إكسير حياة كل شيء، بمعنى أن النظرية حين يتم تطبيقها تخرج أو يتم إخراجها بدرجات متفاوتة عن أسسها النظرية، إما بناء على الظروف، أو بناء على خلل في التطبيق كيف رآه من يقومون بذلك. لم يكن الفهم اللينيني للحزب أن يعمل بعيداً أو نيابة عن الجماهير أو كقيادة عليا لها. كما أن الفهم اللينيني لا يعني أن لا تكون للثورة قيادة سواء في التكتيك اليومي خلال الحدث أو على المدى المتوسط وحتى الاستراتيجي.

يتابع باديو: "... ولكن بعد كتابتها بوقت قصير، كتب بعض الأصدقاء وأنا نفسي، كما حصل، في كراس بعنوان "نحو حزب ماركسي – لينيني من طراز جديد" ... صيغة أو أساس لنوع جديد هي إشارة واضحة بأن لدينا بعض الشكوك. وفي الحقيقة فإنه نوع الحزب الذي يجب تجاوزه إهماله: إنها المرحلة الستالينية التي ليس بوسعها التعاطي مع نفس المشاكل التي برزت من استخدامها الانتصاروي في روسيا ١٩١٧، وفي الصين ١٩٤٩. وفي الثورة الثقافية، التي دُكرت فيما مضى في نص يركز على مشاكل الحركة الطلابية ويُظهر محدوديته النهائية".

هنا يقع باديو ورفاقه في إشكاليتين:

الأولى: عدم التخلص مما حاولوا رفضه أي الحزب اللينيني.

والثانية: اعتماد الشماعة التي عُلِّقت عليها كافة أخطاء الأحزاب الشيوعية أي ما تُسمى "الستالينية" وهي تسمية اتحدت في نحتها الإمبريالية والتروتسكية وذلك من أجل تلافي توجيه النقد ضد لينين من جهة، والمهم أن في هذا الاستخدام لستالين تجاوز عن أخطاء الأحزاب الشيوعية عامة بنَسْب أخطائها إلى "ستالين" رغم أنها كانت في مواقعها قادرة على فرض استقلاليتها لو أرادت. لعل مثال كوبا هام جداً في هذا السياق عبر تميزها عن الاتحاد السوفييتي وإن بعد ستالين.

لا شيء ثابت بالطبع، وتجاوز الصيغة الحزبية اللينينية أمر طبيعي في ظرف ما وبناء على تطور المجتمع البشري وعبوره مراحل جديدة من حيث البنى الطبقية ودور العلوم وخاصة تكنولوجيا الاتصال والتواصل وانتشار الثقافة وتوفرها للناس ربما كافة، ولكن تجاوز هذه الصيغة لا يبرر عدم القدرة على حسم أو ابتكار صيغة أخرى أفضل وأنسب لمرحلة ما.

في توقف باديو عند تجاوز أو إهمال الصيغة اللينينية وعدم ابتكار بديل ثوري، يتقاطع مع التفكيك الديريدي/ ديريدا، بمعنى التفكيك ومن ثم الفشل في إعادة البناء أو التركيب لخلق بنية أكثر تطوراً وملائمة لمتطلبات الحالة المعطاة أو العصر عموماً.

يواصل باديو:

"... ورغم أن العمال والمثقفين الشباب قد ثاروا ضد الحزب، فقد فشلت ثورتهم في تغيير الحزب نفسه، مع أنهم، حينما سُئلوا أين تكمن البرجوازية في الصين الاشتراكية، كان قد أجاب ماو: "حقاً داخل الحزب الشيوعي نفسه" ... تجدر إعادة قراءة الحركة العظيمة لـ أيار ١٩٦٨ على ضوء الاستنتاج الواضح: بأن "حزب الطبقة" كان في فترة ما أساساً أو صيغة عظيمة والتي هي نفسها قد أُستهلكت. إن السؤال بصدد أو عن الأشكال التي سيتخذها النظام السياسي التحرري هو السؤال المركزي للشيوعية المقبلة" (ص ص٥٢-٥٤).

لكن باديو بعد ارتكازه على اكتشاف ماو لخلل الحزب بنيوياً، ولرفض حركة ١٩٦٨ لحزب الطبقة بمعنى أن صيغته قد أُستهلكت، لكنه توقف عند التساؤل عن الصيغة التي تشترطها أو تقبل بها الشيوعية المقبلة. هذا وكأنه يكتفي بالقول للشيوعية المقبلة: ها نحن نقدم لكم جنازة الشكل القديم المستهْلَك للحزب مُسجَّاة أمامكم فاحذروا تبنيها. وبالطبع، لا نقصد هنا التقليل من التقاط باديو لرؤية كل من ماو وحركة أيار ١٩٦٨، ولكن كان لا بد من الإشارة إلى أن باديو توقف عند حالة من الاستعصاء! مهما حاول لاحقاً.

ما يلي يبين كيف يراوح باديو في البرزخ نفسه بين ما توصل إليه ماو تسي تونغ وما كشفته حركة أيار ١٩٦٨، وبقيت متجمدة عنده:

ماو تسي تونغ:

"... إن الشعب، والشعب فقط، هو القوة الفاعلة في صنع تاريخ العالم، بينما نحن أنفسنا في الغالب صبية وجهلة. فإنه بدون إرهاب نظري، لا يمكن أن تكون هناك ثورة. ولكن غياب حزب ماركسي – لينيني حقيقي هو الذي منع دائماً البروليتاريا من أن تصبح قيادة أيديولوجية وسياسية للصراع. (ص ٦٤)، إن انتصار "الطلاب" والاحتلال الذي وضعهم وجهاً لوجه، على أية حال، في مواجهة مشاكل صعبة الحل: مشاكل من نمط كيف يتم تنظيم الحركة، ببنيتها الأيديولوجية، وأهدافها الاستراتيجية. ص٦٥".

يلتقي باديو مع ماو في ارتكازه على دور الشعب والإرهاب النظري، ولكن يختلف معه في تمسك ماو بالحزب الماركسي – اللينيني. لكن باديو يكتشف أو يلتقط بأن حركة أيار ١٩٦٨ وجدت كنزاً لكنها لم تتقن استثماره!

للإنصاف، لم يتورط باديو في الانبهار بحركة أيار ١٩٦٨ حيث ينتقدها بدقة:

"...إن تمزقهم تشتتهم بين الإصلاحية القضائية التي تفبرك أشكالاً غير متوقعة من الاستقلال الذاتي، بدون أي فهم حقيقي لميزان القوى، وبين بلانكية انقلابية مقنَّعة

كمقاتلي حرب الأرياف، فإننا نتصور بأن تلك الأعمال المثيرة للشفقة لمجموعات من الشباب يعتمرون الخُوذ ومسلحين بالعصي يمكنهم أن يُسقطوا الجهاز الضخم للدولة. ص٦٦.

هنا يستبطن باديو في نقده لحركة أيار ١٩٦٨ النقد الموجه لكميونة باريس نفسها سواء بطبيعة القوى التي قامت بها، أو حتى العجز عن مواجهة جهاز الدولة الضخم، بل في حالة الكميونة جهازَيْ دولتين فرنسا وألمانيا معاً. هذا مع أن مناضلي الكميونة كانوا مسلحين بأسلحة صحيح أنها أضعف من تسليح جيش الدولة البرجوازية، ولكنهم مسلحين بالنار، بينما يقدم باديو صورة كاريكاتورية لشباب ١٩٦٨ الذين حاولوا تجربة حرب الغوار بأسلحة أضعف بكثير من الأسلحة البسيطة المعتادة في حرب الأرياف، أي بالعصِيْ.

لا شك أن جرأتهم هي ظاهرة جيدة بالتأكيد، ولكنها لم تكن مؤهلة حتى لاستمرار متوسط المدى. لكن المفارقة الفارقة في هذه التجربة أن بعضاً من "مفكريها" تحولوا ليس إلى مؤيدين للنيوليبرالية بل عملاء للإمبريالية والصهيونية وتورطوا في خدمة كافة جرائم الثورة المضادة، وخاصة من بينهم برنارد هنري ليفي!

إلى أن يقول مؤكداً ما استنتجه:

"... ما تبقى للقول بأن العاصفة الثورية كانت في الحقيقة ريحاً دائرية القوة مربكة جداً تدور حول النقطة الفارغة، أي الغياب المركزي وهو الافتقار إلى المنظمة الشيوعية" ص٦٧.

مكرراً وجوب السؤال وكذلك عدم التوصل إلى الإجابة عليه وخاصة من الثورة الثقافية:

"... إنها تشتمل على القطع الأكثر جذرية مع المؤسسات التقليدية وسوف تمنح فرصة الصعود لمؤسسة تحتوي على التطور الحر من الفرد وحتى الجميع". وبالأحرى، فإن المشكلة الحقيقية، والتي هي معقدة، يمكن أن تكون معرفة فيما إذا كانت الثورة

الثقافية قد وضعت بالفعل نهاية للمفهوم الثوري للتمفصل بين السياسة والدولة. وفي الحقيقة، هذا هو السؤال العظيم، إنه الجدل المركزي والحاد.

ماو: "كانت فكرته بالتأكيد أن لا يتم التجميع عبر القوة والعنف بهدف إنجاز التراكم بأية كلفة في المدن. في الواقع، لقد كان الأمر بالعكس فإنه كي يتم تصنيع الريف محلياً، لا بد من إعطائه استقلالاً اقتصادياً نسبياً، تجنباً للبرتلة العنيفة الوحشية التي حصلت للمدينة والتي ترتب عليها شكلاً كارثياً في الاتحاد السوفييتي" (ص٨).

في النصوص التالية يقترب باديو من تصميم نموذج جديد مرتكزاً على ابتكارات الكميونة والثورة الثقافية:

"... في فضاء الحزب – الدولة، مع أن هناك فقط شكلانية أو إرهاباً. كان على ماو وجماعته أن تخترع مجرى ثالثاً آخر، هو مجرى حراك سياسي جماعي، بهدف القطع مع اتجاه ممثلي الأكثرية، وبشكل خاص قادَتهم في المستوى الأعلى للحزب والدولة" (ص ٨٦). "... فإن جماعة ماو، وبعد فترة كبيرة من التردد، في الحقيقة سوف تفرض قبول ذلك، وفي البدء فإن الجامعات ومن ثم في المصانع. ولكن، في حركة مناقضة، فإنها سوف تحاول جمع معاً كل منظمات الإبداعات التنظيمية للثورات وللثورة عموماً في الفضاء العام للحزب –دولة" ص٨٦. "... لقد بدأت أشياء جديدة بالظهور في الثورة الثقافية البروليتارية. هي المجموعات الثورية، اللجان، وأشكال أخرى من المنظمات التي خلقت على يد الجماهير في العديد من المدارس والوحدات هي أشكال جديدة على أن لا تعتبر مؤقتة وعابرة، مما يثبت بأن المجموعة الماوية، في آب ١٩٦٦، وضعت نصب أعينها تدمير الاحتكار السياسي للحزب. وعليه، فإن اللجان الثقافية الثورية والمؤتمر يجب أن لا تكون مسألة مؤقتة بل دائمة، أن تكون منظمات جماهيرية دائمة. وفي النهاية، من الواضح التعامل مع منظمات هي خاضعة لديمقراطية جماهيرية، وليست سلطة حزب، كما حصل في كميونة باريس، التي هي حالة بروليتارية سابقة على نظرية الحزب اللينيني: إن من الضروري تأسيس نظام الانتخابات العامة، كما كانت كميونة باريس، لانتخاب أعضاء للمجموعات واللجان الثورية الثقافية. هذه القائمة من المرشحين يجب

أن توضع في المقدمة من قبل الجماهير الثورية بعد نقاش كامل، وأن تتم الانتخابات بعد أن تقوم الجماهير بمناقشة القوائم مرات ومرات".

كان نموذج الكميونة مناسباً كما يبدو في ظرفه الخاص ولأعداد بشرية غير ضخمة، لكن في تجربة الثورة الثقافية في الصين لم يكن الأمر سهلاً بمعنى ضبط إيقاع الصراع بدون حزب أكثر انتظاماً واستثمارا للحدث اليومي ووضع تكتيك اليوم التالي. وهذا في الحقيقة هو جوهر الاستعصاء الذي لم يُحل بعد لا سيما وأن الشكل الأولي الذي مارسته الكميونة، والصيغة التي طرحها ماو واقترب منها باديو لم تكتمل ويتم تجريبها ميدانياً بنجاح ولو نسبي. لعل صراخ أحد القادة الكيانيين في الكميونة خلال الاشتباكات دليل على ضعف بنية القيادة الميدانية أثناء القتال، بقوله: أين الأوامر. وهذا أمر لوجستي، ربما يصبح حله أفضل على ضوء تطور التكنولوجيا في هذه الفترة من الزمن.

إن صرخة القائد الميداني في الكميونة خلال الاشتباك تبين الفارق بين مرونة عملية الانتخاب واستبدال غير الأكفاء في فترة الهدوء، وبين وجوب القدرة على السيطرة على حالة الاشتباك خلال الاشتباك نفسه.

"... وإذا ما أثبت هؤلاء المندوبون بأنهم غير أكفاء، يمكن استبدالهم عبر انتخابات أو استدعائهم من قبل الجماهير بعد النقاش" ص٩٤.

في نقد بيروقراطية ومراتبية الحزب كان باديو محقاً في التالي، في الصين: "... فإن نقد أي شخص بذكر اسمه في الصحافة، يجب أن يقرر بعد مناقشة في اللجنة الحزبية في ذات المستوى، وأن تُرفع إلى مستويات أعلى في بعض الأحيان لإقرارها." ص٩٦.

هذا إلى أن يصل باديو إلى خروج شكلي من الاستعصاء بنقد مُحق للآخرين، ولكن دون تقديم بديل، أي أن الرجل تقدم نصف خطوة:

"... نعرف الآن بأن السياسة التحررية يجب أن تضع حداً لنموذج الحزب، أو الأحزاب، وذلك من أجل تأكيد سياسة "بلا حزب"، وحتى في الوقت نفسه بدون أو كي

لا نتورط في نموذج الأنارخية، التي لم تكن سوى النقد الفارغ، أو الدوبلة أو الظل، للأحزاب الشيوعية تماماً كما هي الراية السوداء التي هي الدوبلة أو الظل للراية الحمراء". (ص١١٧).

"إن شكل – الحزب، مثل ذلك الذي لـ الدولة الاشتراكية، لم يعد مناسباً لتزويد توفير دعم حقيقي للفكرة... ولاحقاً، أشكالاً سياسية جديدة، والتي جميعها هي نظام السياسة بدون حزب – والذي لا يزال – يتم تجريبه" (ص١٩٣).

هنا يعلق باديو في إشكالية الاقتراب دون قصد مما انتهى إليه ميشال فوكو، موت السياسة، فسياسة بلا حزب قد تقود إلى فوضى وانفلاش وهذه من أشكال موت السياسة أو السياسة الذاهبة للموت بيدها! وهي في أحسن الأحوال ستكون شبيهة بالنموذج الحزبي الفضفاض الذي طرحه جيرز والذي بفضفاضيته لا يُثمر.

أين تقع انتفاضة ١٩٨٧ في هذا الجدل؟

لقد بدأت الانتفاضة كحدث بعيداً عن كونها تصميم حزب أو مفكر. وهذا لا يعني أن أحداً لم يكن في ذهنه أو رغبته جذوة مقاومة. حينها كانت في الساحة الفلسطينية فصائل عديدة من اليمين إلى اليسار، أي بعكس الكميونة، كان الحزب موجوداً. وهي أشبه بحالة الصين من حيث أن قيادة م.ت.ف كانت بشكل ما سلطة ولكنها لم تكن ثورية، أي أشبه بالحزب – دولة في الصين. وحين سبقتها الجماهير بالانتفاض انشغلت هذه القيادة في اللحاق بالجماهير ولجمها، الأمر الذي أدى إلى خصي الانتفاضة كي لا تتولد منها قاعدياً حركة سياسية.

لقد قلقت قيادة م.ت.ف في تونس من تبلور بديل ثوري لها في الأرض المحتلة وتمكنت من لوي عنق الانتفاضة والتحكم بها. وتحويل مجرى الحراك الشعبي لصالح نفس القيادة التي كانت قد غادرت بيروت ١٩٨٢ وتكلّست في تونس. كانت نتيجة هذا كله وقف الانتفاضة، والاعتراف بالكيان الصهيوني وتبرير التطبيع مع العدو وكلها تكثّفت في اتفاقات أوسلو ١٩٩٣.

وهكذا، كما بقيت قيادة الحزب – دولة في الصين بعد ماو وذهبت إلى اليمين

رأسمالياً على الأقل، بقيت قيادة م.ت.ف وتحولت إلى سلطة تحت الاحتلال! وإذا كانت ثورة أيار ١٩٦٨ قد عجزت عن توليد الحركة السياسية التي تقودها، أو حِيْلَ دون تحقيقها ذلك، فإن هذا هو تشابهها مع انتفاضة ١٩٨٧. وفي الحالتين عادت البرجوازية الفرنسية لتحكم بشكل متماسك، وعادت القيادة اليمينية الفلسطينية لتحكم وتتحكم بموجب اتفاق مع عدو الشعب الفلسطيني وتخطيط الإمبريالية الأميركية.

كانت الكميونة رداً على البرجوازية وعلى الاحتلال وكانت الانتفاضة ضد الاحتلال وخارجة عن طَوْع برجوازية تكلس دورها سواء في تونس أو في الأرض المحتلة وهي الشريحة البرجوازية الكمبرادورية وشريحة التعاقد من الباطن مع اقتصاد العدو. وكانت الثورة الثقافية ثورة على الحزب. صحيح أنها جميعا هُزمت، ولكنها بالمفهوم التاريخي انتصرت كدروس وإرهاصات ثورية لزمن مُقبل.

تم نفي من تبقى من مناضلي الكميونة إلى الجزائر. ولكن هناك كان الاختبار لمدى ثوريتهم حيث تحولوا إلى ملحق بسياسة السلطة البرجوازية الفرنسية إذ شاركوا في قمع المقاومة الجزائرية. أي تحولوا إلى عنصريين وأداة لعدوهم الطبقي، أو لنقل غلَّبوا الشوفينية القومية الإمبريالية على الأممية التي كما يبدو لم تكن أصيلة فيهم.

أما مقاتلي المقاومة الفلسطينية الذين جرى نفيهم من بيروت إلى تونس عام ١٩٨٢ فيبدو أن تجربة النفي ثبَّطت عزيمتهم، لذا حينما أُعيدوا إلى الأرض المحتلة تحت حراب الاحتلال إثر انتفاضة ١٩٨٧ فقد تحولوا إلى أجهزة قمع وحتى للتنسيق الأمني مع العدو. نلاحظ هنا تشابه المآل!

يقول آلان باديو باختصار، يمكننا القول إنّ الجديد السياسي الذي حملته أحداث أيار (مايو) ١٩٦٨ وتبعاتها في فرنسا تمثلت في «الماوية... وقد اشتملت هذه «الماوية» على ضرورة تخطّي الفصل بين مكوّنات الحالة الثورية المختلفة. ولتحقيق ذلك، توجّب بناء تنظيمات جديدة، من جهة عبر الإفادة من زخم الحراك، ومن جهة أخرى عبر استبطان النشاط السياسي بشكل دائم كحالة فكرية في المناطق الشعبية حيث تتم ممارسة هذا النشاط. لذا، كان من الضروري أن ينتقل المثقفون نحو المصانع والمساكن الشعبية.

كذلك، ووفقاً لأحد أبرز شعارات الثورة الثقافية في الصين، كان على العمّال «الدخول إلى الجامعات»، والقدوم إلى أبواب المدارس للتعريف بعملهم وبتنظيماتهم الجديدة. أمّا الشعارات العامة المتعلقة بالضرورة الأولى (أي «الفعل»، القادر وحده على إضفاء طابع ثوري على الأفكار القديمة)، فكانت **«من حقّنا أن نثور» و«ولادة التنظيم من رحم الصراع الطبقي». أمّا الشعارات المنادية بالضرورة الثانية (أي توفير مساحات منظمة مشتركة بين العمال والشباب المثقف)، فكانت «الخط الجماهيري» و«خدمة الشعب» و«إنشاء مساحات سياسية»**. وكان من الضروري أن يكون الزمن بنفسه جديداً. مقابل العجلة التي اتّسم بها مناصرو «الحراك الصرف» (أي اللاسلطويون بمختلف توجهاتهم)، كان الماويون ينادون بفكرة «الحرب المطوّلة». وفي مقابل واقعية أنصار السياسة البرلمانية التقليدية، الذين رأوا أنه ينبغي الانضواء ضمن الأحزاب القائمة والمشاركة في الانتخابات من أجل العمل بشكل جماعي، كان الماويون يقدّمون حجة مضادة تتمثل في سبر التجارب المحلية، التي يمكن تعميمها بعناية، مستندين هذه المرة إلى شعار ستيفان مالارميه «العمل المضبوط»".

العمال:

كان العمال هم العمود الفقري لكميونة باريس سواء كجمهور أو كمقاتلين. وكان دافعهم وعي طبقي إلى جانب انتماء هوياتي قومي ضد المحتل البروسي/ الألماني.

وبغض النظر عن اطلاعهم على البيان الشيوعي في حينه، كان موقفهم مطابق لجوهر البيان بأن البروليتاريا منتمية قومياً بالمعنى الثوري والحضاري الذي تستثمره باتجاه الاشتراكية على اعتبار أن البلد القومي القوي والمتطور يشتمل على القاعدة المناسبة للدخول/ التحول إلى الاشتراكية. ولا شك بأن الاستغلال الطبقي للعمال في تلك الفترة كان على أشده سواء لظروف العمل أو استخلاص القيمة الزائدة المطلقة وطول يوم العمل... الخ. وبغض النظر إن كان الوعي الطبقي بالمعنى المادي العفوي أو بالمعنى الفكري النظري العميق، إلا أن قتالهم من أجل الكميونة كان ضارياً.

بالمقابل، كان العمال في الثورة الثقافية وثورة ١٩٦٨ الرديف للحراك الطلابي. صحيح أن العمال لم يكونوا المبادرين ولكنهم كانوا القوة المادية التي جعلت من كلتي الثورتين ثورات حقيقية. ولكن في حالة الثورة الثقافية كان طرائقيو رأس المال قد تمكنوا من التحكم بالجيش والحزب وتمكنوا من تحييد نسبي للعمال، ما أدى إلى انتصار طرائقيو رأس المال. أما في ثورة أيار ١٩٦٨ فكان غياب الحزب الثوري عامل حيلولة دون استثمار ثورية العمال مما أدى كذلك لانتصار رأس المال.

بادر العمال في انتفاضة ١٩٨٧ إلى الانسحاب إلى الداخل بعيداً عن أماكن عملهم في اقتصاد الكيان. وتضمنت مقاطعة أماكن العمل مقاطعة المنتجات الصهيونية قدر الإمكان. هذا الانسحاب إلى الداخل اتسع ليشمل معظم المجتمع في المناطق المحتلة حيث شاركت الأكثرية الشعبية في المقاطعة كأحد تجليات الانتفاضة. ولكن النقابات العمالية كما الفصائل الفلسطينية عادت لتمحض ولائها لقيادة م.ت.ف، مما أدى إلى تقويض الانتفاضة وأخذ الشارع الفلسطيني إلى القبول باتفاقات أوسلو التي نصت على اعتراف تلك القيادة بالكيان الصهيوني على الأرض المحتلة عام ١٩٤٨. وكما عاد اليمين في الصين بعد الثورة الثقافية وكما قوي دور اليمين في فرنسا بعد ١٩٦٨ فقد عادت قيادة م.ت.ف اليمينية أيضاً إلى قيادة الأرض المحتلة ١٩٦٧ منهية مقاطعة اقتصاد العدو ومكرسة التطبيع والتنسيق الأمني معه. وعليه، فإن العمال الذين أبدعوا مبادرة الانسحاب إلى الداخل بمقاطعة العمل في اقتصاد الكيان وهو الأمر الذي تضمن الدفع المجتمعي إلى التنمية بالحماية الشعبية من جهة، وإلى عدم تزويد اقتصاد العدو بالقيمة الزائدة المبذولة من وقوع الاستغلال الطبقي عليهم، بقوا ملحقين بالقيادة البرجوازية لـ م.ت.ف التي انتهت بهم إلى اتفاق أوسلو، أي استخذاء البرجوازية والغدر بالانتفاضة.

في حالة ثورة ١٩٦٨ تمكن الحزب الشيوعي من خصي موقف العمال في الثورة عبر قيادته للنقابات، أي ساهم في هزيمة الثورة أو عدم تبلور مشروع محدد لها، وهذا ما اتضحت نتائجه في كسب اليمين للانتخابات التي أعقبت الثورة.

الطلبة والمرأة:

تنفرد كل من الثورة الثقافية وثورة ١٩٦٨ بدور مركزي للطلاب حيث استلهم الطلبة في ثورة ١٩٦٨ دور الطلبة في الثورة الثقافية. لكن هذه المبادرات الطلابية كونها ليست مبادرات طبقة من حيث المبدأ، وليس لها موقعها في التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية وتحديداً في نمط الإنتاج المهيمن، فإن نضالها لم يتبلور في بنية حزبية من جهة ولم يعطها موقعاً على طاولة التسويات السياسية التي نتجت عن الثورتين من جهة ثانية.

في حالة انتفاضة ١٩٨٧ كان أيضاً للحركة الطلابية دور كبير في التأسيس للانتفاضة حيث لعبت هذه الحركة دور محرك المقاومة الشعبية في الأرض المحتلة ١٩٦٧ وبالطبع في الانتفاضة نفسها. ولكن أيلولة نضال الانتفاضة لصالح قيادة م.ت.ف التي استثمرت تلك الانتفاضة لصالح اتفاق أوسلو أدى إلى تفكك الحركة الطلابية كما الحركة العمالية، حيث أصبحتا ملحقتين بالقيادة السياسية لسلطة الحكم الذاتي لتكون مثابة نقابات صفراء من جهة، وموزعة بين الفصائل من جهة ثانية، لتجد كتلة طلابية وكتلة عمالية لكل فصيل فلسطيني على حدة، بينما لا تجد حركة عمالية أو طلابية حقيقية كما كان الحال قبيل اتفاق أوسلو!

لقد حاقت الهزيمة بالمرأة في هذه التجارب، وإن بدرجات متباينة. كانت المرأة في كميونة باريس مقاتلة بشكل طليعي وجريء، لكن هزيمة الكميونة، حاقت بها كما حاقت بالرجال أيضاً، ولم يختلف الأمر في دورها ونتائج ذلك في الثورة الثقافية أي جرَّاء انتصار التيار التحريفي في الصين.

وفي حين شاركت المرأة في ثورة ١٩٦٨ في فرنسا بدور ملموس، إلا أن من مفاعيل هذه الثورة كان انتعاش الحركة النسوية في فرنسا وعلى صعيد عالمي. وهي الحركة التي بقيت في صعود سواء للنساء بشكل عام أو للنساء السود أو نساء العالم الثالث، لكن هذه الحركة فقدت زخمها الثوري لاحقاً مع نهايات القرن العشرين، سواء مع انتصار رأس المال على العمل من جهة أو مع وقوع المركز، ومن ثم العالم في أزمة ٢٠٠٧-٢٠٠٨ الاقتصادية المالية من جهة ثانية.

بدورها اشتركت المرأة الفلسطينية في انتفاضة ١٩٨٧ بشكل كلي، ولم تكن أبداً مقودة أو موجهة من الرجل تماماً كما كانت الانتفاضة نفسها عفوية على صعيد الشعب نفسه وخاصة الطبقات الشعبية. لكن المرأة لم تحصل بعد الانتفاضة وتحت سلطة الحكم الذاتي على ما كان يجب أن يحق لها طبقاً لدورها في الانتفاضة والمقاومة. وقد يكون المؤشر على هذا أو الدليل، اضطرار الكثير من النساء لارتداء الحجاب تعبيراً عن انتشار فكر وثقافة الدين السياسي في الأرض المحتلة. وإذا كانت المرأة قد تراجعت إلى المطبخ في حالة ثورات أخرى، الجزائر مثلاً بعد التحرير، فإن المرأة الفلسطينية قد تراجعت دون تحرير الوطن ووجدت نفسها في مطبخ فارغ من الإنتاج المحلي.

المسألة القومية:

ولعل المسألة القومية من أكثر القضايا خلافاً وجدالاً بين مختلف التيارات الفكرية والنظرية، بل حتى بين القوميين أنفسهم نظراً لتعدد رؤاهم للمسألة القومية سواء من ناحية نظرية مجردة أو بناء على واقع الحال في مرحلة ما وبلد ما. أما بين الماركسيين فتختلف المواقف وتتناقض طبقاً لكل توجه عن الآخر. بعضها يقف من القومية موقف الرفض المطلق والاتهام المعمم بالفاشية وبعضها يرى أنها مرحلة لا بد منها فيتعاطى معها في حدود، وبعضها يرى أن القومية بناء على نص البيان الشيوعي هي المدخل المؤسِّس كي تنتقل البروليتاريا إلى الاشتراكية ببناء بلد قومي قوي ومتطور، والبعض لا يختلف مع الموقف الأخير لكنه يركز على دور القومية التحرري في البلدان الخاضعة للاستعمار أو التابعة بما أن التبعية هي إحدى الأشكال المتجددة والموهة للاستعمار العسكري والجغرافي والاقتصادي والثقافي. بناء على هذا التناقضات يستنتج كثيرون بأن الماركسية، ماركسية ماركس، لم تُنتج نظرية متكاملة في القومية. هذا مع أن البحث عن ماركسية أنجزت تنظيراً متكاملاً في كل شيء هو بحث عن إكسير الحياة أو كما في التراث العربي "جفر الإمام علي". لا يوجد في الماركسية تراث كتاب نهائي يمكنك حفظه ليكون دليلك التام في كل زمن وضمن مختلف التشكيلات الاجتماعية

الاقتصادية، كتاب بوجوده على عقلك أن ينام بدلاً أن تكون الماركسية دليل عمل وحافز تطوير وابتكار تقدم الأسس النظرية الفلسفية المدعومة علمياً، وتحفز على التجديد والإضافات.

للإضاءة على الارتباك في التعاطي مع المسألة القومية نورد هنا موقفين "ماركسيين" مضادين للقومية كل من زاويته. والموقفان في حد ذاتهما يعانيان من خلل كبير يُخرجهما من نطاق الفهم الجدلي التاريخي للماركسية، أحدهما من العالم الثالث والآخر من المركز:

"... تشير سبيفاك إلى أنه من الممكن من خلال تحليلات التكوينات الخطابية حول مجالات بعينها، كما في عمل لاتا ماني عن "الساتي" بيان أن هذه المقولات كافة، سواء أكانت صادرة عن المستعمِر أم المستعمَر، غالباً ما تدور حول المصطلحات التي وضعها المستعمِر( ). ويعني عكس التقابل الذي من هذا النوع البقاء عالقاً داخل المصطلحات نفسها المتنازع عليها. فعلى سبيل المثال تستمد المقاومة القومية فكرة الأمة وتقرير المصير القومي من الثقافة الغربية التي تقاومها. فالنزعة القومية نتاج الإمبريالية، وهي كما تشير سبيفاك غالباً ما لا يكون نجاحها إلا بتغيير الظروف الجيوبوليتيكية من الإمبريالية الإقليمية إلى الكولونيالية الجديدة (في العوالم ٢٤٥) يعني هذا، كما يقول راناجيت جوها في مقدمته لسلسلة "دراسات تابعة"، أنه حتى التواريخ ما بعد الكولونيالية سوف تميل دائماً إلى تجاهل دور المقاومة التابعة ونماذجها التي لا تكون منتظمة طبقاً لهذه المعتقدات السائدة بعينها، لكي تظل ثقافة النزعة القومية النخبوية مشاركة في واقع الأمر مع المستعمِر. وتصف سبيفاك هذا التقييد للمعرفة داخل بروتوكولات النماذج الإرشادية القائمة بأنه من تأثير أشكال بعينها من العقلانية الغربية"[1].

لم يقدم لا يونغ ولا سبيفاك تفسيراً للزعم بأن "النزعة" القومية أو نزعة المقاومة القومية وفكرة الأمة وتقرير المصير القومي مستمدة من الغرب أو نتاج الإمبريالية سواء

(١) روبرت يونغ، أساطير بيضاء، ترجمة أحمد محمود، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٣، ص٣٣٩.

كان مقصدهما بأنها نتاج تابع للإمبريالية أو نتاج نضال ضد الإمبريالية. وفي أي من التفسيرين، فإن هذا التفسير هو نتاج الفكر المركزاني الأوروبي الذي يرى تاريخ أوروبا هو تاريخ بقية العالم. فالقومية هي انتماء جمعي في مرحلة تاريخية معينة، بغض النظر عن دخول مجتمع ما لهذه المرحلة قبل آخر، مع ضرورة التنبه إلى أن للثورة الصناعية دورها الحاسم في التبلور القومي في البلدان التي بدأت رأسمالية استعمارية ومن ثم إمبريالية. وحين تكون القومية حالة نضال ضد الاستعمار فهي ليست من توليد الاستعمار بل هي رد القوة الكامنة، أي المقاوِمة، ضد التحدي. أي هي موجودة بنيوياً وإنسانياً مما يجعل تحديها للمستعمِر أمر طبيعي وليس إيلاجاً إمبريالياً في الأمم المستعمَرة.

لعل الموقف الأشد سلبية أو عداء للقومية هو موقف الحركات التروتسكية والتي تزعم بأنها "الفرقة" الماركسية "الناجية" وحدها!. فقد ورد في نوفمبر ٢٠١٨ في ديباجة مؤتمر "المادية التاريخية" الذي كما يبدو بإشراف هذا الاتجاه ما يلي:

"... لا مناص من صعود اليمين المتطرف، القوميون، الشعبويون والفاشيون على امتداد الكوكب. فمن ترامب أمريكا إلى سياسات الجناح اليميني القومي في أوروبا ومغادرة بريطانيا للاتحاد الأوروبي، ومن تآكل الديمقراطية الاجتماعية في معقلها الإسكندينافي: بزوغ شعبية القوميين السلطويين في الشرق الأوسط، من تعمُّق الأوتوقراطية في تركيا إلى التأثير العدواني الذي يصعب مواجهته في إسرائيل، ومن دور القوة الإمبريالية المعولمة على يد البُنى والمؤسسات المالية على طول عالم الجنوب، إلى انتقام جناح اليمين القومي في الهند وروسيا – إلى التوسع السريع والتداخل بين هذه الظاهرة يشي بأن شيئاً ما درامياً يشق طريقه. وعليه، حتى الآن، فإن تحليلاً دقيقاً وردود فعل سياسية من اليسار لا تزال تلهث وراء القوة الماحقة للرجعية المعاصرة"[1].

يبين هذا الجزء من ديباجة المؤتمر المذكور النزعة المركزانية الغربية عامة المتأصلة لدى هذا التيار. لن نناقش هنا وضع كل هذه الاتجاهات في بوتقة واحدة، وخاصة تقديم الكيان الصهيوني كما لو كان بلداً طبيعياً وبأن مشكلته فقط في عدوانيته. ما نود

(1) http://www.historicalmaterialism.org/conferences/fifteenth-annual-conference?fbclid=IwAR0ea8GTfF7Jpe0200qKwjtKUZlmSmB7-U3C-7O7hlapKHlASQNaTP4mN9g

الإشارة إليه أن هـذا الطـرح يطمـس دور القوميـة التقـدمي والثـوري ضـد الاسـتعمار والإمبريالية، ويطرح القومية كفكر وموقف يميني متقاطع مع الفاشية!

عانت كميونة باريس مـن خلـل في التعـاطي مـع المسـألة القوميـة كمـا بيَّنـا في البحث. كان ذلك التعاطي موضوعياً ومبرراً لأن فرنسـا كانـت محتلـة مـن ألمانيـا. فهـي حالة صراع قومي بجلاء وهذا بالمفهوم الماركسي يوجب النضال القومي بمعزل عن مـدى اطلاع الكميونيين على الماركسية في حينه.

لكن مشكلة الكميونيين كانـت في أنهـم لم يـدركوا أن البرجوازيـة قوميـة طبقـاً لمصالحها فتغاضت الكميونة عن البرجوازية المستخذية للعدو بل تحالفها معه. وهذا يعـني وجوب التمييز بدقة بين قومية الطبقات الشعبية وقومية البرجوازية.

بينمـا كـان موقـف الماويـة مـن القوميـة مسـاهمة هامـة في دحـر الإمبرياليـة والبرجوازية الكمبرادورية في الصين نفسها. إلا أن تقصير الماوية كان في استطاعة الاتجـاه اليميني في الحزب الشيوعي الصـيني تقـديم رأس المـال علـى فـك الارتبـاط ممـا أدى إلى انفتاح على السوق العالمية لتتحول الصـين إلى الأكثـر حرصـاً علـى "حريـة التجـارة" ممـا وضـعها في موقـع المُسـتغِل والمسـتغَل الرأسمـالي وأوصـل الـبعض إلى اعتبارهـا دولـة إمبريالية. وهذا يبين الفارق بين الصـين الـتي اعتـبرت الاسـتقلال القـومي متماهيـاً مـع الشيوعية وبين الصين الحالية التي تستغل أمماً أخرى رأسمالياً.

كانت ثورة أيار ١٩٦٨ وطنية يسارية، لكنهـا نظـراً للقصـورات الـتي وردت في البحث وفي هذا الباب عجزت عن مواجهة البرجوازيـة القوميـة الـتي تمكنـت في النهايـة من ادعاء هيبة فرنسا ومن ثم كسب المعركة وخاصة انتخابياً.

لعـل تجربـة الانتفاضـة ١٩٨٧ هـي الحالـة التراجيديـة في المسـألة القوميـة. فالانتفاضة حراك جمعي وطني وقومي معاً بما هي مبادرة شعبية لم يفجرها أي طـرف بـل الناس. ولم يكن في كونها وطنيـة قوميـة شـائبة تشـوبها حيـث العـدو موجـود وواضـح وحتى حاضراً. لكن القيادة الفلسطينية لِـ م.ت.ف قد تمكنت من تفريغ الانتفاضـة مـن

مضمونها الوطني القومي وحولتها بتطويع موقف الطبقات الشعبية لصالح البرجوازية بشرائحها: الكمبرادور، والتعاقد من الباطن، والبيروقراطية والطفيلية. لذا، انتهت هذه الانتفاضة من حراك شعبي كعلامة فارقة في مشروع التحرير الوطني إلى الاعتراف بالكيان الصهيوني على ثلاثة أرباع الوطن ووضع بقية الوطن في موضع معلَّق بين الاحتلال والاستقلال!

قد نختم هذا الباب بالمقتطف الطويل التالي لـ آلان باديو:

أسباب الهزيمة والمناخ المجافي:

يتم في التحليل العلمي/ الثوري تجليس نتائج كل حدث ضمن شرطه التاريخي الذي يجعل تفسير هذه النتيجة أو تلك، ذلك المآل أو ذاك ممكناً ليغدو مثابة درس.

كان الحزب، كما أشرنا أعلاه ربما القاسم المشترك بين هزائم التجارب الثورية الإنسانية الأربع الأولى في هذا الكتاب، وذلك سواء في حالات غياب الحزب، ضعفه بمعنى عدم ارتفاعه لمستوى قيادة الحدث، مجرد وجوده أو كونه في السلطة.

يذكر باديو بأن أسباب هزيمة ١٩٦٨: غياب الحزب الماركسي – اللينيني حال دون قيادة البروليتاريا للثورة، بينما اضطر ماو في أيلول ١٩٦٧ للاستنجاد بالجيش وهذا دليل أنه أدرك الفشل، وبالطبع كان الحزب تحت قيادة طرائقيو الرأسمالية. وفي انتفاضة ١٩٨٧ قفزت الفصائل لقيادة الانتفاضة لتسلمها لقمة سائغة للقيادة اليمينة كي يغرق النضال الفلسطيني في لُجَّة التطبيع مع عدوه بل أصبح فلسطينيون هم في صدارة دُعاة التطبيع.

كان من بين أسباب الهزيمة تخاذل اليسار واستخدام البرجوازية له كما حصل في فرنسا. في هذا يقول باديو دعنا نعتبر أن "اليسار هو منظومة الشخصانية السياسية البرلمانية التي تعلن تصرح بأنها وحدها المؤهلة لحمل النتائج العامة لحركة سياسية منفردة. ...إنهم وحدهم القادرين على توفير "حركات اجتماعية" وهكذا نعتبر إعلان ١٩ آذار ١٨٧١ بالدقة إعلان طلاق مع اليسار".

أما في أيار ١٩٦٨، فقد كانت نظرة اليمين ثاقبة في تحقيق كسر الثورة حيث فهم بومبيدو سريعاً بأنه فقط الحزب الشيوعي الفرنسي هو القادر على إعادة تثبيت النظام في المصانع. إن الكميونة هي المثال النادر على القطع مع اليسار في صعيد كهذا. بينما في الصين كان يمين الحزب الشيوعي قد أدرك باكراً، قبل ماو، أن الحزب هو القلعة التي باحتلالها يمكنه خصي الثورة، ومن الحزب امتدت يد اليمين إلى الجيش. بينما في الحالة الفلسطينية كانت قيادة م.ت.ف هي نفسها سلطة – وفصائل معاً، كما كانت تلك القيادة قد التقطت باكراً دور المثقفين فحولتهم إلى أداة في يدها. لذا، وجدنا المثقفين الذين طالما تغنوا بغابة البنادق صار سهلاً على القيادة تحويلهم بالمال إلى بيادق متخصصة في مديح رواد الفنادق.

للقيادة في الثورات دور حاسم حيث الحدث درامياً متسارعاً مما يشترط وجود قيادة قادرة على اتخاذ القرار بما يستوعب الحدث ويوجهه. كتب أحد مقاتلي الكميونة في منفاه حيث انتهى دوره بأنه كان يصحو في بعض الليالي حيث تتردد في مسامعه أصوات نفس المجموعات من الناس الذين يمضون إلى حتفهم بالمجزرة بعد دقائق، وهم يصرخون فيه مرتعبين من خلف المتراس: "... أين الأوامر، أين الخطة؟ (p. 161)

and Alian Badiou, *The'orie du sujet, Seuil*, 1982, pp. 14-15.

يا للهول! ما أفظع هذا الكابوس!

يفتح هذا السؤال على مسألة هامة هي عفوية الثورة، حصولها كحدث لم يتم التخطيط له مسبقاً، وهذا ينطبق على مختلف الثورات طالما طابعها أو أساسها ليس انقلابياً. وهذا يجعل فرز قيادة مناسبة للثورة أمر أكثر صعوبة لكنه أكثر أصالة أي توليد قيادة من الميدان طبقاً للحدث. وهذا ما حصل نسبياً في الكميونة لكنه لم يتمكن، كقيادة، من إدارة المعركة بجدارة، وربما يعود ذلك إلى عدم تناسب القوة مع الأعداء.

تختلف تجربة انتفاضة ١٩٨٧ حيث دفع الحدث بعض الفصائل لتوليد قيادة ميدانية مناسبة، لكن تربيتها على التبعية البيرقراطية أعادها إلى حظيرة القيادة السياسية اليمينية لـ م.ت.ف.

ربما أكثر ما يجمع التجارب الأربع كون ميزان القوى السياسي/ الطبقي العالمي لم يكن لصالحها جميعاً. وهذا يبيِّن أن الحدث لا ينتظرنا قط، بمعنى أن يتم تأجيله أو لجمه ريثما نجهز لمواجهته وتطويعه مما يؤكد وجوب توفر القدرة على تلقي أو تلقُّف الحدث وتوجيهه أو قيادته.

فرغم الهزيمة القومية لفرنسا وهي التي حفزت ثورة الكميونيين، إلا أن هذه الهزيمة القومية لم تحرك البرجوازية الفرنسية لمقاومة المحتل والدفاع عن الوطن والتحالف مع الكميونة، بل اختارت التواطؤ مع العدو القومي ضد الخصم الطبقي. أما في الصين الشعبية فقد كان ميزان القوى لصالح الجناح التحريفي في السلطة حيث الحزب والجيش بيد هذا الجناح. ولم تكن محاولة ماو تسي تونغ سوى التدارك المتأخر لإعادة قطار الثورة إلى سِكَّته، وهو الأمر الذي لم يحصل.

لم تكن البرجوازية الفرنسية عام ١٩٦٨ في وضع ضعيف أمام ثورة الطلبة، بل كانت الثورة نفسها اعتراضاً على تغوُّل السلطة البرجوازية ضد الجامعات والمناهج... الخ، أي كانت الثورة الطلابية مثابة دفاع. ومما زاد انحراف ميزان القوى أن الحزب الشيوعي والنقابات لم تقف مع الثورة مما أدى إلى تآكلها إلى درجة أيلولة الأمور إلى انتخابات كانت لصالح اليمين.

في الحالة الفلسطينية، كان حدث الانتفاضة على أهميته ووهجه في ظرف غير مؤاتٍ على مختلف الصعد. كانت قيادة م.ت.ف في المنفى الاختياري في تونس بانتظار أية فرصة للمساومة مع العدو، وكان الوضع الرسمي العربي في غاية الرجعية والضعف مما دفعه ليقف ضد الانتفاضة كي لا تتفشى في الوطن العربي فيكون ربيعاً عربياً حقيقياً. أما على الصعيد العالمي فكان رأس المال قد انتصر على العمل وبدأ المعسكر الاشتراكي في التفكك بينما كانت الريجانية والتاتشرية تفرضان سياسات الليبرالية الجديدة في بلديهما وعلى صعيد عالمي. لقد اصطفت هذه العوامل جميعاً لتكون مناخاً مجافياً للانتفاضة الفلسطينية مما جعل توليد اتفاق أوسلو أمراً ممكناً بما هو اعتراف قيادة م.ت.ف بالعدو على ثلاثة أرباع الوطن الفلسطيني وبقاء بقية الوطن تحت سيطرته العسكرية والاقتصادية.

وانتصارات مهزومة:

صحيح بل مثير للنقد والأسى معاً أن تتفكك منظومة الكتلة الاشتراكية في أوروبا بمثل تلك السهولة دون أن يقوم بعضها بشرف المقاومة لتسجيل سقوط مشرِّف على الأقل. ونقصد مقاومة ممن يُفترض أن الدولة هناك هي دولتهم، أي العمال. ونقدنا هذا لا يتجاهل طبيعة ميزان القوى بين رأس المال والعمل، بين الاشتراكية والرأسمالية وتحديداً بأن قوة الرأسمالية تمكنها من الرد وضرب وحتى تقويض الاشتراكية بمعنى أن الثورة المضادة ، وإن هزمت في ميادين محددة، لم تفقد قدرتها بعد. وهذا يضع تفكك الكتلة الاشتراكية في نطاق الصراع التاريخي الطويل بين الرأسمالية والاشتراكية.

لكن، أن يقف ويتحرك العمال ضد نظام "اشتراكي" وصولاً إلى هزيمته وتقويضه، فهذا أمر يشترط قراءة رصينة ونقدٍ لا يمالىء. صحيح أن الاشتراكية لا بد تنتصر، لكن هذا لا يعفي التجارب من الخلل القاتل الذي حاق بها.

وفي نفس السياق، فإن الموجة القومية الثانية أتت في نطاق سقوط الكتلة الاشتراكية حيث واصلت الثورة المضادة هجومها بتوليد دويلات جديدة من نفس رحم هزيمة الكتلة الاشتراكية، فيا لمفارقة العلاقة والترابط بين الانتصارات المؤقتة والمهزومة تاريخياً!

English Abstract:

This book's topic is practical and dialectical. It is taken from historical events and experiences aiming to show that events as social phenomenon is eternal as long as there is life, time and space, it is changing like matter but will never exhausts. The continuity of events' effects is the main lesson and meaning of history considering the importance of separating events as history from historians will, ideology, and possible misconstruction.

A defeat in a certain period of time never isolated from historical context, because a defeat in certain place and epoch might be a foundation for some form of coming victory and a victory in a certain place and time might be a foundation for a defeat in another place and time. This is what Marx meant that history is a record of class struggles contains victories and defeats. In this context we must put the defeat of socialist countries considering that the defeated socialist experience is a rehearsal in historical struggle and conception of humanity.

While movement of human history is forward in the final analysis, it is important for revolution's fighters on the one hand and human beings in general on the other to believe that even when they, the revolutionaries, defeated, victory is coming albeit if it is during their own life or not, and mainly it is not as long as Counter Revolution CR is still strong.

The real nimbleness reading of history is based on an event breed

by another event, both are connected, but the old is feeding and developing the new, they are not separated from each other as links of history, but the new is not a mere repeat of the old which did not block the emerge of the new. As long as event is a space for contradictions, a continuous contradiction moving from low level to higher one, Marx argues that dialectic is not triple, i.e. thesis, anti and synthesis, there is no synthesis. He meant that what is there is internalization, adaptation, containing of contradiction. By other token that contradictions never solved and will never be solved in terms of ending, but it might be repeated in an eternal motions or on a greater level.

This little book never stops on Paris Commune's historical station or in Palestinian Intifada 1987. History did not provide synthesis to any of both, but lefts everything absolutely opened for contradictions which never ended but growing and intensifying. From this understanding the book's title is deduced.

It is a logical argument that the current period, I mean the 1990s of twentieth century until today, of the main contradiction in the globe is a transitional period followed the defeat of labor by capital which lured Francis Fukuyama to pretend the triumphant slogan, "End of History" that frighten a lot of communists all over the world and led them to hardly struggle to prove that they absolutely gave up and departed their past, i.e. competing with ordinary believers and Forces of Politicized Religion FOPR towards mosques and churches. But that defeat never uproot or block labor's struggle even in its' low level. I prefer to call the period from 1980s

until today the globalization period aiming to differentiate it from imperialism because of several differences between both especially in terms of globalization's larger domination of the globe, its' capitalisms neo liberalism, de-regulation, one polar system…etc.

It is a transitional and restless period, it is like a battle where foes are succeed here and defeated there, i.e. The disintegration of the socialist block challenged by the rise of leftist regimes in South America which nearly terminated by CR. Russia re-emerge and the rise of BRICS challenged by the fall of Brazil's progressive regime, the corruption of South Africa's regime and the victory of the very right wing in India led by the new prime minster Narendra Modi.

But in Arab Homeland, we witnessed a black spring of CR. All of those developments has been crowned by a deep and globalized economic crises 2007-8 where regimes of the core capitalist countries rescues the big banks by peoples' money and prohibit the peripheral countries from adopting any protectionist measures. This prohibition was a result of a global alliance between:

- Capitalism of the core
- Comprador capitalism of periphery.

This alliance turns the world to a Global Capitalist Public Sector GCPS trapped by core's capitalists and peripheral ones and for their interests. This case of conflict might be conceptualized on the global conflict scale crystallized in labor struggle against capital albeit if it took the form of conflict between states, i.e. not a direct class struggle.

In this period a lot of defeated theorizations emerged exaggerating the power of capital and the unchallenged power of the empire, the USA. This led a lot of Trotskyites to move to the neo-conservatives looking for internationalism even through capital! The “golden” result of that is the destruction of Iraq for the sake of pumping its’ oil and perpetuating the Zionist Ashkinazi Regime ZAR.

The irony is that this very shaky period contains its’ negation which uncovers the weakness and fragility of globalism era in a very short period of time in comparison with another eras of history. But at the same time, this shaky era failed to breed a popular movement against it despite of the fact that there were proper environment!

There is no doubt that revolutionary movement is still weaker to carry their heavy job, i.e. to challenge globalism, a fact that recalls me to re-read the lessons of failures of Paris Commune, the Great Proletarian Cultural Revolution 1965, Students Revolution 1968 and Intifada 1987 which are the first parts of this book. While the objective factor was there, i.e. in all those cases, the subjective factor was weak or absent. The opposite is for CR, where the subjective factor was already there and strong. In fact, in many cases of world events, the CR is there beneath the service and ready to jump on the neck of revolution, i.e. the case of East Europe 1990s and what so called Arab Spring 2011.

Those developments either passive or positive raise the question: What is to be done?

This book is a reading of those events aiming to shed some light

for coming developments without pretends that it is a ready solution to be applied for events here or there.

It might be proper to work theoretically intellectually to analyze some issues and reasons which worked for the sake of CR:

- To uncover and criticize the ideology of FOPR which crystallized first in the creation of ZAR as the first state based on religion in modern ages manufacturing a settler colonial state under a religious myth, then followed by imperialism's creation of al-Qaida 1978 in Afghanistan against USSR due its 'support of Afghani new socialist regime and recently expanded to destroy Arab Republics through al-Qaida, ISIS and a lot of similar terrorist organizations of FOPR led by imperialism and financed by Arab oil renter dependent regimes.
- To struggle to rest orate/liberate the masses from the fist of CR
- To terminate injected ideology, internalization of defeat IOD which marketed by CR pretend that Arabs are unable to fight.
- To terminate the domination of dependent regimes over popular classes.
- To reach a decisive boycotting position and to stand firmly against normalization with ZAR. This position educates and recruits the masses to feel proudly that they are in a daily war

against the enemy a fact which engaged the enemy keep it busy and terrible during the period between one war and another. Anti normalization is oriented against all CR camp.

- The disintegration of the components of Arab *Qutri* state by engage its' repressive forces in a daily clashes to be unable to control the masses aiming to lead to the disintegration of its power structure.

The question is: how to be able to achieve all those jobs as an introduction for radical revolution topples the dependent comprador ruling class? Does that means to move towards a direct spontaneous revolution.

When the masses fled to streets, it is an event. Event never tell us in advance or consult us, it is imposes itself as a challenge which raise the question if there is a revolutionary party which grasp the event and able to deal with it properly? If this development took place, we face the challenge if subjective and objective factors are corresponding and working together. Because if the masses flood into streets without a concrete demands and clever leadership, its' movement might evaporated or ridden by CR. It is imperative that the subjective factor must indulge in the field, influence the masses, leading the movement towards revolutionary violence. If not, it is a golden chance for CR.

If the masses did not flood to the streets, the question which must faces the revolutionary party, if it is available:

Will a small and secret armed groups engaged against the regime as an incentive to provoke the masses considering that the disintegration of the regime is a continuous job, not an occasionally one as a premise for violent struggle against the regime?

This conditions the availability of sensitive accounts and estimations, i.e. the limits of power and to what extent the masses are ready to protect the armed revolutionaries either in rural or urban guerilla fighting to close the streets by rocs, junks…etc. I will never forget that scene in West Bank and Gaza in Intifada 87. But I will never forgot as well the fact that the absence of revolutionary party left the masses for the right wing leadership to betray Intifada for a compromise with people's enemy.

What I meant here is to refer to the importance of masses power which breeds the event? In that situation, the main question is:

- Is the social organized tool ready?
- Or is there a chance to breed it in parallel with the event?

How we can make the two choices possible?

It is only by peoples' war which proved that it is possible, what we must do is to enlarge Mao's perspective of peoples' war towards Development by Popular Protection DBPP as a project which people must adopt in all situations, i.e. under colonialism, after liberation and even during a socialist regime.

History shows that people able to contrive unlimited forms of

resistance, but the question which is always facing us is: Who is able to grasp keys of events as long as events are providing us with chances and challenges. This leads us to the important issue, i.e. the availability of the revolutionary party which re channel people's rage into a social conscious revolt. A party rise from the beneath the masses and controlled by them.

In discussing revolution's conditions, one must start from world system at its' large proceeds to concrete cases. That is why this book discuss Paris Commune, the Great Proletarian Cultural Revolution, Student's Revolution, Intifada 87, and Eastern Europe…etc.

One of the main similarities between the four events is that the balance of power wasn't in their favor. Paris Commune took place against two big bourgeois regimes while revolutionary forces weren't ready and united. The GPCR took place when Mao was on the edge of losing control over the party and the army. 68 revolution started by students while the working class wasn't ready to participate spontaneously and the CP was against, and Intifada 87 took place when P.L.O and Arab ruling regimes was in decline and the world capitalist system i.e. the CR was in the beginning of defeating the socialist block .

In all the events, the revolutionary party either absent, against and, what is more importantly and decisive is that none of four events breed that party.

It is important to note that, while three of the events were relatively accepted or gain consensus as positive events despite of the fact

that they failed, the GPCR lacked that consensus, unjustly treated and few of writers praised it. This might be due to:

- It is not an event which took place and disappears totally. It was a big event in a big country which split into two major currents, the revisionists and the Maoists inside China and Maoism and other communist currents on global level.
- It was and still is under bombardments from global capitalist media.

While Paris Commune was the first urban guerilla war in history, it is collapsed fast and became part of history without continue as a threat against bourgeois hegemony. This fate was expected for many reasons as it is explained in the book and one of them because it was limited in one city.

Intersections of Events:

All of the events contains an impressive role by women especially Paris Commune and Intifada 87 where in both events women where spontaneously engaged in the struggle without being mobilized by males. In GPCR women were in the struggle and the same for 68s revolution. Unfortunately, while, following 68 revolutions, women movement, i.e. feminism flourished in France, they retreated in Palestine.

As for the role of political parties, the leading party was relatively absent in the case of Paris Commune, and was available in GPCR , 68 revolution and Intifada 87, but it stand against the revolution in China,

betray the revolution in Intifada 87, and was opportunist in France's student revolution 68.

In Paris Commune, the peasants weren't part of the revolution and even the rich peasants collaborate with the regime to do not provide food to the Commune. In GPCR the youths from rural areas were part of the revolution. In 68 revolution, the peasants participated in the revolution but wasn't the leading part as well.

Intifada 87 depends a lot on rural areas where most of the population were there and participated in Intifada either in challenging the enemy's army by closing all the roads or in providing cities of production and producing for neighborhoods agricultural cooperatives in cities.

While Intifada 87 was a spontaneous popular revolt, the workers were a leading even pioneering part of it especially those who were working inside the enemy's economy. They decide to stop working in the enemy's economy. I called that Internal Withdrawing. While the French trade Unions participated in 68's revolt after the students, but their participations did radicalized the revolution especially the "occupation" Liberation of factories. Most of Paris Commune was proletariat. The same is for the youths who supported Mai in GPCR.

The role of intellectuals is deeply telling, as the most debatable social faction. Fortunately that they are not a class, they are divided between the main social classes and accordingly they are divided in their

role in revolution according to each class which part of them is belong to. While social classes, especially the working class deteriorating in certain times to be not revolutionary, but this class never fluctuates as the case of intellectuals. I am not talking here about the organic intellectuals of each class, i.e. the proletariat or the bourgeois, but about a certain faction of intellectuals who renegade from revolution to be in support and compromise with the bourgeois. Those are not organic intellectuals. I called them the Intellectuals of Sixth Brigade IOSB. They are the opposite of the organic intellectuals. Even the Gramscian organic intellectual must be examined in terms of struggle, i.e. the Gramscian organic intellectual might be organic in the theoretical level, but did not practice the struggle in the field when it is necessary. That is why I think we must call the real revolutionary intellectuals the Engaged Organic Intellectuals EOI. This is the challenge which Adorno failed to outcome.

There is a special similarity between the fates of Paris Commune deportees to Algiers and that of Palestinian fighters who evicted from Lebanon to Tunisia 1982 and later according to Oslo Accords end in the West Bank and Gaza Strip. Unfortunately, the fate of both was terrible. The French deportees became a harsh tool for the sake and in support of the French criminal colonialism against Algerian people, and the Palestinian militants became a force for the strengthening of Oslo Accords which in fact compromise the enemy especially in what so-called the Security Coordination. What a sad end for both.

The second part of the book on defeated victories. I decide to add

it for the sake of contrast or comparison between the two opposite cases, the contradictory events positive or passive.

What is really astonishing in the case of the collapse of socialist countries especially Eastern Europe is: How come that the regimes of socialist countries, which must be regimes for the working and toiler classes has been collapsed easily even without gaining the honor of resistance?

The case became more complex when one thinks deeply to find that those who “revolt” against the “socialist” regimes are the classes which the same regimes were ruling for or on behalf of them.

On the other side, the regimes which substituted the “socialist regimes” put the region on the most shameful dependency on imperialism. This is the most obvious example for a defeated victory.

The same is the case of the third wave of nationalism as a wave manufactured by US imperialism for the dependent comprador ethnicities to support them for building little regimes as tools for imperialism in their regions. The applied examples are in the former Yugoslavia, Iraq, Syria, the former Soviet Union…etc.

In many cases this colonial policy of manufacturing dependent reactionary regimes are false and defeated victories.

فهرست المحتويات

شكر وتقدير ٧

تمهيد ٩

القسم الأول

هزائم منتصرة

١- كميونة باريس: حرب العمال حرب المدينة ٣٩

٢- الثورة الثقافية: حرب من خارج الحزب ٦٧

٣- الثورة الطلابية: حرب الطلاب المدينية ١٠٤

٤- انتفاضة ٨٧: حرب الشعب بلا بنادق ١٤٠

القسم الثاني

انتصارات مهزومة

١- أوروبا الشرقية نصف ثورة نصف مضادة ١٧٢

٢- الموجة القومية الثالثة وليدة الليبرالية الجديدة والعولمة ورثت الأولى ٢٠٧

استخلاص مقارن ٢٢٢

English Abstract ٢٥١

فهرست المحتويات ٢٦٣